جُورجي كنعَان

بُثورٌ في جلدِ التّاريخ

أو

وصمة عيب في جبين التاريخ

أو

أكبر عمليّة تلفيق عرفها التاريخ

أو

سمّهِ ما شِئْت

الى دجاجلة اصلاح الجغرافيا التوراتية.
والى أصحاب الثقافة المشوّهة
الذين يأخذون بنظرية كمال الصليبي الشوهاء.

بُثُورٌ في جِلدِ التّاريخ

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

الحقوق جميعها محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٠

جورجي كنعان

بثور في جلد التاريخ

أو

وصمة عيب في جبين التاريخ

أو

أكبر عملية تلفيق عرفها التاريخ

أو

سمه ما شئت

الى دجاجلة اصلاح الجغرافيا التوراتية.
والى أصحاب الثقافة المشوهة
الذين يأخذون بنظرية كمال الصليبي الشوهاء.

بيسان للنشر والتوز
ص.ب. ٥٢٦١ ـ ١٣
هـ ٣٥١٢٩١

حضرة السريّ[*] النبيل الاستاذ رياض صادق

صحيح أن للبذل والمساعدة مفهوماً أخلاقياً من حيث هما فعل محبّة، ومفهوماً حضارياً من حيث هما تعبير عن الكِبْرِ والتفوّق، ومفهوماً انسانياً من حيث هما تأكيد على القيم الأخلاقية التي تواضعت عليها الفطرة البشرية. وصحيح أن المسكون بخصال الكِبْرِ والتفوق مسكون أيضاً بهاجس البذل والعطاء. ولكن الذي يساهم في تنوير الأذهان المظلمة وتفعيل العقول المعطّلة هو صاحب رسالة انسانية، أخلاقية وحضارية، على اعتبار أن استئصال فكرة خاطئة من رأس إنسان لأجدى كثيراً من استئصال ورم في الجسد، كما يقول المفكر السوري الكبير لوسيان السميساطي.

استاذ رياض

يعتقد الكاتب أن أهم الدواعي والضرورات التي تفرض على الواعي المستنير دراسة الايديولوجية اليهودية ـ الصهيونية، هو أن جماعة بني اسرائيل الذين لم تُعرف لهم جذور في أرض معيّنة، تجمّعوا في وقت ما (هو باتفاق المؤرخين القرن العاشر ق.م.) في بعض مرتفعات فلسطين، وأقاموا شكلاً من الكيان المزعزع القلق المفكّك المتنازع، ظلّ محصوراً في رقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة، ولم يعمّر أكثر من ثمانية وسبعين عاماً، وهي المدة التي حكم فيها داود وسليمان. ثم سباهم البابليون والأشوريون الى بلاد ما بين النهرين. وهناك وضع أحبارهم وكهّانهم تاريخهم (التوراة). وفي تدوينهم ذلك التاريخ وضعوا على لسان إلههم (يهوه) وعده لهم باعطائهم أرض فلسطين «ميراثاً أبدياً. سفر التكوين ١٧ : ٨»، في ما عقد من عهد أو حلف مع آبائهم الأولين. وانتحلوا تراث بابل وكنعان وادّعوه تراثاً يهودياً. وأخذوا بلسان أو شفة كنعان وادّعوه لغة

(*) السري: السيد الشريف السخي.

عبرية. وتبنّوا إله سوريا الطبيعية «ايل» ـ (الله)، ودمجوه بإلههم (يهوه) الذي صار إله المجتمعات المؤمنة بما يسمّى الديانات السماوية، خاصة مجتمعات نصف الكرة الغربي. وبلغة قد تكون أبلغ وقعاً وأشد تأثيراً: سرقوا إلهنا وادّعوه، وسرقوا أرضنا وادّعوها، وسرقوا تراثنا وادّعوه، وسرقوا لغتنا وادّعوها.

ويعتقد الكاتب أيضاً أن المؤلفات التي وضعها في الايديولوجية اليهودية ـ الصهيونية، لا تطمح الى أن يصل قارئوها الى فهم هذه الايديولوجية فحسب، وإنما تطمح الى أن يتحوّل الفهم الى نضال من أجل ما نعتقد أنه الحقيقة والعدل. أي أن تتحوّل المعرفة المجرّدة الى فعل فاضل.

ويعتقد أيضاً وأيضاً أن الدعاة اليهود دأبوا منذ بداية تاريخهم على تحريف الحقائق التاريخية وتشويهها بشكل يضمن تضليل الرأي العام العالمي. وما فتئوا يعمدون الى طمس كل حقيقة تظهر الى النور. وأن أجهزة التضليل اليهودية ـ الصهيونية تلفّ في دوّامتها الرهيبة المفكّرين والاعلاميين والأدباء في العالم الغربي بغالبيتهم. وأن عدداً غير قليل من الكتّاب العرب يسيرون في الطريق التي اختطتها هذه الأجهزة، ويغرفون معارفهم من أوعية المعارف اليهودية ـ الصهيونية، فتندرج مؤلفاتهم في حلف التأييد للايديولوجية اليهودية، وترتفع على سواري التشهير بها. وأن كثيراً، وكثيراً جداً، من الكتب الرائجة التي تتناول القضية الفلسطينية من مختلف جوانبها، شحن بالحقائق المشوّهة والوقائع المزيّفة، أو وُضع بتأثير أجهزة التضليل اليهودية.

وأيضاً يعتقد الكاتب أن مسألة دحض الافتراءات اليهودية ـ الصهيونية ليست بالسهلة أو اليسيرة. لذلك فأنت يا استاذ رياض مدعو مع غيرك من المستنيرين الذين مدّت لهم الحياة الطيّبة يدها، وعرضت الدنيا عليهم كنوزها. المؤمنين بالقضية الفلسطينية كقضية فريدة في التاريخ. أقول فريدة على اعتبار أننا لا نعرف في التاريخ أن شعباً اقتُلع من أرضه باسم الله، بالقمع والترهيب. وجيء بأفراد ينتمون الى قوميات شتى، ومن مختلف بقاع الأرض. لا رابط يجمع بينهم غير المعتقد الديني. فزرعهم أصحاب المشروع في هذه الأرض ـ فلسطين، وأطلقوا عليهم صفة الشعب.

أقول: مدعو مع غيرك من المستنيرين لانشاء صندوق تعاضدي، يكون له

مهمتان. الأولى: انشاء مكتبة تحتضن تراث هذه الأرض، وما قيل فيه وحوله، بهدف ابراز الجانبين الحقوقي والحضاري، المجهولين أو المغفلين أو المطموسين، لأن الصراع مع «أولاد العمومة» كما ينعتهم العرب المغفّلون، هو صراع حضاري وطويل. والمهمة الثانية للصندوق: العمل على طبع ملايين النسخ من الكتب التي تجلو وجه الحق المطموس، في العالم الغربي، ومن المؤسف أن أقول في العالم الشرقي أيضاً، لكي تقول المجتمعات في الأجيال القادمة: كان في ذلك الزمن الرديء (النصف الثاني من القرن العشرين) بعض المستنيرين كالمشاعل في مجتمعات عريضة من الأذهان المظلمة والعقول المعطّلة. وبورك بمن استنار فأنار.

مقدمة

في مؤلفي الأخير «محمد واليهودية» ألقيت بقعة من الضوء على نماذج من الأغلاط الكثيرة والفظيعة التي وردت في مؤلفات الغربيين في أثناء تناولهم تراثنا بالدرس والتحليل. وعقدت فصلاً لمسألة «قصور الذهن العربي وتقصير المؤرخين العرب». وكنت على أهبة الاستعداد لاختتام الفصل بعرض أغلاط الدكتور كمال الصليبي في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب». ولكني آثرت في اللحظة الأخيرة أن أفرد له بحثاً خاصاً لأن ما في كتابه من صنوف الأوهام وضروب الاختلاق والتلفيق، وما يشتمل عليه من مختلف أشكال العورات والسقطات، يستلزم وضع كتاب قائم برأسه. وقد أطلت النفس في انتقاده لأنه ذو شأن وخطر، فهو لأحد مشاهير المؤرخين، ومن المتوقّع انتشاره بين ظهراني القوم. فحرصت على تفنيد ما فيه من أغلاط شنيعة، لئلا تفشو أوهامه فيهم وتتأصّل جذوره في العقول، فيصعب بعدئذ استئصالها.

الدكتور كمال سليمان الصليبي يتعامل مع القلم وإصدار الكتب في بيروت. صدر كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» بالالمانية ثم نقل الى الانجليزية. وقد لا يكون غريباً أو مدهشاً أن يصدر في العالم الغربي مثل هذا الكتاب الذي يسرد بتفصيلات مذهلة أكبر وأخطر عملية تزييف وتحريف عرفها التاريخ. فالغربيون، ما عدا القليل منهم، محدودون وسطحيون، يحومون حول المسائل الحسيّة، ولا يتوسّعون في النظر أو يتعمّقون وراء الظواهر التي يلمسها شاهد الحسّ لمساً، فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع.

نحن لا ننكر أن لهم فضلاً علينا، فقد تطوّعوا، كرماً ولطفاً، لاستكشاف

الدفائن في أرضنا، ثم انصبّوا بهمم قعس على استطلاعها وتفسيرها. واليهم يعزى فضل عظيم في ما نُبش من نوادر النقوش والمخطوطات، وما استُنقذ من عبث الزمان وجهالة الانسان. ولكنهم كانوا كحاطب ليل، أحسنوا في أمور، وأساؤا في أخرى. فقد قصّروا مثلاً في الوقوف على ما في لغتنا من دقائق الأوضاع وخفايا الأسرار وغوامض الحروف وخصائصها وبدائع الصيغ ومعانيها. وتقصيرهم الشنيع تمثّل في نظرتهم الى معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية على اعتبار أنها ديانات وضعية تاريخية. وخلطهم بين مفهوم «المعتقدات الطبيعية» ومفهوم «الديانات التاريخية أو الوضعية» غفلة أو اغفال، سهو أو غلط، قصور أو تقصير سمّه ما شئت. وعلى أي حال نحن نعذرهم لأنهم أجانب عن منطقنا وألسنتنا ومفاهيمنا. والرجل الأعجمي لا يمكنه أن يصل يوماً الى اكتناه أسرار لغتنا ومفاهيمنا الغيبية. ومعرفته بالعربية ليست كافلة له أن يحكم على أساليبها ومضامين الكلام فيها، على تعدّد الأمزجة واختلاف الأذواق.

قلت ليس غريباً أو مدهشاً أن يصدر كتاب الصليبي في العالم الغربي. ولكن الغريب أو المدهش أن يترجم الكتاب الى العربية وينال شهرة واسعة ويكون لصاحبه تلاميذ يقتفون أثره ويتتبّعون خطاه. وإذا كان الصليبي قد نعت عمله بـ «المعرفة الخاصة» به، ص ١٩ فقد جاء بعده من يدعو عمله «نظرية»[١].

وهكذا صار الجميع يأتمّون بالمعلم كمال الصليبي، خاصة أولئك الصبيان أدعياء الأدب الحافين من حوله والمتملّقين له. وقد أصبح لهم ولكل من جاء بعده، الدليل الوحيد. ومن الممكن أن يسير هذا الموضوع في وجه غير وجهه، فيفسد شيئاً فشيئاً، وتصبح الأوهام داء عضالاً، وتضحي الأغلاط من الشائنات غير الزائلات، وتتحكّم تلك الأغلاط في النفوس والأقلام، وليس من يقوم وينبّه على تلك الفظائع الشنيعة. والمؤسف أنه لا يوجد أي قانون يمنع الكاتب الجاهل من أن يكتب كأفضل الكُتّاب وأذكاهم وأصدقهم، وأن يكون كتابه وعاء لكل فضلات التلفيق، وأن يصق كتاباته التافهة على الآخرين.

فمنذ صدور كتاب الصليبي (١٩٨٥) كثيراً ما كنت أحسّ بالغضب والغيظ

حين ألتقي بمتثقّفين، خاصة دكاترة وأساتذة جامعات وباحثين في حقول مختلفة من الأدب والفكر، يتحدّثون عن الصليبي (المؤرخ البليغ، المبتدع للمعاني والمبتكر للمواضيع التي لم يسبقه اليها أحد. وقد نقلها الأجانب الى لغاتهم اقراراً بفضل المؤرخ وعلمه وابتكاره المباحث). ويُشيدون بكتاب المؤرخ (العلمي والموضوعي الى أبعد الحدود. وإنها لأمنية رائعة أن يدرسه المؤرخون ليتعلّموا منه علمانية العقل وفروسية الموهبة).

وكم كان عقلي يضجّ احتجاجاً واستنكاراً حين كنت أقابل مثقّفاً (أو من يزعم أنه مثقف) لا يغضبه كتاب الصليبي، أو يبارك ما جاء فيه، أو يكيل للصليبي عبارات الإطراء والثناء، أو يكنّ لكتابه كل مشاعر الرضا والاستحسان. ولدى سؤاله، يحاول أن يعبّر عن رضاه بكل لغات الرضى.

وكم كان وعيي يضنيني أسفاً وأسى حين كنت ألتقي بمجموعة من المتثقّفين الذين فقدوا صواب الرؤية ونعمة التفكير، وهم يحتفون بتفاهات الصليبي، وقد حوّلوا وقارهم وذكاءهم الى أدوات عرض وتعابير تبجيل لغباوات الصليبي وسخافاته وتدجيلاته. أو حوّلوا الندوة التي يعقدونها الى أجهزة عرض لطفولتهم الباحثة عن التعرّي والضجيج.

وكان أقبح موقف يشتم عقلي أن أصادف انساناً مثقفاً (أو من يزعم أنه مثقّف) يفتقر الى معاناة الغضب والرفض والاحتجاج، وبالتالي يعجز عن استقراء ما في كتاب الصليبي من حماقات وأكاذيب وتلفيقات.

في هذا الواقع من ضحالة الثقافة وضمور الوعي وغفلة الذهن، كان حزني مضاعفاً: مرّة حين يُضنيني الوعي بأني وحدي الضاج احتجاجاً وألماً من ضخامة التلفيق في كتاب الصليبي، وهول البشاعة في تدجيله. ولعلّ أبشع أشكال الأسى أن تُوهَب عقلاً محتجّاً في مجتمع غابت عنه كل أشكال الاحتجاج. ومرّة حين يضنيني الشعور بأن تحدّث المفكرين (أو من يزعم الناس أنهم مفكرون) وأساتذة الجامعات، بالاسلوب الذي يتحدّثون به عن كتاب الصليبي، لهو أقسى وأقبح أسلوب من أساليب الهجاء والسباب والتحقير للذهن العربي وللعقلية العربية.

ومع هذا ظللت أربعة عشر عاماً (من ١٩٨٥ تاريخ صدور كتاب الصليبي حتى ١٩٩٩ تاريخ وضع هذا الردّ) أكظم غيظي وسخطي وألجم مشاعري

الحزينة والرافضة، قائلاً في نفسي: فلنترك للتاريخ السابق واللاحق مسألة الردّ القاطع على مزاعم الصليبي وتفنيدها.

وحين لم يظهر باحث أو ناقد في الغرب أو الشرق يفنّد ما سطّر الصليبي في كتابه من أوهام. أو يلجمه بلجام الاسكات والافحام. أو يبدع في تزييف آراء البروفسور. أو يأتي بأدلة معقولة ومنقولة يمزّق بها مزاعمه أشنع تمزيق. أو على الأقل يشير الى ما في كتابه من معايب ومغامز وهنات.

وحين رأيت من جاء بعده من المؤرخين الجهلة المغرورين، الذين يعانون من غيبة الفهم، والحرمان من نعمة التفكير، وقد خُدعوا بأوهامه وأباطيله، فوضعوا المؤلفات اقتفاء واتباعاً، وزادوا عليه في تعدّد الطروحات وتراكم التناولات. مما أوقع الكثير من القُرّاء في مهاوي الأضاليل، وساق جماعات ممن ينعتون أنفسهم أو ينعتهم الآخرون بأنهم من كبار المثقفين، الى وهاد الأوهام، فصدّقوا دون تروٍّ أقوال الصليبي وآمنوا بكلامه ورفعوه سماء وردّدوا صيته كالببغاء دون فقه ولا بحث. فكانوا خير مثل لمن فقدوا صواب الرؤية في استعدادهم للتصديق والانقياد، والنكوص عما يمليه العقل من وجوب التفكير والتأمّل والتروّي والتساؤل.

غيظي من هؤلاء القوم أنهم يعاقبونني بتجمّدهم عند مستوى واحد من بداوة الجهل وضحالة الوعي، أكثر مما يعاقبني المؤرخ كمال الصليبي بتحويل هرائه وغثيانه الى كتاب.

وحين ألفيت كتاب الصليبي لا يقتصر على أغلاط قليلة أو كثيرة، كما هي الحال في المؤلفات الأخرى التي عرضت لأغلاطها في مؤلفي الأخير «محمد واليهودية». وإنما هو مشحون بالأغلاط لدرجة لا تجد فيه سطراً واحداً يتزيّا بالزي الصحيح والمعبّر. وهي أغلاط فريدة في بابها لا تخطر على بال ولا تجول في خاطر، وكأن الرجل أوحد زمانه في أشرس عملية تلفيق عرفها التاريخ. وأنه أصاب، في أوقح نظرية ضمّتها دفّتا كتاب، أمراً يقلب التاريخ ظهراً لبطن.

وحين أدركت أني بقراءتي لكتاب الصليبي، تسقط في عيني كل الدمامات والعاهات والغباوات والتناقضات، وكل العبث والتفاهات. وقد تنفجران بهذه

الأشكال من التشوّهات والتلفيقات التي حوّلها المؤرخ الى بلاغة مفترسة متوحشة.

وحين، وحين...

كَبُر ذلك عليّ، فانبريت للردّ على مؤرخ لم يجد وسيلة يعرض بها كل ما في نفسه من ضعف وسخف وانحراف، غير الكلمة. وبذلك يحكم على قارئه المستنير بعذاب الغضب والرثاء والاشمئزاز.

وبعد، قد يتهمني القارئ بأني لم ألتزم الأدب والتهذيب في صياغة هذا الردّ. وبأن تعابيري كانت أبداً متبرّمة وغاضبة، وطوراً أشواكاً ناخسة، وكانت أحياناً أسلحة مقاتلة. وبأني رميت المؤرخ كمال الصليبي بكلام قارص أقذعت فيه أي اقذاع.

مهلاً، فأنت لم يُشْقِك، كما أشقاني، الشعور بالتعب والغثيان أو بالجنون والتوتّر، من هول العرض التلفيقي الذي يتلاحق أمام الباصرتين الواعيتين، بطريقة استفزازية، ناقلاً بأمانة جميع المشاهد اللغوية والفكرية المثيرة، في صور من الجهل وقصور العقل.

وأنت لم يُضْنِك، كما أضناني، الإحساس بالسخط والغيظ والانكار والاحتجاج، لمؤرخ يريد لعيون قرائه أن تكون حفراً تسقط فيها تفاهاته دون أن يستطيعوا رؤيتها. وأن تكون أذهانهم أوعية يلقي فيها الوعّاظ الجهّال المخادعون والكُتّاب الدجّالون، كل ذنوبهم وهمومهم ومتاعبهم العقلية والأخلاقية. أوعية تتجمّع فيها أبشع ضروب التلفيق وأندر أنواع الغباوات وأشنع أشكال الجهالة في التاريخ. وتتسع لكل بصاق المصابين بأمراض الجهل المتعفّن، والساقطين الى أعمق مهاوي الخسّة والنفاق. يريد لقُرّائه أن يفقأوا عيونهم الناظرة القارئة المتسائلة، وأن يستغرقوا في الهرب من التفكير ومن فهم أي شيء، وأن تلتهم عقولهم بكل شهيّة، كل ما يعرضه، بكل مجد وكبرياء، من العيوب والنقائص ومن العفن التفسيري والتأويلي. وأن تتحوّل أنديتهم الى حفاوات بكل التفاهات والغباوات. وبالتالي تتحوّل وجوههم الى مباصق للجهل والتدجيل والتلفيق.

وأنت لم يرشح صدرك، كما صدري، بالحزن والمرارة والرثاء لمؤرخ تملّكه الغرور تملّك الخبل للمخبولين، فوضع كتابه الحافل بالتشوّهات

والعاهات والبذاءات المعبّرة وغير المعبّرة، في صيغ من الصلف والقبح والادعاء، لا توازيها صيغة أخرى في كتاب آخر. مؤرخ حوّل مستويات الضعف والعجز والتفاهة والتقصير التي يرسف فيها، من مستويات ممكنة أو خامدة أو صامتة، الى مستويات وافعة وضاجة ومثيرة ومرئية ومقروءة ومتوحشة في اعلانيتها.

وأنت لم يُشقِك، مثلما أشقاني، البحث عن الوعي في مجتمعات فقدت القدرة على التعبير بأي لغة من لغات الوعي، أو ان الوعي فيها مستلب أو مهزوم أو غافل أو مدجّن. ومن المحزن حتى الموت أن أفضل تعبير عن انهيار مجتمع أو أمة هو ظهور أعراض غياب الوعي لدى الأفراد فيه أو فيها.

مجتمعات، القارىء فيها لا يفكّر في ما يقرأ ولا ينقده، ولا يتخاصم أبداً مع عقله، وإنما يعيش في سلام وتوافق عقلي مع كل الكتابات التي تفقأ الحصرم في عينيه. ولذلك لم يقرأ كتاب الصليبي على اعتبار أنه وعاء لكل فضلات التلفيق في التاريخ. ولم يتعامل معه على اعتبار أنه كائن مشوّه مزوّر، وأنه يمثّل عملية محو للتاريخ.

مجتمعات تحوّل القراء فيها الى أجهزة استقبال لا ترفض ولا تناقش أو تنقد أو تفهم ما يقدّم اليها. مجتمعات، فسد الكلام فيها والتفكير. وفقدت الكلمة أخلاقيتها فيها، فتحوّلت الى نوع من المعصية البذيئة، الى شعارات باصقة على مزايا العقل، الى دين من الوقاحة والأكاذيب الغبية، الى صراخ يهدّد أعصاب الانسان وذكاءه بالجنون. مجتمعات هيّأت لمؤيرخ أن يقرأ تفاهاته وعاهاته ونقائصه بأعلى صوت وفي جميع الأسواق والنوادي والجامعات، وأن يقرأها قراءة عالمية.

والسؤال: كيف لم تتحوّل الأفواه جميعها والأقلام كلها واللغات سائرها، الى منابر ضاجة ثائرة مندّدة بالمتعاملين بالتدجيل، الداعين الى التدجيل، العاشقين للتدجيل، المعلنين عن التدجيل، والمفاخرين بالتدجيل؟.

إنه لهجاء وسباب للمجتمعات التي راج فيها كتاب الصليبي ألاّ تفعل هذه المجتمعات شيئاً لفضح هذا الكتاب أو للتشهير به، أو على الأقل القاء الضوء على الغايات التي يرمي إليها الكتاب أو صاحب الكتاب. وإنها لحالة غريبة من

الجهل والتخلّف ألاّ يقوم المستنيرون، وعلى الأقل أصحاب الأقلام منهم أو روّاد المنابر، يندّدون بدجاجلة اصلاح الجغرافيا التوراتية، ويغضبون من أصحاب الثقافة المشوّهة الذين يأخذون بنظرية كمال الصليبي الشوهاء.

وبعد، من البديهي أن الطبيعة أو الآلهة، لا فرق، وهبتنا عقلاً، وأحاطته بكل ما يفرض عليه التفكير والتساؤل. فلماذا لا نمارس إذاً ما وهبتنا إياه الطبيعة أو الآلهة؟. وما دام التفكير والتساؤل هما الانسان في أعلى مستوياته. فكيف يعيش الانسان من غير أن يفكّر ويتساءل؟. وكيف يفكّر من دون أن ينقد؟.

وبما أن مجتمعنا مريض بضحالة الثقافة وقصور الوعي وغيبة الفهم، فهو محتاج الى علاج. وما علاجه سوى الانتقاد. وبما أن الصليبي كتب كتابه بمستوى من الغفلة أو من الخبث أو من الجهل، وأفعمه بالتلفيقات القميئة والتمحّلات البذيئة والتعاليل المريضة، فطمس الحقائق وحقن الأتباع بالأضاليل، حتى لقد أصبحت تشوهات المؤرخ وعاهاته وبذاءاته لامعة مدوّية، ومقروءة بلغات كثيرة، ومطروحة في جميع الأسواق. وبما أن العبد الفقير كاتب هذه السطور يريد وجه الحقيقة، ويرى من العيب السكوت على ما لا يصح السكوت عليه. وبما أنه حزين لأنه يعاني بعاطفته وتفكيره، ولا يستطيع أن يرفع صوته محتجّاً ضد الغفل أو التغافل، الغباء أو التغابي، الجهالة أو التجاهل. وبما أن منطقه لا يستطيع أن يغفر للجاهل جهله، وللأستاذ الجامعي قصوره الذهني، وللانسان الذي خلقت فيه الطبيعة أو الآلهة عقلاً، ولكن من دون أن تكون له رغبة في التساؤل والنقد، أو قدرة على التفكير والتنظير. وبما أن، وبما أن.. اضطر أن يدجج قلمه بشيء من خصائص الفؤوس والمعاول لتحطيم بعض الهياكل الفارغة التي بنيت في الهواء ولم تشتمل إلا على هواء.

* * *

ومن الضروري التذكير، في ختام هذه المقدمة، بأني لم أستطع أن أذاكر حضرة المؤرخ البروفسور كمال الصليبي بغلطات بسيطات أو قليلات، تلبية لدعواه الجفلى في مقدمة كتابه لتدارك ما فيه من الخلل والخطأ، لأن كتابه لا يتضمّن سطراً واحداً فيه من الصحة ما يجعله بمنأى عن أقلام النقّاد أو القرّاء المستنيرين. والواقع أن تفنيد الأغلاط في كتابه أمر صعب، إذ أن الناقد يحتاج الى وضع تصنيف يكبر تصنيفه ليفصّل القول في الأوهام التي جعلها الصليبي

حقائق، وليفنّد مختلف ضروب التلفيق والتدجيل التي أراد لها الصليبي أن تجاري الواقع عقلاً ومنطقاً.

ومن الضروري التذكير أيضاً بأني لم أستقصِ سقطات الصليبي جميعها، بل أغفلت أشياء كثيرة، منها مثلاً مسألة تحريف أو تجاهل الحقائق التاريخية. وأوجزت في عمليات التزييف الهائلة، وفي مسائل أخرى كمسألة خلط العصور واختلاق الأصول.

العبد الفقير

جورجي كنعان

المجتمع والتجمّع

في أيلول ١٩٨٥ صدرت الترجمة العربية لكتاب المؤرخ كمال الصليبي «التوراة جاءت من جزيرة العرب». وقد عبّر المؤرخ في السطور الأولى من مقدمة كتابه، عن الغاية التي رمى إليها من بحثه، بالقول «هذا الكتاب بحث في جغرافيا التوراة على أسس جديدة. وخلاصته **أن** البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، **بل** في غرب شبه الجزيرة العربية، بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن». ص ١١.

وفي الصفحة التالية من المقدمة يؤكد المؤرخ على مقولته بالقول «**وقد** كان لبني اسرائيل، بين القرن الحادي عشر والقرن السادس ق.م. ملك في بلاد السراة (أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير)». ص ١٢

وهذه المقولة التي يطرحها المؤرخ بصيغ تأكيدية (أن تفيد التأكيد. وبل تفيد الاضراب عن السابق والتأكيد على اللاحق. وقد تفيد التحقيق). والدلائل التي يسوقها ليثبت صحة مقولته أو نظريته، تتلخّص في «المقابلة اللغوية بين اسماء الاماكن التوراتية واسماء أماكن تاريخية أو حالية في جنوب الحجاز وفي بلاد عسير». ص ١٣

وفي المقدمة ذاتها وقبل أن يعرض أي نموذج من مفردات المقابلة اللغوية التي ينوي اجراءها، يعلن النتيجة التي يتوخّاها أو المقولة ـ النظرية التي يرمي الى اثباتها، وبصيغتين: تأكيدية وتقريرية. في الأولى يقول «إن الأكثرية الساحقة من اسماء الاماكن التوراتية ما زالت موجودة الى اليوم، بشكل أو بآخر، في غرب شبه الجزيرة العربية، وفي ذلك ما يثبت صحتها». ص ١٦ وفي الثانية يقول «**تبين لي بما لا يقبل الشك** وجود معظم الاسماء التوراتية، بشكلها الأصلي أو بشكل معرّب، في بلاد السراة وما يليها من جبال تهامة ووهادها

غرباً، والمناطق الداخلية الواقعة بين وادي نجران ووادي تُرَبَة حتى وادي وَجّ (وهو وادي الطائف)». ص ١٨

وقبل أن نفنّد النظرية التي يطرحها المؤرخ، أو المقولة التي يتبنّاها، نرى من الضروري القاء بقعة من الضوء على هذه الأرض (فلسطين) تاريخاً ومجتمعات ومعتقدات، لكي نتمكّن من التعرّف على معادلة المؤرخ الجبرية، النادرة والفريدة، في موضوع التاريخ، وخلاصتها: اقتلاع أرض فلسطين بمظاهرها الطبيعية وجذورها التاريخية والحضارية، من ساحل البحر المتوسط الشرقي، ونقلها في عملية جبرية قاهرة الى ساحل البحر الأحمر الشرقي. ومن لا يعرف أن التاريخ يدخل في اطار علم الجبر (باعتبار الصليبي طبعاً)، فعليه أن يرافقنا في هذا البحث، أو أن يقرأ كتاب الصليبي، ولكن بذهن غير مغفّل وعقل غير معطّل.

الأرض ومجتمعاتها

تساءل المؤرخون والباحثون عن الوطن أو الأرض الأم التي انطلقت منها الأقوام التي تفرّعت وتوزّعت في مختلف أقاليم سوريا الطبيعية، ثم شكّلت مجتمعاتها في بداية التاريخ. وأبدوا في ذلك آراء كثيرة ومتناقضة أحياناً. وأخيراً تركّزت آراء الغالبية[٢] منهم حول شبه الجزيرة العربية، كمركز بشري قديم، انطلقت منه موجات بشرية قدّرها المؤرخون بخمس موجات. قد تكون الموجة الأولى حدثت في الألف الخامس أو الرابع ق.م. (الموجة الأكادية). وكانت الموجة الأخيرة (الاسلامية) في سنة ٦٣٦م. فالمعروف أن البحر يحيط بالصحراء العربية من جهات ثلاث. وعندما كان عدد السكان يزيد عن قدرة الأرض على اعالتهم، كانوا يميلون الى البحث عن مجال حيوي متيسّر في السهول والوديان المترامية الى الشمال من الصحراء.

ويرى المختصّون بدراسة تاريخ الشرق المتوسطي القديم أن المجموعات البشرية الفائضة ظلت تنساب من الصحراء العربية ومن البادية السورية على شكل موجات متلاحقة طوال ثلاثة آلاف سنة، تتوزّع في البيئة السورية الطبيعية التي تمتد بين مرتفعات وادي النهرين الشرقية وبين البحر الأبيض المتوسط غرباً. ومن الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً الى البحر الأحمر جنوباً. وكانت

الموجة اللاحقة تتأثر بالتراث الحضاري للسابقة، وتنصهر معها في بوتقة حضارية واحدة. وفي هذه القاعدة الحضارية كان التفاعل الاجتماعي والفكري والاقتصادي يأخذ مجراه الطبيعي[٣]. وفي هذا المجرى تدفقت تيارات حضارية فاض اشعاعها على آسيا الصغرى وحوض المتوسط ووصل الى المحيط الأطلسي.

والأقوام التي كوّنتها تلك الموجات تتشابه في ما بينها الى حدّ يكفي لتبرير الفرض القائل إنها انتشرت من موطن مشترك قديم الى البلاد التي استوطنتها في العصور التاريخية. وهي تؤلف كتلة واحدة، ليس باجتماعها في صعيد جغرافي واحد، والتحدث بألسن لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها أيضاً في أصل حضاري تاريخي واحد[٤].

فقبل الأزمنة التاريخية التي اتفق المؤرخون على تحديدها بالألف الرابع ق.م. كانت المجموعات البشرية الفائضة تنساب من الصحراء العربية ومن البادية السورية الى الهلال الخصيب حيث تستقر وتتكاثر. ويبدو أن المجموعة الأولى التي استقرت في السهول الجنوبية من حوض النهرين شكّلت مجتمع أكاد وبلاد أكاد. وأن المجموعة التي وصلت الى الحزون الشمالية من بلاد النهرين شكّلت بلاد أشور. وفي الألف الثالث ق.م. يطلع التاريخ على المجتمع الأموري في سوريا الوسطى والشمالية، يعمّر أرضه ويبني حضارته. ويبدو أو من المرجّح برأي كثير من الدارسين أن سكان حوض النهرين الأدنى هم الذين أطلقوا على هذا المجتمع لقب «أمورو» أي بلاد الغرب. كما أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط اسم «بحر أمورو العظيم».

ويطلع التاريخ أيضاً في الألف الرابع ق.م. على المجتمع الكنعاني في سوريا الغربية، يعمّر أرضه ويبني حضارته. وقد أجمع المؤرخون على القول إن الكنعانيين هاجروا من البادية السورية واستقروا في مناطق متفرقة من سوريا الغربية. ثم أصبحوا مع الزمن مجتمعاً زراعياً يعيش في مدن صغيرة تحميها الجدران الحجرية العالية[٥].

يذهب المؤرخ أوتو ايسفلد الى القول إن موطن الكنعانيين الأصلي هو شبه جزيرة سيناء، أو البادية العربية المجاورة، التي يُعتقد أنهم قدموا منها حوالي ٣٠٠٠ ق.م. وحلّوا في المواقع التي عرفت باسمهم في العصور التاريخية.

ويخصّص جورج كونتينو صفحات كثيرة لـ «مهد الكنعانيين»، ولا يتردّد في ارجاع أصلهم الى ما قبل التاريخ. أما المؤرخ الكلاسيكي فيلون الجبيلي فيزعم أن الفينيقيين (الكنعانيين) أصيلون في موطنهم. وأن بلادهم هي مصدر الناس والآلهة والثقافة الانسانية كلها. ويعيّن هيرودتس موطنهم الأصلي على الساحل الارتيري. ويذهب سترابو الى القول بوجود معابد ومدافن على خليج البصرة شبيهة بالمعابد والمدافن الفينيقية. ويثني بلايني على كلامه. ويقول جوستين إن الفينيقيين بعد أن أجلتهم الزلازل عن موطنهم الأصلي حطّوا رحالهم في بادىء الأمر عند البحيرة السورية (البحر الميت)، ومن بعد على ساحل المتوسط[٦].

والسؤال: متى هاجروا من البادية الى المناطق الخصبة في سوريا؟. لا ندري. وليس لدينا أي دليل على هجرتهم من مكان ما في التاريخ القديم الى هذه الأرض. وربما وُجدوا على شاطىء سوريا الغربية وجبالها من عصور ما قبل التاريخ. فالمجتمع لا يوجد فجأة، وإنما يعبّر عن وجوده التاريخي عندما ينشط عسكرياً وسياسياً وحضارياً. وهناك ما يكفي من الأدلة والبراهين على استقرار الكنعانيين في سوريا الغربية قبل التاريخ المدوّن. وهم الذين أسّسوا حضارة الساحل السوري وحضارة فلسطين القديمة.

والواقع أن التنقيبات التي أجريت الى الآن (١٩٩٩) في بعض المواقع أثبتت أن بعض المدن الكنعانية كأريحا وبيت شان وجازر ومجدو وأورشليم وجبيل وأوغاريت، يسبق التاريخ. وقد أرجع علماء الآثار مدينة أريحا الى ما قبل الألف السابع ق.م. وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال قائمة حتى اليوم[٧]. وتدل الآثار المكتشفة في أوغاريت على أن المدينة كانت مأهولة منذ ما قبل الألف السابع ق.م. وأن ثقافتها ترجع الى ما قبل التاريخ[٨].

وبعد ضعف أو تفكّك الامبراطورية الأمورية، أو بعد تقلّص نفوذها حوالي ١٥٠٠ ق.م. اتضح وجود الأراميين السياسي. والواقع أن بداية التاريخ الأرامي غامضة، فليس ثمة وثيقة تطلعنا على نشأة الأراميين. وكل ما يمكننا قوله إنهم تسرّبوا من البادية السورية الى الهلال الخصيب مثلهم مثل الموجات التي سبقتهم. ويبدو أنهم كانوا في بداية ظهورهم على مسرح التاريخ قبائل رحّلاً، تتفق تحركاتهم وتحركات البدو الدائمة في مواسم معيّنة من أطراف الصحراء الى

المراعي المحيطة بها. وقد توزّعت هذه القبائل بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر ق.م. في أقاليم الهلال الخصيب، من الخليج الصحراوي حتى فلسطين[٩]، راحلة أحياناً بحثاً عن أرض أكثر خصباً وأرحب متسعاً، أو مستقرّة في إقليم ما مؤسّسة إمارة أو مملكة.

بدأت الممالك والامارات الأرامية تأخذ دورها السياسي في القرن الخامس عشر ق.م. ففي الجزء الشمالي من بلاد النهرين كان لهم عدد من التجمّعات الكبيرة (أرام النهرين. فدان ارام). أخذ بعضها شكل الدول الصغيرة أو المدن ـ الممالك، لعل أهمها دولة بيت عديني التي كان مركزها في تل برسيب على الفرات الأعلى، ودولة بيت بخياني التي كان مركزها في غوزانا (تل حلف).

وبعد سيطرتهم على بابل حوالي ١٠٥٠ ق.م. توغّلوا جنوباً فكوّنوا إمارة بيت يكيني. ثم كان لهم إمارة بين بابل وبين رأس الخليج الصحراوي عرفت باسم «كلد». وقد أدّى الكلدانيون دوراً بارزاً في حضارة بلاد ما بين النهرين.

وفي الشمال الغربي أسّس الأراميون عدداً من المدن ـ الممالك مثل مملكة ياعودي، كانت عاصمتها «سمائيل» بين انطاكية ومرعش، (تقوم عليها الآن بلدة زنجرلي التركية). ودولة أغوشي الى الجنوب من حلب.. وكان لهم عدد من المدن المزدهرة مثل أرفاد وكركميش (جرابلس).

وفي سوريا الجنوبية كان لهم عدد من الامارات والممالك مثل أرام بيت رحوب في وادي الليطاني الأوسط، وأرام بيت صوبا في البقاع، وأرام معكة في الجولان، وإمارة جشور بين اليرموك ودمشق، وفي دمشق كان لهم مملكة عظيمة.

وقد انتشرت حضارة الأراميين التجارية انتشاراً واسعاً، وتركت وراءها مؤثرات خلدت مع الأيام. وقد توصّل حضريوهم الى اشغال المناصب العالية في الدولة البابلية الثانية، ومن ثم في الدولة الفارسية.

* * *

والى الشرق من نهر الاردن قامت ممالك عمون ومؤاب وأدوم ومديان. فمؤاب الى الجنوب الشرقي من البحر الميت. من مدنهم ديبون، أرنون، حولون، بيت ماعون، وحشبون. ومديان على التخوم الغربية للبادية العربية حتى خليج العقبة. وأدوم في صحراء النقب، كان لها ميناء في منطقة ايلات الحالية.

عاصمتها بصرى، ومن مدنهم أزيون. والى الشرق من القدس (٦٠ ميلاً) كانت مملكة عمون، عاصمتها ربّة (عمان الحالية). كان العمونيون يسكنون بيوتاً حجرية محاطة بأسوار من الألف السادس ق.م. وقد دلّت الابحاث والآثار المكتشفة على أن الأنصاب والصوامع الحجرية الضخمة التي بقيت آثارها في جبال عمان، كانت قد أقيمت كهياكل على مشارف الجبال، وعند عيون الماء. ومن الآثار المكتشفة في عمان ضريح منقور في الصخر فيه مجموعة نفيسة من الأواني الفخارية ومن الأختام.

وحوالي القرن الثامن ق.م. بدأت مجموعات بشرية بالتسرّب من البادية العربية الى المشارف الشمالية من منطقة الحجاز. وفي القرن السادس ق.م. تشكّلت منهم موجة استقرت في الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء، والى الشرق من نهر الاردن، عرفت باسم الانباط. وفي القرن الخامس ق.م. كان لهم مملكة عاصمتها «سلع»، أطلق عليها اليونانيون صفة بترا أي الصخرة. بلغت درجة رفيعة من الحضارة.

امتدت سلطة الانباط من قاعدتهم البتراء الى النواحي المجاورة فبسطوا نفوذهم على سيناء وحوران ووادي القرى والحجر ومؤاب والبلقاء وأرض مديان وأعالي الحجاز. واشتهرت مدن لهم بالاضافة الى العاصمة «البتراء» مثل اذرع وجرش والكرك والشوبك ومدائن صالح والعلا وصلخد ومأدبا. وقد زهت البتراء في ختام القرن الرابع ق.م. وظلت قرابة أربع مائة سنة تشغل مركزاً مهماً على طريق القوافل بين العربية الجنوبية وبين ثغور البحر الأبيض المتوسط.

اتسعت مملكة الانباط سياسياً في أواخر القرن الأول ق.م. فشملت الجنوب السوري من النقب الى دمشق. كما وصلوا الى سوريا المجوّفة (البقاع). أما امتدادها تجارياً فقد تجاوز هذه الرقعة الى موانىء البحر المتوسط وموانىء مصر وساحل البحر الأحمر. ووصلوا غرباً الى ايطاليا وشرقاً الى موانىء الجزيرة العربية وربما الى الهند.

كتب ديودور الصقلي (٦٣ ق.م. ـ ١٤ م) عن الأنباط أواخر القرن الرابع ق.م. وألمّ سترابو (٥٨ ق.م. ـ ٢١ م) في جغرافيته في القرن الأول ق.م. بجوانب من أوضاعهم الاجتماعية. ومما قاله فيهم إنهم شعب ديمقراطي تسود بينهم علاقات اجتماعية سليمة لدرجة أنهم لا يحتاجون الى رفع دعاوى أو اقامة

محاكم[١٠]. وقال إن مساكن الأنباط من الحجر، ومدنهم غير محاطة بالأسوار بسبب من حالة الأمن والسلم السائدة في بلادهم.

التجمّع الاسرائيلي في أرض فلسطين

الوثيقة الوحيدة بين أيدينا في تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة غزوها بعض المرتفعات في أرض فلسطين حوالي القرن الثاني عشر ق.م. وتأسيس مملكتها الأولى (القرن العاشر ق.م.)، تنحصر في كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم). ولذلك سوف نستند في بحثنا الى هذا الكتاب.

يخبرنا محرّر التوراة (العهد القديم) أن «ابرام أخذ ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وخرجوا من أور الكلدانيين (في الشمال السوري) ليذهبوا الى أرض كنعان (في الجنوب السوري). فأتوا الى أرض كنعان واجتاز ابرام في الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة موره. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض.. ثم نقل ابرام من هناك الى الجبل شرقي بيت ايل ونصب خيمته.. ثم انحدر ابرام الى مصر ليتغرّب هناك. سفر التكوين ١٢».

وفي الفصل التالي (تكوين ١٣) يتابع المحرر قصة تغرّب ابرام، فيقول «صعد ابرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان لديه، ولوط معه، وسار في رحلاته من الجنوب الى بيت ايل، الى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت ايل وعاي. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي ابرام ورعاة مواشي لوط. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض. فقال ابرام للوط: لا تكن مخاصمة بيني وبينك فنحن اخوان.. اعتزل عني.. فاختار لوط لنفسه دائرة الاردن ونقل خيامه الى سدوم. وأما ابرام فسكن في أرض كنعان».

وفي حكاية تغرّب ابرام في أرض فلسطين يقول المحرر «وانتقل ابرام الى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور. وتغرب في جرار. تك ٢٠ :١». «ثم تغرّب في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة. تك ٢١ :٣٤».

وحين «شاخ ابراهيم قال لعبده: لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن في أرضهم، بل الى أرضي والى عشيرتي تذهب، وتأخذ زوجة لابني اسحق. تك ٢٤ :٢».

وقد نفذ اسحق وصية أبيه، فذهب الى الشمال السوري «واتخذ لنفسه

زوجة رفقة بنت بتوئيل الارامي من فدان ارام. تك ٢٥ : ٢٠».

وحين شاخ اسحق «دعا ابنه يعقوب وأوصاه قائلاً: لا تأخذ زوجة من بنات كنعان. قم اذهب الى فدان ارام، الى بيت بتوئيل أبي امك، وخذ لنفسك زوجة من هناك. تك ٢٨ : ٢».

أذعن يعقوب لطلب أبيه، فذهب الى الشمال السوري ورعى غنم خاله لابان الارامي في فدان ارام، وتزوج من ابنتي خاله راحيل وليئة ومن جاريتيهما. فولدن له اثني عشر ابناً، شكلوا في ما بعد ما يعرف بأسباط اسرائيل.

ثم «قام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال، وساق كل مواشيه وجميع مقتناه، ليجيء الى اسحق أبيه الى أرض كنعان. تك ٣١ : ١٨».

«وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان. تك ٣٧ : ١». وفي تلك الأيام «كان جوع في أرض كنعان. تك ٤٢ : ٥». كما يقول محرر «العهد القديم». «فارتحل يعقوب وجميع نفوس بيته، وعددهم سبعون، الى بئر سبع. تك ٤٦ : ١». ومن هناك نزلوا الى مصر «وقالوا لفرعون: جئنا لنتغرّب في الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى لأن الجوع شديد في أرض كنعان. تك ٤٧ : ٤».

وفي مصر، وبعد حوالي أربعة قرون (على ذمة الراوي التوراتي)، «قام ملك جديد، فقال لشعبه: هوذا بنو اسرائيل شعب غريب، فيكون اذا حدثت حرب أنهم ينضمّون الى اعدائنا ويحاربوننا، ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير.. فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس.. واستعبد المصريون بني اسرائيل بعنف. سفر الخروج ١ : ٨ ـ ١٣».

وللقارىء أن يسأل: كيف عرف فرعون مصر أن بني اسرائيل سينضمّون الى أعدائه ويحاربونه في حال نشوب حرب في مستقبل الأيام؟.

الجواب سهل وقريب رغم «اذا» الشرطية المستقبلية التي تغلّف المستقبل بستار كثيف من الوهم والظن. هو أن بني اسرائيل انضمّوا فعلاً الى اعداء الفرعون (ربما الهكسوس) وحاربوه. وحين انتصر الفرعون على أعدائه استعبدهم بعنف. ولكن المحرّر المتعصّب لبني قومه أراد أن يرفع عنهم تهمة الخيانة والغدر، فجعل من الفرعون طاغياً يقرّر سلفاً تعذيبهم خشية انضمامهم الى أعدائه في حرب قد تنشب في مستقبل الأيام. وهذا الكلام أو التبرير لا

يقبله عقل ولا يقرّه منطق سليم، لأن الحرب، على ما يبدو، حدثت فعلاً. وانضمامهم الى أعداء الفرعون كان أمراً واقعاً. ولذلك عمل الفرعون على تسخيرهم في بناء المعابد واقامة القلاع وشق الطرقات. فثاروا عليه، وكان موسى عقل هذه الثورة وقلبها.

من هو موسى؟

لا يعنينا في مجال هذا البحث موسى(*) النبي أو المشرّع، ولا موسى الذي ما برح اسمه وأصله يثيران الجدل الشديد بين الباحثين وعلماء التاريخ. وإنما يهمنا موسى القائد الفذ، الصلب الإرادة، الفولاذي العزيمة، الذي كان واسع الطموح السياسي لبناء دولة، مملكة، أمة. فاختار لتحقيق طموحه بعض الاسرائيليين المستعبدين في مصر (على رواية التوراة)، الذين كانوا ينتظرون الاشارة من أي قائد ينقذهم مما هم فيه من هوان واستعباد، أو قل من الشعور بالهوان والاستعباد.

كان موسى نموذجاً للرجل العظيم، ولو أننا جرّدنا سيرته من الملامح

(*) الواقع أننا لا نملك أية معلومات عن موسى غير ما يقدّمه لنا كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) بالرغم من أننا لا نستطيع أن نقطع بيقين بصدد هذه المعلومات. فالتوراة دُوّنت، كما هو معروف، في بابل في القرن السادس ق.م. أي بعد موسى بثمانية قرون وهذا على افتراض أن موسى شخصية تاريخية وأنه عاش في القرن الرابع عشر ق.م.

يرى المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسفوس (٣٧ - ٩٣م) أن موسى كان مصرياً. وكان قائداً في الحملة المصرية على بلاد الحبشة. وفي الحملة تزوج من أميرة حبشية. ويرى الفيلسوف اليهودي الاسكندري فيلون (٣٠ ق.م. - ٤٠ م) أن موسى كان مصرياً. ويؤيد بعض البحّاثة المحدثين هذا الرأي، فديورانت مثلاً ينقل في «قصة الحضارة» أدلة تثبت أن موسى كان مصرياً، وقد أنجبته عام ١٥٣٧ ق.م. الأميرة حتشسبوت (الملكة حتشسبوت في ما بعد ١٥٠١ - ١٤٧٩ ق.م.). وسيغموند فرويد أيضاً يرى في كتابه «موسى والتوحيد» أن موسى كان مصرياً.

وهناك تعليقات كثيرة لباحثين محدثين عن موسى الشخصية الأسطورية التي تكمن وراءها شخصية قوية، برز كمنقذ بين الاسرائيليين المستعبدين في مصر على رواية التوراة. انظر مثلاً:

- A. Lods, Israel, London 1932.

المعجزة التي تتجمّع عادة حول ذكرى الابطال الشعبيين، فاننا نجد أن ما روي عنه في التاريخ العبري المبكر، صحيح في ما يبدو. وربما كان موسى واعياً لامكانياته الكبيرة، فقد كان عظيم الطموح، قوي التصميم، بعيد الهمة.

لعل أول سطر في سيرة موسى هو صفة التعصّب والعنصرية، التي خلعها على أتباعه وجعلها فريضة دينية، لا تقوم دنياهم ولا تستقيم حياتهم من دون اتباعها وتنفيذها. يخبرنا كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) أن موسى، حين كان في مصر، «رأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً. فالتفت الى هنا وهناك، ورأى أن ليس أحد، فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني واذا رجلان عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟. سفر الخروج ٢: ١١ ـ ١٣».

فموسى العنصري حين رأى العبرانيين يتخاصمان، سأل المذنب عن سبب ضربه صاحبه. ولكنه عندما رأى المصري والعبراني يتخاصمان، سرعان ما دفعه تعصبه الأعمى وعنصريته الحاقدة الى قتل المصري، قبل أن يوجّه سؤالاً أو يعرف السبب الذي دفع الواحد الى ضرب الآخر.

وعندما «سمع فرعون هذا الأمر طلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون الى أرض مديان. خروج ٢: ١٥» (في الجنوب الشرقي من سوريا). وهناك آواه رعوئيل كاهن مديان وراعيها، بمروءة كنعانية، سورية، عربية، صافية. احتضنه وأزال عنه مشاعر الخوف، وأسكنه في بيته برحابة صدر وسعة. وزوجه من ابنته (خروج ٢: ٢١). وعاش موسى في بيته الى حين عودته الى مصر.

عاد موسى الى مصر وراح يعمل بجهد لا يستكين على استمالة بني اسرائيل المستعبدين (على رواية التوراة)، دافقاً في وجوههم الوعود بالتحرير من المعاناة التي يكابدون، مشيعاً بينهم أن في السماء إلهاً أقوى من إله المصريين، وأن هذا الاله سوف يخلّص بني اسرائيل من حياة الذل والعبودية «ويصعدهم من أرض مصر الى أرض جيدة وواسعة. الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. الى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سفر الخروج ٣: ٨».

وقد تمكن موسى من اقناع جماعة بني اسرائيل بالخروج من مصر بعد

طول اقامة وصلت الى ٤٣٠ سنة على رواية التوراة. «فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر، ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم. لأنهم طُردوا من مصر، ولم يقدروا أن يتأخروا. سفر الخروج ١٢: ٣٤ ـ ٣٩».

وبعد خروجهم من مصر بقليل «تذمّر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهرون في البرية (سيناء). وقال لهما بنو اسرائيل ليتنا متنا في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فانكما اخرجتمانا الى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع. خروج ١٦: ٢».

«ثم ارتحل كل جماعة بني اسرائيل من برية سين ونزلوا في رفيديم، ولم يكن ماء ليشرب الشعب، فخاصم الشعب موسى وقالوا اعطونا ماء لنشرب.. وتذمر الشعب على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. خروج ١٧: ١ ـ ٣».

وفي قيادته لهم ظل موسى يفرد في وجوههم الوعود الوافرة بأن إلههم سوف «يطرد من أمامك شعوباً أكبر وأعظم منك، ويأتي بك ويعطيك أرضهم. سفر التثنية ٤: ٣٨». وسوف يأتي بجماعة بني اسرائيل «الى مدن عظيمة جيدة لم يبنوها، وبيوت مملوءة كل خير لم يملأوها، وآبار محفورة لم يحفروها، وكروم وزيتون لم يغرسوها. تثنية ٦: ١٠».

ولكنهم بعد أربعين سنة قضوها في التيه شعروا بأن الوعود لا تشبع، والامنيات لا تغني من جوع، «فبكوا وقالوا: من يطعمنا لحماً قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسنا. سفر العدد ١١: ٤ ـ ٦».

وهكذا راحوا يتحسّرون على خروجهم من مصر. وانبرى منهم رجلان قالا لموسى «أقليل انك أصعدتنا من أرض تفيض لبناً وعسلاً لتميتنا في البرية. ولم تأت بنا الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم؟. سفر العدد ١٦: ١٣». وخاصم الشعب موسى وهرون قائلين: لماذا أتيتما بنا الى هذه البرية لكي نموت فيها نحن ومواشينا؟. لماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا الى هذا المكان الرديء؟. ليس هو مكان زرع وتين وكرم ورمان، ولا فيه ماء للشرب. سفر العدد ٢٠: ٤».

ازاء هذا الواقع الجديد من اللوم الشديد، والتمرّد، والثورة، لم يجد

موسى بدأ من طرق أبواب الأرض التي وعدهم بها، آملاً فتحها، خاصة بعد أن بلغ الجيل الذي ولد في الصحراء أشده، وقوي عوده واشتد بأسه.

وكقائد مجرّب محنّك رأى أن يطرق أبواب الأرض بالجواسيس. «فأرسل جماعة ليتجسّسوا أرض كنعان. قال لهم: انظروا الى الأرض والشعب الساكن فيها، أقوي هو أم ضعيف؟. قليل أم كثير؟. وما هي المدن التي هو ساكن فيها؟. أمخيّمات أم حصون؟. سفر العدد ١٣: ١٧ ـ ١٩».

«فصعد الرجال وتجسّسوا الأرض.. ثم رجعوا بعد أربعين يوماً.. وقالوا لموسى: حقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز، والمدن حصينة عظيمة جداً.. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحثيون واليبوسيون والاموريون ساكنون في الجبل. والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الاردن.. وقالوا لا نقدر أن نصعد الى الشعب لأنهم أشد منا.. وقد رأينا هناك الجبابرة. فكنا في أعيننا كالجراد.. وهكذا كنّا في أعينهم. سفر العدد ١٣: ٢١ ـ ٣٣».

لقد وجدوا الأرض آهلة بسكانها الذين أسّسوا مدنها وقراها، وشادوا فيها القلاع والحصون، وأحيوا الأرض بالاغراس. فركب الخوف قلوب بني اسرائيل واعتراهم الوجل، وتذكروا ما قاسوه من العذاب والجوع والقهر في صحراء سيناء. فكفروا بامنيات يهوه أو موسى المعسولة ووعوده البراقة، وراحوا يتغنّون بتمنّيات العودة الى مصر، «ورفعت الجماعة كلها صوتها وصرخت، وبكى الشعب تلك الليلة، وتذمّر على موسى وعلى هرون جميع بني اسرائيل، وقالوا ليتنا متنا في أرض مصر.. ولماذا أتى بنا الرب الى هذه الأرض لنسقط بالسيف..؟. أليس خيراً لنا أن نرجع الى مصر؟. سفر العدد ١٤: ١ ـ ٣».

وعندما استبد بهم الطوى وأنهكتهم سياط الحرمان، فكّروا بخلع نير موسى عن رقابهم، فائتمروا «وقال بعضهم لبعض: نقيم رئيساً ونرجع الى مصر. سفر العدد ١٤: ٣».

أما موسى فكان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع تحقيق الجزء الثاني من مهمته، والذي ينطوي على قتال كثير، إلا اذا مات المتبرّمون من قومه، وظهر مكانهم جيل جديد مطعّم بروح القتال ومدرّب على الحرب. وأدرك أن ليس في الامكان تحويل أناس مستعبدين الى جماعة مقاتلة في أسابيع قليلة أو في أشهر.

وأنه لا بد من روح جديدة تبعث فيهم وهو أمر يتطلّب وقتاً طويلاً.

وكان من العبث الأقدام على غزو كنعان من غير خطة سليمة. خطّة يمكن تنفيذها بسرعة، والوصول الى الهدف المنشود من دون انتكاسات. فقد كان اجتناب الانتكاسات أمراً مهماً، إذ أن الانكسار في المعركة كان يؤدي في الغالب الى فقدان الثقة بقيادة القائد. لذلك عزم موسى على الترحل باتباعه في الصحراء مدة من الزمن (٤٠ عاماً) تكفي لتحويلهم الى جماعة مدرّبة على القتال، قادرة على الحرب.

وقد حاولوا أثناء تبدّيهم في صحراء سيناء، غزو كنعان من تخومها الجنوبية. إلا أن المحاولة باءت بالفشل، لأن الكنعانيين أرهبوهم بما في نفوسهم من اعتزاز، وما في قاماتهم من طول وقوة. ورروعوهم بما في حصونهم من منعة، وما في أراضيهم من ثروة، وبما حقّقوه في حياتهم من حضارة.

إن وصف الجواسيس للأرض وسكانها: «شعب معتز. والمدن حصينة، عظيمة جداً. هناك العمالقة والجبابرة. أرض تأكل سكانها» ينمّ عن شعور بني اسرائيل بالخوف والضعف: «كنا في أعيننا كالجراد» عن مقارعة هؤلاء الجبابرة الذين «كنا في أعينهم كالجراد» أيضاً.

يضاف الى ذلك أن إقليم كنعان الجنوبي كان محصّناً ومنظّماً تنظيماً قتالياً وسياسياً جيداً. فعندما «بكر بنو اسرائيل صباحاً وصعدوا الى رأس الجبل، نزل العمالقة والكنعانيون فضربوهم وكسروهم. سفر العدد ١٤: ٤٠ ـ ٤٥». فاضطروا الى التقهقر والالتفاف الى شرقي الاردن. ومن قادش «أرسل موسى رسلاً الى ملكِ ادوم قائلاً: نحن في قادش، مدينة في طرف تخومك. دعنا نمر في أرضك. لا نمر في حقل ولا في كرم، ولا نشرب ماء بئر. لا نميل يميناً ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك. فقال له ادوم: لا تمرّ بي لئلا أخرج للقائك بالسيف.. وأبى ادوم أن يسمح لاسرائيل بالمرور في تخومه. فتحول اسرائيل عنه. سفر العدد ٢٠: ١٧ ـ ٢١».

«ولما سمع الكنعاني ملك عراد الساكن في الجنوب أن اسرائيل جاء في طريق اتاريم، حارب اسرائيل وسبى منهم سبياً. عدد ٢١: ١».

ثم «أرسل اسرائيل رسلاً الى سيحون ملك الأموريين قائلاً: دعني أمر في أرضك. لا نميل الى حقل ولا الى كرم ولا نشرب ماء بئر.. فلم يسمح

سيحون لاسرائيل بالمرور في تخومه.. بل حارب اسرائيل. عدد ٢١: ٢٣».

«ثم تحوّلوا وصعدوا في طريق باشان.. فخرج عوج ملك باشان للقائهم سفر العدد ٢١: ٣٣».

قد تسأل: لماذا لم يسمح لهم هؤلاء الملوك بالمرور في أراضيهم؟. ألأنهم «شعب لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى. سفر العدد ٢٣: ٢٤». أم لأنهم، بتعبير بالاق بن صفور، ملك مؤاب، شعب «يلحس كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل. سفر العدد ٢٢: ٤». أم لأن ملوك كنعان شعروا بالحقد يغلي في نفوس بني اسرائيل، وبشهوة الانتقام تضطرم في صدورهم. وأدركوا أن هذه القبيلة الهمجية[11] مقبلة على حرب تحريم وابادة؟.

وبالفعل، بدأ الاسرائيليون، وهم على أبواب الأرض، ينفّذون في هجماتهم البربرية، حروب التحريم والابادة والافناء. وكأنهم كانوا يعبّرون، بالحروب الوحشية، عن ضراوة الحقد الذي يغتلي في صدورهم على المجتمعات الكنعانية التي قطعت شوطاً بعيداً في العمران والحضارة الانسانية. بينما عانوا من التسخير في مصر مدى أربعمائة سنة. وعاشوا جيلاً يتبدّون في صحراء سيناء. سلاحهم الحقد والانتقام، وهمهم تدمير حضارة الأمم. لأن الشعور بالضعف، ومعاناة العبودية، والتخلّف، ترك في نفوسهم عقدة لا يحلّها غير التذبيح والتحريم وشرب دماء الأمم.

ثم «ارتحلوا من جبل هور، في طريق بحرسوف، ليدوروا بأرض أدوم. فضاقت نفس الشعب في الطريق. وتكلم الشعب على يهوه وعلى موسى، قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية؟. لأنه لا خبز ولا ماء. وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف. سفر العدد ٢١: ٥».

وهكذا عادوا الى الشكوى والتذمّر لأن الجوع والعطش أرهقاهم في البرية. ولأن آمالهم بالدخول الى أرض فلسطين قد تبدّدت. فلا بالغزو أفلحوا، ولا بالتذلّل والالتماس نالوا موافقة ملوك كنعان على المرور في أراضيهم.

وعندما كانت هذه القبائل الرحل من الرعاة الاجلاف، والمواشي الهزيلة العجاف، تقترب من تخوم الأرض، يسيل لعابها حين تشاهد المراعي الخضراء في فلسطين، فتخالها غنيمة سائغة لها بعد تيه السنين. ولكن سرعان ما كان اللعاب يجف حين ينقضّ أصحاب المراعي من مدنهم وقلاعهم، على المتسلّلين

الضاوين. فيرتد هؤلاء الى الصحراء مرة. ويحاولون الثبات على تخوم المراعي مرة أخرى. مفضّلين الموت على العودة الى التيه المرعب أو الى الفراعنة القساة.

وهكذا ظلّوا يطرقون أبواب الأرض غزاة أو متسلّلين زهاء مائتي سنة، حتى انتهت معارك الغزو وعمليات التسلّل باستيطانهم بعض مرتفعات فلسطين[١٢].

وعلى أي حال، سواء أكان دخولهم أرض فلسطين بالتسلّل أم بالغزو، فقد ضربوا خيامهم في بعض التلول، يتخذون من صخورها وشعابها حصوناً لهم وأسواراً. يقول: محرر التوراة «وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل، ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد. سفر القضاة ١ : ٢٠». وظلّوا محصورين في التلول والشعاب، يجتنبون هبوط السهول خوفاً من سكانها. يقول المحرر «وحصر الاموريون بني دان في الجبل، ولم يدعوهم ينزلون الى الوادي. سفر القضاة ١ : ٣٤».

لم يعرفوا يوماً حياة الاستقرار في المرتفعات التي نصبوا خيامهم فيها، ولم يتركهم أصحاب الأرض ينعمون بشيء من الأمن والطمأنينة، بعدما شعروا بتعصبهم الذميم وعنصريتهم الحاقدة. فعاش بنو اسرائيل فترة طارئة في تاريخ أرض فلسطين لا تتجاوز القرنين والنصف بين كرّ وفرّ. وكانت التلول بين أخذٍ وردّ. «وظلّوا محاطين في المناطق التي تفرّقوا فيها بممالك أكثر قوة وأرقى مدنية وحضارة[١٣]». وظلّوا في هذه الفترة الوجيزة خاضعين لأصحاب الأرض. فانضوت قبائل منهم تحت سلطة الكنعانيين والفلسطينيين. وتحوّل قسم آخر الى مرتزقة. وظلّوا جميعهم في حال من التبعية والعبودية لسلطة أصحاب الأرض. يقول محرر «العهد القديم»: «فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتايم، ملك أرام، ثماني سنين. سفر القضاة ٣: ٨». يعني استعبدهم ملك ارام. ويضيف المحرّر «وعبد بنو اسرائيل عجلون ملك مؤاب ثماني عشرة سنة. سفر القضاة ٣: ١٤». واستعبدهم «يابين ملك كنعان الذي ضايق بني اسرائيل بشدة عشرين سنة. سفر القضاة ٤ : ٣». واستعبدهم المديانيون «سبع سنين.. فعمل بنو اسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال، والمغاير.. وذل اسرائيل جداً من قبل المديانيين. سفر القضاة ٦ : ٢». «واستعبدهم الفلسطينيون وبنو عمون، فحطّموا ورضّضوا بني اسرائيل ثماني عشرة سنة. قضاة ١٠: ٧».

وفي مرحلة أخرى من الفترة الطارئة التي عاشها بنو اسرائيل في أرض فلسطين. استعبدهم «الفلسطينيون أربعين سنة. سفر القضاة ١٣ : ١».

وهكذا عاش بنو اسرائيل الرعاة هذه الفترة القصيرة في أرض فلسطين، مستعبدين أو اتباعاً، يحطون رحالهم ويضربون أطناب خيامهم في حمى مملكة من ممالك فلسطين، حتى اذا ما كشفوا عن وجههم القناع، فبانت عليه ملامح الغدر والكيد والحقد، استعبدتهم المملكة المجيرة أو نبذتهم خارج تخومها. وعاش بعضهم كمرتزقة في الأرض. وكثيراً ما كان المتسلّطون عليهم أو النافذون فيهم يتصارعون في ما بينهم طمعاً بالمغانم التي يكسبها مرتزقتهم في هجماتهم البربرية على بعض القرى الآمنة المطمئنة (لايش مثلاً)، أو في قطعهم الطرق على التجار والمسافرين.

وغالباً ما كان النافذ بين هؤلاء المرتزقة يتزعم على جميع بني اسرائيل. فحين كان جدعون متسلّطاً عليهم نجح في غزواته وهجماته، مما هيأ لمرتزقته وافر المغانم، «فقالوا له: تسلّط علينا أنت وابنك وابن ابنك. سفر القضاة ٨: ٢٢». فطمع جدعون بتصاغرهم أمامه وخضوعهم له، وطلب منهم ما غنموه في إحدى الغزوات. قال «أطلب منكم أن تعطوني، كل واحد، أقراط غنيمته، لأنه كان لهم أقراط ذهب. ففرشوا رداء وطرحوا عليه، كل واحد، أقراط غنيمته.. فصنع منها أفوداً (ثوب مطرّز ومرصّع بالذهب) وجعله في مدينته في عفرة. وزنى كل اسرائيل وراءه هناك. قضاة ٨: ٢٤ ـ ٢٧».

«وكان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه لأنه كانت له نساء كثيرات. سفر القضاة ٨: ٣٠».

وبعد موت جدعون حاول ابنه «أب ملك» أن يتسلط على مرتزقة أبيه، فنازعه اخوته السبعون. «فاستأجر أب ملك رجالاً بطّالين (مرتزقة)، طائشين. فسعوا وراءه. ثم جاء الى بيت أبيه، في عفرة، وقتل اخوته سبعين رجلاً على حجر واحد. قضاة ٩: ٤». فاجتمع المرتزقة «عند بلوطة النصب الذي في شكيم وجعلوا أب ملك ملكاً. قضاة ٩: ٦». «فترأس أب ملك على اسرائيل ثلاث سنين. قضاة ٩: ٢٢». حتى ثارت عليه فرقة من المرتزقة، «فكانوا يستلبون كل من عبر بهم في الطريق. قضاة ٩: ٢٥». ثم قام على رأس هذه الفرقة «جعل بن عابد»، فحاربه أب ملك وهزمه.

وحين «أقام أب ملك في أرومة» مع مرتزقته، ثار عليه سكانها، «فقتل أب ملك الشعب الذي بها وهدم المدينة وزرعها ملحاً. قضاة ٩ : ٤٥».

وحين قتل أب ملك تسلّط عليهم الصعلوك يفتاح الجلعادي الذي «كان جبّار بأس. وهو ابن امرأة زانية. قضاة ١١ : ١».

يقول محرّر «العهد القديم» في سيرة هذا الزعيم الجديد لمرتزقة بني اسرائيل «لما كبر بنو جلعاد طردوا يفتاح، وقالوا له: لا ترث في بيت أبينا لأنك ابن امرأة أخرى. فهرب يفتاح من وجه اخوته وأقام في أرض طوب. فاجتمع اليه رجال بطّالون (مرتزقة)، وكانوا يخرجون معه. قضاة ١١ : ٣». ولما قوي بأسه وازداد عدد مرتزقته «ذهب اليه شيوخ جلعاد. وقالوا له: تعال وكن قائداً لنا. سفر القضاة ١١ : ٦».

ولعل سيرة الصعلوك شمشون هي من أندر السير في تاريخ هؤلاء الصعاليك، القوّاد، الابطال، الرؤساء، الملوك، الانبياء، الذين تسلّطوا على بني اسرائيل أو قضوا لهم. فشمشون أحب امرأة «من بنات الفلسطينيين» لأن «الفلسطينيين في ذلك الوقت كانوا متسلطين على اسرائيل. سفر القضاة ١٤ : ١ ـ ٤». وحدث مرة أن أقام شمشون وليمة في بيت المرأة. «فأحضروا له ثلاثين من الاصحاب». طرح عليهم شمشون أحجية مشروطة: فان أظهروها يعطيهم «ثلاثين قميصاً وثلاثين حلة ثياب». وإن لم يقدروا أعطوه مثل ذلك. وعندما أظهروا له الأحجية نزل الصعلوك شمشون وقد «حل عليه روح الرب، الى اشقلون فقتل منهم ثلاثين رجلاً وأخذ سلبهم وأعطى الحلل لمظهري الأحجية. سفر القضاة ١٤».

«وشمشون أمسك ثلاث مئة ابن آوى، وأخذ مشاعل، وجعل ذنباً الى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين، ثم أضرم المشاعل ناراً، وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزروع وكروم الزيتون». ثم هرب الصعلوك شمشون «وأقام في شق صخرة عيطم».

«فصعد الفلسطينيون ونزلوا في يهوذا. فقال رجال يهوذا: لماذا صعدتم علينا؟. فقالوا: لكي نوثق شمشون. فنزل ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى شق صخرة عيطم، وقالوا لشمشون: أما علمت أن الفلسطينيين متسلّطون علينا؟. فأوثقوه بحبلين وأصعدوه من الصخرة. فحل عليه روح الرب، فكان الحبلان

اللذان على ذراعيه ككتان أحرق بالنار. ووجد لحي حمار طريّاً، فأخذه وضرب به ألف رجل. ثم رمى اللحي من يده. فشق الرب اللحي وخرج منه ماء، فشرب. سفر القضاة ١٥».

وشمشون هذا «قضى لاسرائيل عشرين سنة. سفر القضاة ١٥ : ٢٠».

وفي عهد القضاة ظل «الفلسطينيون متسلّطين على اسرائيل. قضاة ١٤ : ٤». ويبدو أن الاسرائيليين حاولوا أو عزموا على التحرّر من تسلّط الفلسطينيين عليهم، «فخرجوا للقاء الفلسطينيين للحرب. فانكسر اسرائيل أمام الفلسطينيين.. فقال شيوخ اسرائيل: لنأخذ لأنفسنا تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلّصنا من يد أعدائنا. سفر سموئيل الأول ٤ : ١».

وقال الفلسطينيون بعضهم لبعض «تشدّدوا أيها الفلسطينيون لئلا تُستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم.. وحارب الفلسطينيون. فانكسر اسرائيل، وهربوا كل واحد الى خيمته. سموئيل الأول ٤ : ١٠». «وأخذ الفلسطينيون تابوت عهد الرب.. وأدخلوه الى بيت داجون إلههم. سموئيل الأول ٥ : ١».

وبموت سليمان تمزّقت قبائل بني اسرائيل الى فريقين متنازعين متحاربين. ملك على الأول (اسرائيل) يربعام بن سليمان. وملك على الثاني (يهوذا) رحبعام بن سليمان.

وكانت الحرب أبداً مشتعلة بين فريقي القبائل الاسرائيلية يقول المحرّر «وكانت حرب بين يربعام ورحبعام كل أيام حياتهما. مل١ ١٥ : ٦». «وفي السنة الثامنة عشرة للملك يربعام، ملك أبيا على يهوذا. وكانت حرب بين أبيا وبين يربعام. فسقط قتلى من اسرائيل خمس مائة ألف رجل مختار. سفر أخبار الأيام الثاني ١٣ : ١٧».

وكثيراً ما كان أحد الفريقين يستعين بجيوش المجتمعات المجاورة للقضاء على الفريق الآخر. فآسا ملك يهوذا مثلاً «أخذ جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، ودفعها ليد عبيده، وأرسلهم الى بني هدد ملك ارام الساكن في دمشق، قائلاً: إن بيني وبينك، وبين أبي وأبيك، عهداً.. فتعال انقض عهدك مع بعشا، ملك اسرائيل، فيصعد عني. فسمع بني هدد للملك آسا، وأرسل الجيوش على مدن اسرائيل، وضربها. مل١ ١٥ : ٢٠».

يقول المحرر «وكانت حرب بين آسا وبعشا كل أيامهما. مل١ ١٥: ١٦». «ثم ملك ايلة بن بعشا على اسرائيل. ففتن عليه عبده زمري.. وقتله. وأفنى زمري كل بيت بعشا، لم يُبقِ بائلاً بحائط مل١ ١٦: ٨ ـ ١١». وفي ذلك الوقت «كان الشعب نازلاً على جبثون التي للفلسطينيين.. فملّك كل اسرائيل عمري رئيس الجيش على اسرائيل.. حينئذ انقسم شعب اسرائيل نصفين، فنصف الشعب كان وراء تبني بن جينة، ونصفه وراء عمري. مل١ ١٦: ١٥ ـ ٢١».

وفي أواخر أيام عمري (حوالي ٨٧٥ ق.م.) أصبحت اسرائيل مقاطعة تابعة للملكة الارامية في دمشق، تدفع الجزية. وعندما رفض آخاب بن عمري أن يدفع الجزية، جرّد عليه بني هدد، ملك ارام، حملة عسكرية. وفجأة ظهر عند أسوار السامرة، «فحاصرها وأرسل رسلاً الى آخاب، ملك اسرائيل، قائلاً: لي فضتك وذهبك. ولي نساؤك وبنوك الحسان. فأجاب ملك اسرائيل قائلاً: حسب قولك يا سيدي الملك، أنا وجميع مالي لك. سفر الملوك الأول ٢٠: ١ ـ ٤».

يقول المحرر إن يهو شفط ملك يهوذا تعاون مع آخاب ملك اسرائيل، على حرب آرام. فقتل آخاب «ولحست الكلاب دمه.. وعبرت الرنة في الجند عند غروب الشمس، فهرب كل رجل الى مدينته.. مل١ ٢٢: ٣٦».

وبعد موت يهو شفط «ملك يهو رام ابنه عوضاً عنه.. فقام وقتل جميع اخوته بالسيف. سفر الاخبار الثاني ٢١: ٤». وفي عهده «صعد الفلسطينيون الى يهوذا وافتتحوها، وسبوا كل الاموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه. سفر الاخبار الثاني ٢١: ١٦».

ويستمر المحرّر في سرد أسفار (البطولة) لهؤلاء المرتزقة، الصعاليك، فينقل الينا خبر عصيان أحد المرتزقة (ياهو) الذي «ضرب يهو رام ملك اسرائيل، فخرج السهم من قلبه.. ولما رأى ذلك اخزيا ملك يهوذا، هرب.. فطارده ياهو وقتله. مل٢ ٩: ٢٤».

ويتابع المحرّر متغنّياً بملاحم هؤلاء الملوك ـ الصعاليك، فيقول «جمع بني هدد، ملك أرام، جيشه وصعد فحاصر السامرة. وكان جوع شديد في السامرة. حاصرها حتى صار رأس الحمار بثمانين من الفضة. وصارت المرأة تأكل ابنها

من الجوع. مل٢ ٦».

«ثم حوّل حزائيل، ملك ارام، وجهه ليصعد الى أورشليم. فأخذ يهو أش، ملك يهوذا، جميع الاقداس، وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملكِ، وأرسلها الى حزائيل.. فصعد حزائيل عن أورشليم. مل٢ ١٢: ١٧».

«وضايقهم ملك أرام.. فلم يبق ليهو أحاز، ملك اسرائيل، إلا خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل، لأن ملك أرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس. مل٢ ١٣: ٧».

ويروي المحرّر أن أمصيا، ملك يهوذا، أحصى من يهوذا «ثلاث مائة ألف مختار.. واستأجر من اسرائيل مائة ألف جبار بأس بمائة وزنة من الفضة. سفر أخبار الأيام الثاني ٢٥: ٤٥». فأشار عليه رجل الرب قائلاً «إن الرب ليس مع اسرائيل.. فقال أمصيا لرجل الرب: فماذا يُعمل لأجل المئة الوزنة التي أعطيتها لغزاة اسرائيل؟. اخبار٢ ٢٥: ٩».

وحين «أرجع أمصيا الرجال الغزاة عن الذهاب معه الى القتال، اقتحموا مدن يهوذا وضربوا منهم ثلاثة آلاف، ونهبوا نهباً كثيراً. اخبار٢ ٢٥: ١٣».

أرأيت الى الشعب المختار؟. لقد ظلوا مرتزقة حتى الأيام الأخيرة من فترة تغربَهم في أرض فلسطين. فأمصيا، ملك يهوذا، استأجر من اسرائيل غزاة ـ مرتزقة. وعندما أخبره رجل الرب أن الرب ليس مع اسرائيل. أي ان النجاح ليس مضموناً في هذه الغزوة، خامره الخوف من ضياع الفضة التي استأجر بها مرتزقة اسرائيل، من غير أن يجني منها فائدة، فضرب برأي رجل الرب عرض الحائط، وحارب، وانتصر، وطبيعي بمعجزة ربانية.

أما القسم الآخر من الغزاة ـ المرتزقة الذين استأجرهم ملك يهوذا من اسرائيل، فحين استغنى عنهم ملك يهوذا، وأرجعهم من غير أن يكسبوا شيئاً من أجر أو من نهب، اقتحموا مدن يهوذا ونهبوا كثيراً كما يقول المحرّر.

ثم تواقع يهو اش ملك اسرائيل وامصيا ملك يهوذا، «فانهزم يهوذا أمام اسرائيل، وهربوا كل واحد الى خيمته.. فجاء يهو اش الى أورشليم، وأخذ كل الفضة والذهب وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. مل٢ ١٤: ١٤».

أما امصيا، ملك يهوذا، فقد «فتنوا عليه في أورشليم. فهرب الى لخيش. فأرسلوا وراءه وقتلوه هناك. مل٢ ١٤ : ١٩».

وفتن شالوم بن يابيش على زكريا بن يربعام، ملك اسرائيل «وضربه أمام الشعب فقتله وملك عوضاً عنه مل٢ ١٥ : ١٠». «ثم صعد منحيم بن جادي من ترصه وجاء الى السامرة وقتل شالوم، وملك عوضاً عنه. مل٢ ١٥ : ١٤».

وبعد منحيم ملك ابنه فقحيا «ففتن عليه فقح بن رمليا، وقتله وملك عوضاً عنه». ثم «فتن هوشع بن أيلة على فقح وقتله وملك عوضاً عنه. مل٢ ١٥ : ٢٥ - ٣٠».

وفي أيام هوشع هذا «صعد شلم نصر (ناصر السلام) ملك اشور، فقبض على هوشع، وسبى اسرائيل الى اشور. مل٢ ١٧ : ٣» حوالي ٧٢١ ق.م. وفي أيام صدقيا، ملك يهوذا، «صعد نبوخذ نصر (نبو يعطي النصر)، ملك بابل، الى أورشليم. . وسبى الذين بقوا من اليهود، الى بابل. اخبار٢ ٣٦: ١٧» حوالي ٥٨٦ ق.م.

وبذلك كان عمر العبور الاسرائيلي في أرض فلسطين ٢١٠ سنوات بين ٩٣١ و٧٢١ ق.م. أما قبائل يهوذا فقد امتد عمر عبورها في الأرض الى ٣٤٥ سنة بين ٩٣١ و٥٨٦ ق.م.

هذا عرض موجز لحادث العبور الاسرائيلي في أرض فلسطين كما رواه كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) المقدس لدى الطوائف المسيحية جميعها - الوثيقة الوحيدة بين أيدينا في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة غزوها بعض مرتفعات فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م.

والسؤال: أي وثيقة اعتمد البروفسور المؤرخ كمال الصليبي في تقرير ما قرّر في مقدمة كتابه من «أن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية، بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن». وتأكيد ما أكّد، وفي المقدمة عينها، من «أن ملكاً قد كان لبني اسرائيل في بلاد السراة، أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير، بين القرن الحادي عشر والقرن السادس ق.م.؟. ص ١٢.

وما هي الوثائق والمستندات التي قلبت التاريخ (باعتبار الصليبي طبعاً) عندما فاجأته «بوجود أرض التوراة كلها في غرب شبه الجزيرة العربية، وذلك

في منطقة بطول يصل الى حوالي ٦٠٠ كيلو متر، وبعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كيلو متر، تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز» ص ٢٧. وبأن «اليهودية لم تولد في فلسطين، بل في شبه الجزيرة العربية. ومسار تاريخ بني اسرائيل، كما روي في التوراة العبرية، كان هناك، في غرب شبه الجزيرة العربية. وليس في أي مكان آخر». ص ٢٧ «وأن التوراة العبرية هي سجل للتجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية». ص ٢٨ «وأن موطن اليهودية الأصلي كان في غرب شبه الجزيرة العربية». ص ٣١

* * *

أشرنا في ما تقدم الى ما حكاه تاريخ بني اسرائيل المقدس عن استعباد الكنعانيين والفلسطينيين لجماعة بني اسرائيل الرعاة الذين ظلوا فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين، شعباً مغموراً، مجموعة من المرتزقة، الصعاليك، والاتباع. تشغلهم المناوشات المستمرة في ما بين بعضهم البعض، أو بينهم وبين مجتمعات الأرض. فيهاجمهم الفلسطينيون من الساحل، والادوميون من أريحا، والمديانيون من ضفاف الاردن، والحوريون من نابلس، والاموريون من الشمال، واليبوسيون من الداخل، وبنو عمون من شرقي الاردن، كما سبق ورأيت في ما أوجزناه من سيرتهم في أرض فلسطين. وظلوا خاضعين لسلطة مجتمعات الأرض، مستعبدين لهم. فقد استعبدهم، كما رأينا، ملك ارام وملك عجلون وملك كنعان، والمديانيون والفلسطينيون وبنو عمون وسائر ملوك الأرض. وكان ملوكهم عملاء أو أتباعاً لملوك الفلسطينيين (داود)، ثم لملوك صور (شاول وداود وسليمان).

ورأينا في ما تقدم أن هؤلاء المرتزقة، الصعاليك، الاتباع، كثيراً ما كانوا يحاربون في صفوف الفلسطينيين، ضد الاسرائيليين الآخرين. فحين بلغ صعاليك شاول ست مائة، انضم اليه «العبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين منذ أمس وما قبله. سفر سموئيل الأول ١٤ : ٢١» يخرجون معهم ويحاربون في صفوفهم. وحين هرب داود من وجه شاول، وعاش صعلوكاً عند الملك الفلسطيني أخيش سنة وأربعة أشهر، كان يغزو قبيلته يهوذا، ويأتي بالغنائم الى سيده أخيش. يقول الكتاب المقدس «وصعد داود ورجاله فغزوا الجشوريين والجرزيين والعمالقة.. **وأغاروا على جنوبي يهوذا**.. فلم يستبقِ داود رجلاً ولا

امرأة. وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً ورجع الى أخيش.. وهكذا كانت عادته كل أيام اقامته في بلاد الفلسطينيين. فصدق أخيش داود قائلاً في نفسه: قد صار مكروهاً منتناً لدى شعبه اسرائيل، فيكون لي عبداً الى الأبد. سفر سموئيل الأول ٢٧: ٨ ـ ١٢».

وحين عزم داود على الانخراط في جيش الفلسطينيين الزاحف لمحاربة اسرائيل، شك به القواد الفلسطينيون وباخلاصه، وخلعوه من صفوف جيشهم، كما كان قد خُلع قبلاً من قبيلته. يقول الكتاب المقدس «قال أخيش لداود: اعلم يقيناً انك ستخرج معي في الجيش أنت ورجالك، فقال داود لأخيش: ستعلم ما يفعل عبدك. سفر سموئيل الأول ٢٨: ١». «فقال رؤساء الفلسطينيين لأخيش: ما هؤلاء العبرانيون؟. فقال أخيش لرؤساء الفلسطينيين: هذا داود الذي كان معي هذه الأيام والسنين ولم أجد فيه شيئاً من يوم نزوله الى هذا اليوم. فقال له رؤساء الفلسطينيين: أرجع الرجل الى الموضع الذي عيّنت له، ولا ينزل معنا الى الحرب، ولا يكون لنا عدواً في الحرب. سفر سموئيل الأول ٢٩: ٤».

وحين كان قائد المرتزقة يسقط في معركة ما، كان أتباعه ينفضّون من حوله، ويستسلمون للهرب والهزيمة، مثلهم مثل سائر المرتزقة في الأمم جميعها وعبر العصور، لا يصمدون في قتال إذا سقط قائدهم. فحين قتل أب ملك «ذهب كل واحد (من مرتزقته) الى مكانه. سفر القضاة ٩: ٥٥». وحين «حارب الفلسطينيون، وانكسر اسرائيل، هربوا كل واحد الى خيمته. سفر سموئيل الأول ٤: ١٠». وحين سقط شاول بسهام الفلسطينيين «هرب بنو اسرائيل. سم١ ٣١: ٧». وحين قتل ابشالوم «هرب كل اسرائيل، كل واحد الى خيمته. سم٢ ١٨: ١٧». وحين قتل آخاب، ملك اسرائيل «ولحست الكلاب دمه.. عبرت الرنة في الجند، فهرب كل رجل الى مدينته. سفر الملوك الأول ٢٢: ٣٦». وحين قتل ملك يهوذا «هربوا كل واحد الى خيمته. مل٢ ١٤: ١٢».

هذا ما نصّ عليه تاريخهم ـ كتابهم المقدس ـ التوراة (العهد القديم)، الوثيقة الوحيدة بين أيدينا في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة غزوها بعض مرتفعات فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م. ولكن المؤرخ كمال الصليبي ألّف، أقول ألّف، (لأن التاريخ صار تأليفاً باعتبار المؤرخ كمال

الصليبي) لهم تاريخاً آخر. وجعل من غرب شبه الجزيرة العربية أرضاً للتاريخ الذي ألّفه. وأراد لهم أن يلحقوا الهزائم بالاقوام التي استعبدتهم في أرض فلسطين. واليكم فقرة من التاريخ الذي ألّفه. يقول «الواضح أن المملكة الاسرائيلية أسست في غرب شبه الجزيرة العربية بين أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن العاشر ق.م. والى حدّ كبير على حساب مجتمعات مثل الفلسطينيين والكنعانيين الذين كانوا من سكان تلك الأرض أصلاً. ولعل هجرة هؤلاء الفلسطينيين والكنعانيين من شبه الجزيرة الى الشام، ازدادت حجماً في تلك الفترة على أثر الهزائم المتتالية التي ألحقها بنو اسرائيل بهم في مواطنهم الأصلية». ص ٣٤

والسؤال: كيف تجرّأ المؤرخ كمال الصليبي على رصف هذه التلفيقات المذهلة والتمحّلات المدهشة. (تأمّل عبارة: **الواضح** (كذا الواضح) أن المملكة الاسرائيلية **أسست** (كذا أسست) في غرب شبه الجزيرة العربية. وعبارة: على حساب مجتمعات مثل الفلسطينيين والكنعانيين). وأي وثيقة اعتمد في تقرير ما ينسبه من «الهزائم المتتالية التي ألحقها بنو اسرائيل بالفلسطينيين والكنعانيين»؟.

يبدو أن المؤرخ كمال الصليبي لا يحسن قراءة التاريخ. أو أنه قرأ تاريخ اليهود (التوراة) - (العهد القديم) كما يقرأه ما يزيد على ألف مليون مؤمن، بذهن مغفّل وعقل معطّل. ولذلك لم يرَ ما نصّ عليه هذا التاريخ المقدس من أن «العبرانيين استُعبدوا للفلسطينيين. سم١ ٤ : ٩». وأن «الفلسطينيين ظلوا متسلّطين على بني اسرائيل» طوال عهد القضاة (انظر سفر القضاة ١٤ : ٤). وأن «الفلسطينيين حاربوا بني اسرائيل، فانكسر شعب اسرائيل أمام الفلسطينيين سم١ ٤ : ٢». فلم يجد الكهنة ما يقوّون به عزيمة أتباعهم خيراً من أن يجيئوا بتابوت إلههم، آملين أن ينقذهم من تسلّط الفلسطينيين. قالوا «لنأخذ لأنفسنا تابوت عهد الرب، فيدخل في وسطنا ويخلّصنا من يد الفلسطينيين سم١ ٤ : ٣». «فحارب الفلسطينيون، وانكسر اسرائيل، وهربوا كل واحد الى خيمته. سم ٤ : ١٠». «وأخذ الفلسطينيون تابوت الرب وأدخلوه الى بيت داجون. سم١ ٥ : ١». «فناح كل بيت اسرائيل وراء الرب. سم١ ٧ : ٢».

وهكذا ظلّ الفلسطينيون يشدّدون على الغزاة اليهود، مما ألقى الرعب في قلوبهم، وجعل نفوسهم تتفرّق شعاعاً، ولم يجدوا موئلاً يلوذون به غير كليم

الله سموئيل. «فقال بنو اسرائيل لسموئيل: لا تكفّ عن الصراخ من أجلنا الى يهوه إلهنا، فيخلّصنا من يد الفلسطينيين. فأخذ سموئيل حملاً رضيعاً وأصعده محرقة ليهوه (الرب). وصرخ سموئيل الى يهوه (الرب) من أجل اسرائيل، فاستجاب له يهوه. وبينما كان سموئيل يصعد المحرقة تقدم الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل. فأرعد يهوه (الرب) بصوت عظيم في ذلك اليوم على الفلسطينيين، وأزعجهم، فانكسروا أمام اسرائيل سم١ ٧: ٨ ـ ١٠».

وفي جولة ثانية يقول محرر الكتاب المقدس «تجمّع الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل. سم١ ١٣: ٥». «وكان ملك اسرائيل شاول مقيماً في طرف جبعة تحت الرمانة التي في مغرون، والشعب الذي معه نحو ست مائة رجل سم١ ١٤: ٢». «ولما رأى رجال اسرائيل أنهم في ضنك، اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار. وبعض العبرانيين عبروا الاردن.. وكل الشعب ارتعد وراء شاول سم١ ١٣: ٦». وحين أظهر يوناثان وغلامه «نفسيهما لصف الفلسطينيين، قال الفلسطينيون: هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها. سم١ ١٤: ١١». ويضيف المحرر «فصعد يوناثان على يديه ورجليه، وحامل سلاحه وراءه.. وكانت الضربة الأولى نحو عشرين رجلاً في نحو نصف ثلم فدان أرض. وكان ارتعاد في المحلة.. ورجفت الأرض.. وتزايد الضجيج في محلة الفلسطينيين.. وإذا بسيف كل واحد على صاحبه.. وهكذا خلّص يهوه (الرب) اسرائيل في ذلك اليوم. سم١ ١٤: ١٣ ـ ٢٣».

قلت وأكرر القول إن المؤرخ كمال الصليبي لا يُحسن قراءة التاريخ، أو قل إنه يجهل التاريخ. ولذلك لم يرَ، وربما لم يشأ أن يرى ما قرّره محرر سفر القضاة (١٤: ٤) من أن الفلسطينيين ظلّوا متسلّطين على اسرائيل». وأن «يابين ملك كنعان استعبد بني اسرائيل عشرين سنة. قضاة ٤: ٣». وأن «الفلسطينيين وبني عمون حطّموا ورضّضوا بني اسرائيل ثماني عشرة سنة. قضاة ١٠: ٧». وأن «الفلسطينيين استعبدوا بني اسرائيل أربعين سنة، قضاة ١٣: ١». وأن.. وأن..

وغفل أو تغافل، كما يغفل أو يتغافل ما يزيد على ألفي مليون مؤمن، عن رؤية «ملك اسرائيل شاول مقيماً في طرف جبعة تحت الرمانة (تأمل: ملك مقيم تحت الرمانة وفي طرف جبعة). والشعب (تأمل الشعب) الذي معه نحو ست

مائة رجل. وغفل عن رؤية «رجال اسرائيل وهم في ضنك» أمام الفلسطينيين. ولذلك «اختبأ الشعب (تأمل: اختبأ الشعب) في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار. وبعض العبرانيين عبروا الاردن. وكل الشعب ارتعد وراء شاول». (تأمّل: كل الشعب ارتعد وراء شاول). وحين ظهر منهم من ظهر «قال الفلسطينيون: هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها».

ويبدو أن المؤرخ كمال الصليبي، والمغفلين الذين يأخذون بمقولته أو يتبنّون نظريته، لم يفكّروا، ربما لوعيهم المغيّب وذهنهم المشلول، في أن الجولتين اللتين أُدّعي فيهما النصر لبني اسرائيل على الفلسطينيين، على رواية الكتاب المقدس. أو «الهزائم المتتالية التي ألحقها بنو اسرائيل بالفلسطينيين»، على زعم المؤرخ صليبي، تمّت على يدي إله بني اسرائيل، رب الجنود، يهوه. فحين «تقدم الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل، أرعد يهوه (الرب) بصوت عظيم على الفلسطينيين وأزعجهم، فانكسروا أمام اسرائيل. سم١ ٧: ٨ ـ ١٠». وحين «صعد يوناثان على يديه ورجليه (تأمّل: زحف على يديه ورجليه)، وحامل سلاحه وراءه.. كان ارتعاد في المحلة.. ورجفت الأرض.. وتزايد الضجيج في محلّة الفلسطينيين.. واذا بسيف كل واحد على صاحبه.. وهكذا خلّص يهوه (الرب) اسرائيل في ذلك اليوم».

فرب الجنود، يهوه (الرب) هو الذي «أرعد بصوت عظيم على الفلسطينيين، فانكسروا أمام اسرائيل». وفي الجولة الثانية هو الذي ضرب أعين الفلسطينيين بالعمى، وجعل سيف كل فلسطيني على صاحبه.

* * *

ويقول الصليبي في الصفحة ٣٨ من كتابه «وبين أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن العاشر ق.م. برزت المملكة الاسرائيلية عند منحدرات عسير الساحلية في أيام شاول. وتوسّعت في أيام داود. ووصلت ذروة قوتها وازدهارها في أيام سليمان». وكان لهذه المملكة (والكلام للصليبي) «سيطرة سياسية» على غرب شبه الجزيرة العربية. ص ٥٣

ويتكرّر السؤال: ما هي المصادر والمراجع والوثائق التي اعتمدها المؤرخ كمال الصليبي ليتحدث بهذا البشر والانطلاق الآخّاذين عن بروز المملكة الاسرائيلية في أيام شاول، وتوسّعها في أيام داود، وبلوغها ذروة القوة والازدهار

في أيام سليمان؟.

ليس من وثيقة في التاريخ تذكر مملكة اسرائيل وملوكها الثلاثة: شاول وداود وسليمان، غير وثيقة بني اسرائيل ـ التوراة (العهد القديم). فماذا تقول هذه الوثيقة؟.

تقول إن الكهنة القضاة ظلوا يستأثرون بالسلطة الدينية والمدنية في جماعة بني اسرائيل المتغرّبين في أرض فلسطين، ما يقرب من ثلاثة قرون. وظلّوا قوة عليا لا تنازع ولا تقهر، على الأقل على الصعيد الذهني الايديولوجي. فاستطاعوا احكام قبضتهم الدينية الايديولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على رقاب المختارين المصطفين. وبذلك كانوا يعملون على رفع بعض الأشخاص الى سدّة الملك، أو يعملون على اسقاطهم. وذلك يتناسب طرداً مع خضوع الملك لرغبات الكهنة، ولمقتضيات السياسة. وكانوا أصحاب القول الفصل في أرواح الاتباع وعقولهم. والواسطة بين أولئك الاتباع وبين المعبود. وظلوا بالتالي يستمتعون بالخيرات الواسعة المدفوقة عليهم من الاتباع.

ويبدو أن الجماعة ضاقوا آخر الأمر بالحكومة الدينية. وبرموا بهيمنة الايديولوجيا الكهنوتية الارستقراطية، فبدأوا يتطلّعون الى مخلّص ينقذهم من نير الاستعباد الذي شدته مجتمعات الأرض على رقابهم. ويخلّصهم من طغمة الكهنة وأبنائهم الذين كانوا يعيثون فساداً ويستأثرون بتقدمات وذبائح الجماعة.

فمن صور الفساد التي يدونها محرّر التوراة في الكتاب المقدس أن «بني عالي الكاهن كانوا بني بلّيعال. سم١ ٢: ١٢». (صفة قبيحة ومذمومة تعبّر عما يشبه أو يعني الفجور والعهر. فسّرها محرّر التوراة في الهامش بمعنى لؤماء). وكانوا لشدة فجورهم وعهرهم «يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع (بيت يهوه ـ الرب). سفر سم١ ٢: ٢٢».

ومن صور استئثارهم بالتقدمات والذبائح ينقل المحرّر صورة فريدة ومعبّرة في هذا الباب، يقول «كلما ذبح رجل ذبيحة، يجيء غلام الكاهن عند طبخ اللحم ومنشال ذو ثلاثة اسنان بيده، فيضرب في المرحضة أو المرجل أو المقلى أو القدر. وكل ما يصعد به المنشل يأخذه الكاهن لنفسه. . أو يقول للرجل الذابح: اعط لحماً ليشوى للكاهن، فانه لا يأخذ منك لحماً مطبوخاً بل نيئاً. فيقول له الرجل: ليحرقوا أولاً الشحم، ثم خذ ما تشتهيه نفسك. فيقول غلام

الكاهن: لا، بل الآن تعطي، وإلاّ فآخذ غصباً. سم١ ٢: ١٣ ـ ١٦».

وقد عبّر المحرّر عن نقمة الجماعة من حكم الكهنة، وما يكتنفه من فساد وافساد أرهقا الجماعة وأوقرا ظهورهم، بقوله «جاء رجل الله الى عالي الكاهن وقال له: هكذا يقول الرب: هل تجلّيت لبيت أبيك وهم في مصر، وانتخبته من جميع أسباط اسرائيل لي كاهناً، ليصعد على مذبحي ويوقد بخوراً ويلبس أفوداً أمامي. ودفعت لبيت أبيك جميع وقائد بني اسرائيل. فلماذا تدوسون ذبيحتي وتقدمتي التي أمرت بها في المسكن (مسكن الرب) وتكرم بنيك عليّ، لكي تسمنوا أنفسكم بأوائل كل تقدمات اسرائيل شعبي. سم١ ٢: ٢٧ ـ ٢٩».

الواقع أن رجل الله أو محرّر التوراة يلقي الضوء هنا على حقيقة جوهرية رسّخها موسى في أذهان بني اسرائيل وجعلها بنداً رئيساً في مقومات الديانة التي فرضها عليهم، وهي انتخابه بني لاوي (السبط الذي ينحدر منه) من بين اسباط اسرائيل، ليكهنوا ليهوه، وليتنعّموا بالتالي بذبائح وتقدمات بني اسرائيل. فمذ قال يهوه لموسى «قرّب اليك هرون أخاك وبنيه معه من بني اسرائيل، ليكهنوا لي. خروج ٢٨: ١». ظلّ يهوه أو موسى أو الكاهن الذي حرّر شريعة موسى، يؤكد على حصة هرون أو الكاهن من كل تقدمة أو ذبيحة. والشواهد كثيرة، منها مثلاً قول يهوه مخاطباً صفيه موسى «وتملأ يد هرون وأيدي بنيه. خروج ٢٩: ٩». وقوله «ثم تأخذ القص من كبش الملء.. وساق الرفيعة.. فيكونان لهرون وبنيه فريضة أبدية من بني اسرائيل. خروج ٢٩: ٢٦». ويقول يهوه «وأما كبش الملء فتأخذه وتطبخ لحمه في مكان مقدس، فيأكل هرون وبنوه لحم الكبش والخبز الذي في السلة عند باب خيمة الاجتماع. خروج ٢٩: ٣١». ويقول «يوقد الكاهن الشحم على المذبح. ويكون الصدر لهرون وبنيه. سفر لاويين ٧: ٣١». ويضيف «لأن الصدر وساق الرفيعة قد أخذتهما من بني اسرائيل من ذبائح سلامتهم، وأعطيتهما لهرون الكاهن ولبنيه فريضة دهرية من بني اسرائيل. سفر لاويين ٧: ٣٤».

«ثم قال موسى لهرون وبنيه: اطبخوا اللحم لدى باب خيمة الاجتماع. وهناك تأكلونه، والخبز الذي في سل قربان الملء، كما أمرت قائلاً: هرون وبنوه يأكلونه. سفر لاويين ٨: ٣١».

«وقال موسى لهرون ولابنيه: خذوا التقدمة الباقية من وقائد الرب

وكلوها.. لأنها فريضتك وفريضة بنيك من وقائد الرب. سفر لاويين ١٠: ١٢». «ساق الرفيعة وصدر الترديد.. يكونان لك ولبنيك فريضة دهرية كما أمر الرب. سفر لاويين ١٠: ١٥».

«وقال الرب لهرون.. هذا يكون لك من قدس الأقداس، من النار كل قرابينهم مع كل تقدماتهم وكل ذبائح خطاياهم وكل ذبائح آثامهم التي يردّونها لي. قدس أقداس هي لك ولبنيك. في قدس الأقداس تأكلها. الرفيعة من عطاياهم مع كل ترديدات بني اسرائيل، لك أعطيتها ولبنيك فريضة دهرية. كل دسم الزيت وكل دسم المسطار والحنطة، أبكارهن التي يعطونها للرب، لك أعطيتها. أبكار كل ما في أرضهم التي يقدمونها للرب، لك تكون.. كل محرّم في اسرائيل يكون لك. كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من البهائم، يكون لك.. جميع رفائع الأقداس التي يرفعها بنو اسرائيل للرب أعطيتها لك ولبنيك حقاً دهرياً.. إن عشور بني اسرائيل التي يرفعونها للرب رفيعة قد أعطيتها للاويين نصيباً. سفر العدد ١٨».

«وكلّم الرب موسى قائلاً: أوصِ بني اسرائيل وقل لهم: قرباني طعامي مع وقائدي، رائحة سروري، تحرصون أن تقربوه لي في وقته. وقل لهم: هذا هو الوقود الذي تقربون للرب: خروفان حوليان صحيحان لكل يوم، محرقة دائمة. الخروف الواحد تعمله صباحاً، والخروف الثاني تعمله بين العشائين. سفر العدد ٢٨: ١ ـ ٤».

ومن الطبيعي أن «الكهنة اللاويين» هم الذين «يأكلون وقائد الرب ونصيبه.. لأن يهوه إلهك قد اختاره من جميع أسباطك لكي يخدم باسم يهوه هو وبنوه كل الأيام. سفر التثنية ١٨: ١ ـ ٥».

مات عالي الكاهن، ومات ابناه في الحرب مع الفلسطينيين. وفي ذلك يقول محرر التوراة «وخرج اسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب، ونزلوا عند حجر المعونة. وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق.. واشتبكت الحرب، فانكسر اسرائيل أمام الفلسطينيين». لأن يهوه (الرب)، حليف اسرائيل الطبيعي، تقاعس، على ما يبدو، عن أن يحبو بالنصر شعبه المختار. فلم يجد الكهنة ما يقوّون به عزيمة الجماعة خيراً من تابوت الرب، على أمل أن يشدّ من عزائمهم وينصرهم. بيد أن ذلك لم يجدهم فتيلاً. فحين «حارب الفلسطينيون، انكسر اسرائيل، وهربوا

كل واحد الى خيمته. وسقط من اسرائيل ثلاثون ألف راجل. وأُخذ تابوت الله، ومات ابنا عالي حفني وفينحاس». ولما سمع عالي بالخبر «سقط على الكرسي الى الوراء، فانكسرت رقبته ومات. وقد قضى لاسرائيل أربعين سنة. سم١ ٤».

ويعد موت عالي تربّع الكاهن سموئيل على كرسي السلطة الكهنوتية. وعاش كغيره من الصفوة الكهنوتية متنعماً بالذبائح التي تنحر على مذبح يهوه (الرب)، «وبالتقدمات التي يقربها بنو اسرائيل للرب. سفر لاويين ١: ١١».

ظلّ سموئيل يصرّف أمور الجماعة الى أن بلغ أرذل العمر. وبلغة التوراة «قضى لاسرائيل كل أيام حياته. سم١ ٧: ١٥». عاملاً في الوقت ذاته على امتصاص نقمة الجماعة المتفاقمة على حكم الكهنة. ويبدو أنه شعر بأن كرسي السلطة لن تكون لابنيه بعد وفاته، فعمل على نقلها إليهما في حياته معتمداً على هيبته الشخصية، وعلى مساندة زمر الانبياء. يقول محرّر التوراة «وكان لما شاخ سموئيل أنه جعل بنيه قضاة لاسرائيل. سم١ ٨: ١». ولكن ابنيه كانا على سيرة سيئة مذمومة، كابني القاضي السابق عالي الكاهن، «فلم يسلكا في طريقه، بل مالا وراء المكسب وأخذا رشوة وعوّجا القضاء. سم١ ٨: ١ ـ ٣». فاستفحلت النقمة واستغلظ التذمّر، وانبرى القوم يناهضون الكهنة، وجعلوا يتنادون باحلال الحكم المدني محل الحكم الديني. ثم حزموا أمرهم وأجمعوا رأيهم أن يجبهوا سموئيل بما قرّ عليه قرارهم. يقول محرّر السفر «فاجتمع شيوخ اسرائيل جميعاً، وجاؤا الى سموئيل، الى الرامة، وقالوا له: هوذا أنت قد شخت، وابناك لم يسلكا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب. فساء الأمر في عيني سموئيل. سم١ ٨: ٦». ولم تطاوعه نفسه على التسليم بأسباب نقمة الجماعة. وأفتى بأن يهوه (الرب) هو وحده صاحب الحق في توجيههم الوجهة التي يرضاها. وقرّر أن يهوه يوحي إليه بمشيئته اللدنية ساعة فساعة، فيتولى سموئيل انفاذها أو يقوم بابلاغهم إياها.

وعندما جأر سموئيل بالشكوى الى يهوه، لم يجد يهوه (الرب) ما يواجه به شكاية سموئيل إلا شكاية مثلها. «فقال الرب لسموئيل... إنهم لم يرفضوك أنت، بل اياي رفضوا حتى لا أملك عليهم. سم١ ٨: ٧».

وحاول سموئيل أن يثني الجماعة عن هذا الطلب مبيّناً مساوىء النظام الملكي. ومعدّداً مثالب الملك، بقوله «يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه

وفرسانه، فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه رؤساء الوف ورؤساء خماسين، فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بناتكم عطّارات وطبّاخات وخبّازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشّر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشّر غنمكم، وأنتم تكونون له عبيداً. سم١ ١٨ : ١١ - ١٧».

ولكن الجماعة صمّموا في خطتهم وأصرّوا على مطلبهم. وبلغة التوراة «أبى الشعب أن يسمعوا لصوت سموئيل، وقالوا: لا، بل يكون علينا ملك. سم١ ٨: ٩».

وحين وصل تذمّر الجماعة الى حدّ التمرّد والثورة على الحكم الكهنوتي. ورأى سموئيل أن لا مناص من قيام الحكم الملكي. وقبل أن يذعن لمطلب الجماعة، فكّر في أن يكون الملك المختار ضعيف الرأي، سهل القياد. يستطيع سموئيل أن يتخذ منه دمية يحركها بحسب أهوائه ورغباته. خاصة وأن شريعة موسى خوّلته حقاً لا يمارى في اختيار شخص الملك. فمذ كان بنو اسرائيل في صحراء سيناء سنّ لهم موسى أو يهوه الموسوي شريعة الملك بقوله «متى أتيت الى الأرض التي يعطيك يهوه إلهك، وامتلكتها وسكنت فيها، فان قلت أجعل عليّ ملكاً كجميع الأمم الذين حولي، فانك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره يهوه إلهك. سفر التثنية ١٧ : ١٤». أي الذي يختاره الكهنة.

واتفق في تلك الأيام أن خرج من يدعى شاول بن قيس من سبط بنيامين يطلب أتناً له شردت وضلت الطريق. فجاوز في البحث عنها حمى عشيرته. ولم يزل يضرب في الأرض مع أحد الغلمان حتى وصل «الى أرض صوف، فقال شاول لغلامه تعال نرجع لئلا يترك أبي البحث عن الاتن الى البحث عنا. فقال الغلام: هوذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرم، كل ما يقوله يصير، فلنذهب الآن إليه لعله يخبرنا عن طريقنا. فقال شاول للغلام: إن الخبز قد نفذ من أوعيتنا، وليس من هدية نقدمها لرجل الله. فقال الغلام: هوذا بيدي ربع شاقل فضة أعطيه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنا.. فقال شاول لغلامه: كلامك حسن، هلم نذهب. سم١ ٩: ٥ - ١٠».

كان شاول شاباً وسيماً فارع الطول. ويبدو من اللقاء الأول بين الرجلين أن

شاول وقع من نفس سموئيل موقعاً حسناً، ردّه محرّر التوراة الى ما يتمتع به شاول من هيبة أخاذة وجلال آسر، عبّر عنهما بقوله إن شاول «شاب وحسن، ولم يكن رجل في بني اسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب. سم١ ٩ : ٢».

أما سموئيل فيبدو أنه أدرك بحدسه الرائي وفراسته الصائبة نقاط الضعف الخطيرة في شخصية شاول، وأهمها ضعف في الارداة، وتردد في اتخاذ القرارات. وهي الصفات التي كان سموئيل يريدها أن تكون في الملك المقترح رفعه على كرسي الملك في اسرائيل.

وهكذا «صب سموئيل قنينة الدهن على رأس شاول. سم١ ١٠ : ١»، ظاناً أو متوهّماً أو آملاً أن يكون شاول الملك المقترح رفعه على كرسي الملك في اسرائيل، دمية بيده أو خاضعاً لسطوته.

ولكي يتأكد سموئيل من رهافة حدسه وصدق ظنّه بدأ بعد «مسح شاول ملكاً على اسرائيل. سم١ ٩ : ١٦»، يملي عليه الأوامر والتوجيهات، في محاولة لاكتشاف ردّة الفعل عنده، والوقوف على مدى تجاوبه مع مشيئته. فأوعز إليه أن يشخص الى جبعة. «ويكون عند مجيئك الى المدينة أنك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود، وهم يتنبأون، فيحلّ عليك روح الرب، فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر. سم١ ١٠ : ٥».

وأضاف سموئيل «ثم تنزل قدامي الى الجلجال. . سبعة أيام تلبث حتى آتي اليك وأعلمك ماذا تفعل. سم١ ١٠ : ٨».

وعندما استجاب شاول لأوامر سموئيل الكاهن، تكونت لدى هذا الأخير قناعة برهافة حدسه وصدق ظنه. وأضحى متأكداً أو شبه متأكد من امتثال شاول أوامره والخضوع لمشيئته. وزاد في قناعة سموئيل ببراءة هذا الشاب، وبضعف شخصيته، جملة أمور، منها مثلاً:

١ ـ أن شاول لم يصدق نفسه أنه أصبح ملكاً بالدهن الذي سكبه سموئيل على رأسه، وبالتتويج الذي جلّله به في ما كان يبحث عن أتن أبيه الضائعة. ولذلك «لم يخبر أهله بأمر المملكة الذي تكلم به سموئيل. سم١ ١٠ : ١٦». وحين اجتمع الشعب برئاسة سموئيل لمسح شاول ملكاً على اسرائيل، لم يهتم شاول بكل ما يفعله سموئيل، ولم يقتنع بهذه المسرحية التي أعدها وأخرجها

سموئيل، فاختبأ بين الامتعة في ما كان الجماعة ينشطون للاعداد لحفل التتويج. والقصة كما رواها محرّر التوراة تقول «استدعى سموئيل الشعب الى المصفاة.. فقدم سموئيل جميع أسباط اسرائيل، وأُخذ سبط بنيامين.. ثم فتشوا على شاول فلم يجدوه. فسألوا من الرب: هل يأتي الرجل الى هنا؟. فقال الرب: هوذا قد اختبأ بين الامتعة. فركضوا وأخذوه من هناك. فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق. فقال سموئيل لجميع الشعب: أرأيتم الذي اختاره الرب؟ إنه ليس مثله في جميع الشعب. فهتف الشعب وقالوا ليحي الملك. سم١ ١٠: ١٧ ـ ٢٤».

٢ ـ أن قسماً من جماعة بني اسرائيل سخروا من شاول واحتقروه واستنكروا أن يخلّصهم من استعباد الفلسطينيين أو غيرهم من مجتمعات الأرض. يقول محرّر التوراة «وأما بنو بلّيعال فقالوا: كيف يخلّصنا هذا؟. واحتقروه. سم١ ١٠: ٢٧».

(وللقارىء أن يتأمّل في عبارة: استدعى سموئيل الشعب الى المصفاة. **كاهن يستدعي شعباً الى مكان محدّد**. وهذا (الشعب) الذي جاء للمشاركة في حفل مسح شاول، أي تجليله برتبة مسيح الرب، وبالتالي تتويجه ملكاً على اسرائيل، راح يفتش على الشاب الذي سيصير بعد صب قنينة الدهن على رأسه، مسيحاً وبالتالي ملكاً. والطريف أن (الشعب) في تفتيشه على شاول لم يسأل أهله عن مكان تواجده، وإنما سأل الرب مباشرة، «فقال الرب: هوذا قد اختبأ بين الامتعة». والاطرف أن سموئيل حين اختار شاول مسيحاً للرب وملكاً على اسرائيل، قدّم بين يدي اختياره مبرّراً مفاده أن شاول «كان أطول من كل الشعب، من كتفه فما فوق»).

ورغم أن سموئيل كان مقتنعاً أو شبه مقتنع بأن الشاب الذي نصبه ملكاً على اسرائيل، سيكون دمية بيده، فقد «صبّ قنينة الدهن على رأس شاول. سم١ ١٠: ١». مرغماً، ومتبرئاً من المسؤولية على اعتبار أن يهوه (الرب) هو الذي أراد أن يكون على رأس الجماعة ملك، إذ قال «لسموئيل: اسمع لصوتهم وملّك عليهم ملكاً. سم١ ٨: ٢٢». ويهوه هو الذي اختار شاول إذ «كشف اذن سموئيل قبل مجيء شاول بيوم قائلاً: غداً في مثل هذا الوقت أرسل اليك رجلاً من بني بنيامين، فامسحه رئيساً لشعبي اسرائيل، فيخلّص شعبي من يد

الفلسطينيين.. لأن صراخ شعبي قد وصل إليّ. سم١ ٩: ١٥». ويهوه هو الذي «مسحه على ميراثه رئيساً. سم١ ١٠: ١».

وعلى أي حال ظلّ سموئيل راضياً عن شاول ما دام هذا الأخير ينفّذ أوامر ناصحه المتغطرس. ولما حاول شاول أن يحيد قيد أنملة عن أوامر سيده، حطّم سموئيل الملك الدمية وألقى به جانباً كما يلقي الانسان بآلة كفت عن القيام بوظيفتها. تبدأ القصة كما رواها محرّر التوراة مع «صعود ناحاش ملك بني عمون الى يابيش جلعاد. فقال أهل يابيش جميعهم لناحاش: اقطع لنا عهداً فَنُستعبد لك. فقال لهم ناحاش العموني: اقطع لكم عهداً بتقوير كل عين يمنى لكم، وجعل ذلك عاراً على جميع اسرائيل..

فجاء رسل يابيش الى جبعة شاول وتكلموا بهذا الكلام في آذان الشعب. فرفع الشعب كلهم أصواتهم وبكوا. سم١ ١١: ١ - ٤». (تأمّل في: رفع الشعب كلهم أصواتهم وبكوا). «واذا بشاول آت وراء البقر من الحقل. (تأمّل في شاول الذي ما فتىء يرعى البقر حتى بعد أن نصبه سموئيل مسيحاً للرب وملكاً على اسرائيل) فقال شاول: ما بال الشعب يبكون؟. (تأمّل: الشعب يبكون). فقصّوا عليه كلام أهل يابيش. فحلّ روح الله على شاول عندما سمع هذا الكلام، وحمي غضبه جداً. فأخذ فدان بقر وقطّعه وأرسل الى كل تخوم اسرائيل قائلاً: من لا يخرج وراء شاول ووراء سموئيل، فهكذا يُفعل ببقره. فوقع رعب على الشعب (تأمّل في الطريقة التي جمع شاول الشعب بها حوله). فخرجوا كرجل واحد.. وكان في الغد أن شاول جعل الشعب ثلاث فرق ودخلوا في وسط المحلة عند سحر الصبح وضربوا العمونيين حتى حمي النهار. سم١ ١١: ١ - ١١».

وهكذا اكتشف الجماعة في ملكهم شهامة وجسارة وشجاعة دفعت بهم الى السخط على الذين سخروا من فكرة تنصيب شاول ملكاً على بني اسرائيل، وشكّوا بمقدرته على تخليصهم. وقد عبّروا عن سخطهم بقولهم: «السموئيل: من هم الذين يقولون: هل شاول يملك علينا؟. أتوا بالرجال فنقتلهم. سم١ ١١: ١٢».

وبعد النصر الذي أحرزه شاول على بني عمون (على زعم الراوي التوراتي) حارب «جميع أعدائه حواليه: مؤاب وبني عمون وادوم وملوك صوبة

والفلسطينيين. وحيثما توجه غلب. وفعل ببأس، وضرب عماليق، وأنقذ اسرائيل من يد ناهبيه. سم١ ١٤ : ٤٧».

ولكن، هل قرّت عين سموئيل بهذه الانتصارات الباهرة؟. (على زعم الراوي التوراتي) وهل تشفّعت هذه البطولة النادرة (على رواية الراوي التوراتي) الى كاهن بني اسرائيل (سموئيل)، في منقذ بني اسرائيل (شاول)؟.

الواقع، كما يبدو، أن النصر الذي أحرزه شاول، لم يأخذ بلب سموئيل. ولم يصرفه عن اللهج بكرسي الملك الذي خلع منه. ولم يغفر سموئيل لشاول أنه اغتصب منه صولجان الحكم. وزاده سخطاً على شاول أن هذا الأخير اكتسب اعجاب الجماعة وولاءها. وأن (الشعب) ازداد تعلقاً به، إذ أخذوا يتجمعون حوله يوماً بعد يوم. وأخيراً أقبلوا يجدّدون له البيعة. يقول المحرر «فذهب الشعب كله الى الجلجال، وهناك ملّكوا شاول أمام الرب، وذبحوا ذبائح سلامة. سم١ ١١: ١٥».

ومع الأيام شعر سموئيل بأن شاول آخذ في الاستقلال عنه شيئاً فشيئاً. وبأنه يتقاعس عن تلبية ما للكهّان من رغائب، وانفاذ ما لهم من مطالب. وما أرّث نيران النقمة في صدر سموئيل على شاول أن هذا الأخير عدّ نفسه مديناً بسلطانه الى (الشعب). فوجد عليه سموئيل. وعادت سخيمته تتلظّى على هذا الرجل الذي اغتصب منه السلطان. والذي كلما سمت به انتصاراته الحربية الى منزلة رفيعة، انحطت منزلة سموئيل في أعين (الشعب). وأخيراً صحت عزيمة سموئيل على أن يبطش بشاول لأن هذا الأخير لم يفطن الى حقيقة منصبه، ولم يدرك أنه ليس إلا خادماً ليهوه (الكهنة). يهوه الذي يدلي برغبته ويعلن مشيئته بلسان سموئيل.

وهكذا أخذ سموئيل يبحث عن مناوىء لشاول يسخّره في الكيد له، وقلب ظهر المجن للملك الذي حدّ من سلطان الكهنة.

وأذنت الحرب بالنشوب مرة أخرى. واحتشد الفلسطينيون في «مخماس شرقي بيت اون». فدب الرعب في أوصال الاسرائيليين. «واختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار وبعض العبرانيين عبروا الاردن.. وكل الشعب ارتعد وراء شاول. سم١ ١٣ : ٥». فأرسل شاول يدعو سموئيل الى القيام بالمناسك التي لا يجوز، باعتقادهم، انشاب الحرب قبل القيام بها.

ولكن سموئيل تثاقل عن الأمر صارفاً همه كله الى سلطانه المخلوع وامتيازاته الملغاة.

ويبدو أن تقصير سموئيل أحدث أثراً وخيماً في حالة بني اسرائيل. فقد أخمد من حماسهم وفلّ من عزائمهم، فشرعوا يتسلّلون من الصفوف وينفضّون من حول قائدهم. يقول محرر السفر «لم يأت سموئيل، والشعب تفرّق عن شاول. سم١ ١٣ : ٨». (تأمّل: الشعب تفرق). وقد «عدّ شاول الشعب الموجود معه فبلغ نحو ست مائة رجل. سم١ ١٣ : ١٥». (تأمل الشعب ست مائة رجل). وعندما ضاق شاول بتلبّث سموئيل ذرعاً، لم يجد مسيح الله ندحة عن أن يقوم بنفسه بالمنسك الديني. «فقال شاول قدّموا إليّ المحرقة وذبائح السلامة، فأصعد المحرقة. وكان لما انتهى من اصعاد المحرقة اذا سموئيل مقبل، فخرج شاول للقائه. فقال سموئيل: ماذا فعلت؟. فقال شاول: رأيت الشعب قد تفرّق عني، (تأمل الشعب تفرق من حول الملك) وأنت لم تأت في الميعاد، والفلسطينيون متجمّعون في مخماس، فتجلدت وأصعدت المحرقة. فقال سموئيل لشاول: قد انحمقت، لم تحفظ وصية يهوه إلهك.. فمملكتك لا تقوم، وقد انتخب يهوه لنفسه رجلاً حسب قلبه وأمره أن يترأس على شعبه. ١٤». وزعم سموئيل أن يهوه (الرب) قال له «ندمت على اني جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي، ولم يُقم كلامي. سم١ ١٥ : ١١».

وهكذا جاهر سموئيل شاول بالعداوة، وأبلغه أن الرب غيّر رأيه فيه، شائناً له لا يريد به يسراً. وأن الرب مزمع عزله عن الملك ليبوّىء العرش رجلاً غيره.

فلما فوجىء شاول بهذه المقالة قدّر أن وراءها شرّاً مستطيراً. فاستبد به الوجل وحاول أن يستغفر من ذنبه، ولكن هيهات أن يغفر رجال الكهنوت لمن انتزع منهم صولجان الملك بعد أن أطبقوا أيديهم عليه نيّفاً ومئتين من السنين.

والسؤال: من عسى أن يكون هذا الفتى الذي هفّ إليه فؤاد الرب، أو بالحري فؤاد سموئيل؟.

هو غلام يافع وسيم «أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. سم١ ١٦ : ١٢». ثم هو الى جانب ذلك شغّاب جرىء لا يتحرّج عن دنيّة ولا يتصوّن عن مأثم (كما سيتضح لنا من سيرته). هو داود بن يسّى البيتلحمي. «فقال الرب

لسموئيل أنا رفضت شاول عن أن يملك على اسرائيل. والآن املأ قرنك دهناً وتعال أرسلك الى يسّى البيتلحمي، فقد رأيت لي في بنيه ملكاً. سم١ ١٦: ١».

فسموئيل هو الذي يفصح عن مشيئة الرب. وهو الذي خذل شاول ووجّه إليه تهمة التقصير ووصمه بالحماقة. وهو الذي اختار داود ليحلّ محل مسيح الرب شاول بعد التخلّص منه. ولكن المشكلة هي في مسح داود. فقد كان نبي الله سموئيل يفعل فعلته في الخفاء، ويحرص على أن تبقى المؤامرة التي يحوكها وينفّذها سرّاً مطوياً. وقد كان يحذر شاول، ويخشى، اذا ما كشف عن وجهه القناع، أن يبطش به شاول. ولذلك اصطنع الخديعة وتوسّل بالكذب، ونسب كل شيء الى الرب. فحين طلب إليه الرب أن يذهب الى بيت لحم ليمسح داود، «قال سموئيل للرب: كيف أذهب؟. إن سمع شاول يقتلني. فقال الرب: خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب. وادع يسّى الى الذبيحة، وأنا أعلّمك ماذا تصنع، وامسح لي داود. سم١ ١٦: ٢». (إذاً فالرب يعلّم نبيه سموئيل اصطناع الخديعة والتوسّل بالكذب).

«وكان لما جاؤا الى بيت يسّى أنه سأل عن داود، فقال له يسّى: هوذا يرعى الغنم. فقال سموئيل ليسّى: ارسل وأتِ به. وعندما وصل داود قال الرب: قم امسحه. . فأخذ سموئيل قرن الدهن ومسح داود. وحلّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً. وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح رديء من قبل الرب. سم١ ١٦: ٦ ـ ١٤».

وسموئيل هو الذي أراد ليهوه (الرب) أن يصحو الى غلطته، وأن يندم على فعلته رفع شاول الى سدة الملك. وأراد لربه أن يعلّمه اصطناع الخديعة والتوسّل بالكذب. وأراد لروح الرب أن تفارق شاول وتحلّ على داود.

وهكذا شنّ رجال الكهنوت، وعلى رأسهم سموئيل، على مليكهم حرباً ضروساً، غير معلنة، نغّصته ونهكته. وأوعزوا الى صنائعهم من خدم القصر أن يُلقوا في روع مسيح الرب شاول أنه أضاع ما كان له من حظوة عند ربه. وأن الرب سلّط عليه روحاً شريرة توشك أن توبقه. واستعان الكهنة بعميلهم داود الذي ألحقوه بحاشية القصر ومكّنوه من شاول. فعندما «ذهب روح الرب من عند شاول، وبغته روح رديء من قبل الرب، قال عبيد شاول له: هوذا روح

رديء من قبل الله يبغتك. فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود، ويكون اذا كان عليك الروح الرديء من قبل الله، أنه يضرب بيده فتطيب. فقال شاول لعبيده: انظروا لي رجلاً يحسن الضرب وأتوا به إليّ. فأجاب واحد من الغلمان وقال: هوذا قد رأيت ابناً ليسّى البيتلحمي يحسن الضرب، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه.. فأرسل شاول الى يسّى يقول: ليقف داود أمامي لأنه وجد نعمة في عيني. وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده، فكان شاول يرتاح ويطيب ويذهب عنه الروح الرديء. سم١ ١٦: ١٤ ـ ٢٣».

وهكذا أقبل مسيح الله الجديد على مسيحه العتيد يرفّه عن خناقه ويمكّن أيدي الكهنة من مخنقه. ولسنا نعلم ما تلك الأرواح الرديئة التي عند الرب والتي ألقى سموئيل بحفنة منها على شاول. ولكنا نعلم أن داود قد تسنّى له أن يدحرها بموسيقاه الرعوية. وأن يوفّر لمليكه الراحة والهدوء.

استؤنفت الحرب بين الاسرائيليين والفلسطينيين «وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا، واسرائيل وقوفاً على جبل من هناك. والوادي بينهم. فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت طوله ستة اذرع وشبر.. فوقف ونادى صفوف اسرائيل وقال لهم: لماذا تخرجون لتصطفّوا للحرب. أما أنا الفلسطيني وأنتم عبيد شاول. اختاروا لأنفسكم رجلاً ولينزل إليّ. فإن قدر أن يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيداً. وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا.. وظلّ الفلسطيني يتقدم ويقف صباحاً ومساءً أربعين يوماً.. أما رجال اسرائيل جميعاً فلما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً. سم١ ١٧». (تأمل: رجال اسرائيل جميعاً هربوا من وجه رجل فرد، وخافوا جداً). «فكلم داود الرجال الواقفين معه قائلاً: ماذا يُفعل للرجل الذي يقتل ذلك الفلسطيني ويزيل العار عن اسرائيل؟. فقال رجال اسرائيل إن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرّاً في اسرائيل.. فقال داود لشاول: كان عبدك يرعى لأبيه غنماً فجاء أسد مع دب وأخذ شاة من القطيع. فخرجت وراءه وقتلته وأنقذتها من فيه. ولما قام عليّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته. قتل عبدك الاسد والدب جميعاً.. وهذا الفلسطيني الأغلف يكون كواحد منهما.. ثم أخذ داود عصاه بيده، وانتخب له خمسة حجارة ملس

من الوادي وجعلها في كِنْف الرعاة الذي له أي في الجراب ومقلاعه بيده وتقدم نحو الفلسطيني. . فقال الفلسطيني لداود تعال إليّ فأعطي لحمك لطيور السماء ووحوش البرية. . وكان لما قام الفلسطيني وذهب وتقدم للقاء داود، أن داود مدّ يده الى الكنف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته فارتز الحجر في جبهته، وسقط على وجهه الى الأرض. سم١ ١٧».

«وكان حين رجع داود من قتل الفلسطيني أن النساء خرجن بالغناء والرقص للقاء شاول الملك. . وقلن: ضرب شاول ألوفه وداود ربواته. . فغضب شاول جداً، وساء هذا الكلام في عينيه، وقال: أعطين داود ربوات، وأما أنا فأعطينني الالوف. .

وكان في الغد أن الروح الرديء من قبل الله اقتحم شاول، وجُنّ في وسط البيت. وكان داود يضرب بيده كما في كل يوم. وكان الرمح بيد شاول. فأشرع شاول الرمح وقال (في نفسه) أضرب داود حتى الى الحائط. فتحوّل داود من أمامه مرتين. وكان شاول يخاف داود لأن الرب معه، وقد فارق شاول. سم١ ١٨ : ١٠ ـ ١٢».

والسؤال الذي يطرح هنا: لماذا صار شاول يوجس خيفة من داود؟. ولماذا ينفس عليه بما حظي به من ترنّم الفتيات باسمه واشادتهن بالبطولة التي أبداها حين شج رأس العملاق جليات بحجر من مقلاعه وبطحه أرضاً ثم أجهز عليه؟. ولماذا صار يباديه بالعداوة في وقت لا نعثر على الأسباب التي حوّلت قلب شاول عن داود، وأوغرت صدره عليه؟. وكيف يرشق شاول داود بالرمح مرتين، فتنبو عنه الطعنتان، ويبقى داود واقفاً أمامه؟.

المهم أن شاول عزم على التخلّص من داود. ولكن «لا تكن يدي عليه (كما يقول)، بل لتكن عليه يد الفلسطينيين. سم١ ١٨ : ١٧». وأضاف شاول في ما بينه وبين نفسه طبعاً: «اعطيه ابنتي فتكون له شركاً، وتكون يد الفلسطينيين عليه. سم١ ١٨ : ٢١». وهكذا «قال شاول لعبيده: تكلموا مع داود سرّاً قائلين: هوذا قد سُرّ بك الملك. . فالآن صاهر الملك. فتكلم عبيد شاول في أذني داود بهذا الكلام. فقال داود هل هو مستخف في أعينكم مصاهرة الملك، وأنا رجل مسكين وحقير. فنقل العبيد هذا الكلام الى شاول. فقال شاول: هكذا تقولون لداود: ليست مسرّة الملك بالمهر، بل بمئة غلفة من

الفلسطينيين. سم١ ١٨: ٢٢ ـ ٢٥».

وقد انتهز مسيح الرب هذه المناسبة السعيدة، فاحتال لهلاك صهره المنتظر إذ فرض عليه أن يمهر ابنته «بمئة غلفة من الفلسطينيين. وكان شاول يتفكّر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين. سم١ ١٨: ٢٥»، كما يقول محرّر السفر.

فمسيح الرب لم يطلب نقوداً أو جلوداً من حيوانات نادرة، بل غلفات. ويبدو أن صنّاع الكتاب المقدس هم وحدهم الذين يدور بأخلادهم ابتداع هذا الصداق العجيب.

ومهما يكن من أمر فقد استخف الفرح داود بأن يصهر الى الملك «فذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل (قتلهم غيلة وغدراً طبعاً، لأنه بعد قتلهم، كما يزعم الراوي التوراتي، لجأ الى أخيش ملك الفلسطينيين هرباً من وجه شاول، وعاش بين الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر). وأتى بغلفهم للملك.. فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة. سم١ ١٨: ٢٧».

وبعدما زف مسيح الرب ابنته ميكال الى داود «التمس شاول أن يطعن داود بالرمح. سم١ ١٩: ١٠»، في ما كان هذا الأخير يضرب بالعود لتطييب نفس الملك الذي ركبته الأرواح الشريرة. «ففرّ داود من أمام شاول، فضرب الرمح الى الحائط. فهرب داود ونجا تلك الليلة. سم١ ١٩: ١٠». «فأرسل شاول رجاله الى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح. سم١ ١٩: ١١». ولكن ميكال ابنة شاول التي كانت تحب زوجها داود، أعانت زوجها على الفرار من وجه أبيها بأن أخرجته من النافذة، وأرقدت في فراشه صنمه المعبود، ويبدو أنه كان يضاهيه في جرمه، ووسدته وسادة من شعر المعزى، موهمة رجال الملك أن زوجها طريح الفراش. وبلغة التوراة «أخبرت داود ميكال امرأته قائلة: إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فانك تُقتل غداً. فانزلت ميكال داود من الكوة، فذهب هارباً ونجا. فأخذت ميكال الترافيم (شكل صنمي) ووضعته في الفراش، ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب. سم١ ١٩: ١١ ـ ١٣».

وهكذا «هرب داود ونجا وجاء الى سموئيل في الرامة. سم١ ١٩: ١٨». ومن الرامة «ذهب داود وسموئيل وأقاما في نايوت. سم١ ١٩: ١٨». ثم آذن يوناثان داود بما يحيق به من الخطر. وساعده على الهرب والنجاة من بطش أبيه شاول. ولذلك «حمي غضب شاول على ابنه يوناثان وقال له: يا ابن المتعوّجة،

المتمرّدة. أما علمت أنك قد اخترت ابن يسّى لخزيك وخزي عورة أمك، لأنه ما دام ابن يسّى حيّاً على الأرض، لا تثبت أنت ولا مملكتك. سم١ ٢٠: ٣٠».

ثم قام داود «وهرب الى نوب الى أخيمالك الكاهن. سم١ ٢١: ١». وجاء من يخبر شاول بأن الكاهن أخيمالك سهّل لداود الهرب، «وسأل له من الرب، وأعطاه زاداً وسيف جليات الفلسطيني. سم١ ٢٢: ١٠». «فقال مسيح الرب للسعاة الواقفين لديه: دوروا واقتلوا كهنة الرب لأن يدهم أيضاً مع داود، ولأنهم علموا أنه هارب ولم يخبروني. فدار دواغ (أحد السعاة) وقتل في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً لابسي أفود كتان، وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف: الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم بحد السيف. سم١ ٢٢: ١٧ ـ ١٩».

وفي ذلك اليوم «قام داود وهرب وجاء الى أخيش ملك جت. فقال عبيد أخيش: أليس هذا داود الذي كن يغنين له في الرقص قائلات: ضرب شاول ألوفه، وداود ربواته». فأدرك داود أنه غرّر بنفسه. ولم يجد وسيلة يستنقذ بها حياته إلا أن يتجنّن عليهم. وهكذا «غيّر عقله في أعينهم، وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب، ويسيل ريقه على لحيته. فقال أخيش لعبيده: هوذا ترون الرجل مجنوناً. فلماذا تأتون به إليّ؟. ألعلي محتاج الى مجانين. سم١ ٢١: ١٠ ـ ١٥».

ومن جت الفلسطينية «ذهب داود ونجا الى مغارة عدلام. سم١ ٢٢: ١». «ومن هناك ذهب داود الى مؤاب، فودع أباه وأمه عند ملك مؤاب. وأقام هو في الحصن. . ثم ذهب الى وعر الغاب. سم١ ٢٢: ٣». ومن وعر الغاب «ذهب داود ورجاله الى قعيلة. سم١ ٢٣: ٥». «فدعا شاول جميع الشعب للحرب للنزول الى قعيلة لمحاصرة داود ورجاله. فقام داود ورجاله نحو ست مائة رجل وخرجوا من قعيلة، وذهبوا حيثما ذهبوا. . وكان شاول يطلب داود كل الأيام. سم١ ٢٣: ٧ ـ ١٤».

وعندما «رأى داود أن شاول قد خرج يطلب نفسه. . ذهب الى الجبل في برية زيف في الغاب. سم١ ٢٣: ١٥». ثم «أقام داود ورجاله في برية معون. فلما سمع شاول تبع داود الى برية معون. . وكان داود يفرّ من أمام شاول.

وكان شاول ورجاله يحاوطون داود. سم١ ٢٣: ٢٤ ـ ٢٦».

«وصعد داود من هناك وأقام في حصون عين جدي. سم١ ٢٣: ٢٩». «فأخذ شاول ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع اسرائيل وذهب يطلب داود ورجاله على صخور الوعول. وجاء الى صير الغنم التي في الطريق. وكان هناك كهف، فدخل شاول لكي يغطّي رجليه (كناية عن شعوره بالنعاس). وداود ورجاله كانوا جلوساً في مغابن الكهف. فقال رجال داود له: هوذا اليوم الذي قال لك عنه الرب هانذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن في عينيك. فقام داود وقطع طرف جبة شاول. سم١ ٢٤: ٢ ـ ٥».

الطريف في هذه المغامرة بين ملك اسرائيل وبين قائد المرتزقة (داود)، أن شاول الذي خرج يطلب حياة داود، وقع بيد داود. وأن داود الملاحق المطارد (بفتح الراء) هو الذي ظفر بغريمه، واقتنص في حبالته ذاك الذي جاء يبغي احتباله. إلا أنه تأثّم وأبى أن يلحق الاذى بمسيح الرب. إذ «قال لرجاله حاشا لي من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي، مسيح الرب، فأمد يدي إليه لأنه مسيح الرب هو. فوبّخ داود رجاله بالكلام، ولم يدعهم يقومون على شاول. وأما شاول فقام من الكهف وذهب في طريقه.

ثم قام داود بعد ذلك وخرج من الكهف، ونادى وراء شاول قائلاً: يا سيدي الملك. ولما التفت شاول الى ورائه، خرّ داود على وجهه الى الأرض وسجد. وقال داود لشاول: لماذا تسمع كلام الناس القائلين: هوذا داود يطلب أذيتك. هوذا قد رأت عيناك اليوم هذا كيف دفعك الرب اليوم ليدي في الكهف، وقيل لي أن أقتلك، ولكنني أشفقت عليك وقلت لا أمد يدي الى سيدي لأنه مسيح الرب هو. فانظر يا أبي انظر أيضاً طرف جبتك بيدي. سم١ ٢٤: ٦ ـ ١١». وأضاف قائد المرتزقة موبخاً ملك اسرائيل «وراء من خرج ملك اسرائيل؟. وراء كلب ميت، وراء برغوث واحد. سم١ ٢٤: ١٤».

ولما أشهد داودُ شاولَ على بغيه، استعبر شاول وأنحى على نفسه تثريباً وتقريعاً. «وقال لداود: أنت أبرّ مني لأنك جازيتني خيراً، وأنا جازيتك شرّاً. وقد أظهرت اليوم أنك عملت بي خيراً لأن الرب قد دفعني ليدك ولم تقتلني. . ورفع شاول صوته وبكى. سم١ ٢٤: ١٧».

وهذه المغامرة سردت أيضاً في الفصل ٢٦ من سفر سموئيل الأول. يقول

المحرر «جاء الزيفيون الى شاول الى جبعة قائلين: أليس داود مختفياً في تل حخيلة الذي مقابل القفر. فقام شاول ونزل الى برية زيف ومعه ثلاثة آلاف رجل منتخبي اسرائيل لكي يفتش على داود في برية زيف. ونزل شاول في تل حخيلة الذي مقابل القفر.. فقام داود وجاء الى المكان الذي نزل فيه شاول.. فجاء داود الى الشعب ليلاً واذا بشاول مضطجع عند المتراس ورمحه مركوز في الأرض عند رأسه. والشعب مضطجعون حواليه. فقال أحد رجال داود: قد حبس الله اليوم عدوك في يدك، فدعني الآن أضربه بالرمح.. فقال داود: من الذي يمد يده الى مسيح الرب ويتبرّأ.. حاشا لي أن أمدّ يدي الى مسيح الرب.. فأخذ داود الرمح وكوز الماء من عند رأس شاول.. وعبر داود الى الجبل ونادى شاول قائلاً إن ملك اسرائيل قد خرج ليفتش على برغوث واحد.. فقال شاول: قد اخطأت. هوذا قد حمقت وضللت كثيراً جداً. سم١ ٢٦».

وفي الفصل ٢٥ من سفر سموئيل الأول يحكي لنا محرّر السفر قصة طريفة لداود الصعلوك الذي كان يغير بعصابته على الآمنين ويقسرهم على أداء الأتاوة. لعلها من أطرف القصص التي وصلتنا عن صعاليك بني اسرائيل. فحين «كان داود في البرية سمع أن نابال الكرملي يجز غنمه». فأرسل داود نفراً من غلمانه الى نابال يطلب إليه أداء الأتاوة على اعتبار أن «رعاتك حين كانوا معنا في البرية لم نؤذهم ولم يُفقد لهم شيء». وهذه منّة بنظر داود طبعاً، لأن داود «وقد ضرب الأرض غازياً، فلم يستبق رجلاً ولا امرأة إلاً وأخذ منهم الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب. سم١ ٢٧ : ١١» كان باستطاعته أن يغير على رعاة نابال ويقتنص منهم الأغنام عنوة واقتداراً.

وكان من الطبيعي أن يذود الرجل (نابال) عن كرامته وعن ثروته، فلا يذعن للتهديد ولا يرضخ للابتزاز. فردّ على غلمان داود بسؤال استنكاري بليغ «من هو داود، ومن هو ابن يسّى؟ قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده. آآخذ خبزي ومائي وذبيحي وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟. سم١ ٢٥ : ١٠».

ورجع الغلمان الى شيخ المنسر برجع رسالته. «فقال داود لرجاله: ليتقلد كل واحد منكم سيفه.. وصعد وراء داود نحو أربع مئة رجل، ومكث مئتان مع الأمتعة. سم١ ٢٥ : ١٣».

وقبل أن ينطلق داود بعصابته لغزو نابال «أخبر أحد الغلمان ابيجايل امرأة نابال. . بأن الشرّ قد أُعِدّ على سيدنا (نابال). سم١ ٢٥: ١٢». فانطلقت المرأة فوراً الى فتى الفتيان مسبوقة بقدر كبير من الزاد تطرفه به. وبلغة محرّر السفر «بادرت ابيجايل وأخذت مئتي رغيف خبز وزقّي خمر وخمسة خرفان مهيأة وخمس كيلات من الفريك ومئة عنقود من الزبيب ومئتي قرص من التين، ووضعتها على الحمير، وقالت لغلمانها: اعبروا قدامي. . وفي ما هي راكبة على الحمار ونازلة في سترة الجبل، إذا بداود ورجاله منحدرون. . ولما رأت ابيجايل داود أسرعت ونزلت عن الحمار وسقطت أمام داود على وجهها وسجدت الى الأرض. . وقالت: عليّ أنا يا سيدي هذا الذنب. . لا يضعن سيدي قلبه على هذا الرجل اللئيم نابال. . وأنا أمتك لم أرَ غلمان سيدي الذين أرسلتهم سم١ ٢٥: ١٨ ـ ٢٥». فردّ عليها داود قائلاً: «لو لم تبادري وتأتي لاستقبالي، لما أبقي لنابال الى ضوء الصباح بائل بحائط».

ويضيف المحرر «وبعد نحو عشرة أيام ضرب الرب نابال، فمات. سم١ ٢٥: ٣٨». (كذا: ضرب الرب نابال فمات، وبعد عشرة أيام فقط) «فأرسل داود وتكلم مع ابيجايل ليتخذها امرأة. سم١ ٢٥: ٣٩».

* * *

ظلّ شاول جاداً في استقصاء أخبار قائد المرتزقة داود وملاحقته. وحين اشتدت مطاردته له «قال داود في قلبه: إني سأهلك يوماً بيد شاول، فلا شيء خير لي من أن أفلت الى أرض الفلسطينيين. فييأس شاول مني، فلا يفتش عليّ. فقام داود وعبر هو والست مائة الرجل الذين معه، الى أخيش ملك جت. وأقام داود عند أخيش في جت هو ورجاله. سم١ ٢٧: ١ ـ ٣».

وفي تلك الأيام (أيام لجوء داود الى الملك الفلسطيني أخيش) «مات سموئيل. . . واجتمع الفلسطينيون في شونم. وجمع شاول جميع اسرائيل ونزل في جلبوع. . ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جداً. فسأل من الرب، فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالاوريم ولا بالانبياء. سم١ ٢٨: ٥». وطفق الكهنة يكيدون شاول زاعمين أن يهوه (الرب) حال عن مودته وكفّ عن نصرته. فتلبّد الجو في وجهه، وأعيت عليه معالجة الخطر المحدق به. وأراد أن يستخير ربه فإذا هو قد تجمّدت قريحته وتبلّدت مخيلته حتى

استعصى عليه أن يرى رؤيا يفسّرها بما تشاء له وساوسه وأوهامه. ولم يجد بدأً من الانصراف الى الجان عوضاً عن الإله. واللواذ بالسحرة بدلاً من الانبياء. «فقال شاول لعبيده فتّشوا لي على امرأة صاحبة جان، فأذهب إليها وأسألها. فقال له عبيده: هوذا امرأة صاحبة جان في عين دور».

«فتنكّر شاول ولبس ثياباً أخرى.. وجاء الى المرأة.. فقالت المرأة: من أُصعد لك؟. فقال شاول: أصعدي ليس سموئيل. فلما رأت المرأة سموئيل صرخت بصوت عظيم وقالت لشاول: لماذا خدعتني وأنت شاول؟!. فقال لها الملك: لا تخافي. وماذا رأيت؟. فقالت المرأة لشاول: رأيت آلهة (تقصد رفائيم ومعناها أشباح الموتى. وهذا يعني أنها رأت شبح سموئيل) يصعدون من الأرض. فقال شاول: ما هي صورته؟. فقالت رجل شيخ مغطى بجبة. فعلم شاول أنه سموئيل. فخر على وجهه الى الأرض وسجد. فقال سموئيل لشاول: لماذا أقلقتني باصعادك أياي؟. فقال شاول: قد ضاق بي الأمر جداً. الفلسطينيون يحاربونني، والرب فارقني ولم يعد يكلمني، لا بالأنبياء ولا بالاحلام. فدعوتك كي تعلمني ماذا أصنع؟. فقال سموئيل: ولماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك. وقد فعل الرب لنفسه كما تكلّم عن يدي. وقد شقّ الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود.. ويدفع الرب اسرائيل أيضاً معك ليد الفلسطينيين. وغداً أنت وبنوك تكونون معي. ويدفع الرب جيش اسرائيل ايضاً ليد الفلسطينيين. سم١ ٢٨: ٥ ـ ١٩».

* * *

ذكرنا أن «داود عبر هو والست مائة الرجل الذين معه، الى أخيش ملك جت. وأقام داود عند أخيش في جت هو ورجاله. سم١ ٢٧: ١ ـ ٣». وفي أحد الأيام «قال داود لأخيش: إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فليعطوني مكاناً في إحدى قرى الحقل، فأسكن هناك.. ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة معك؟. فأعطاه أخيش صقلغ.. وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر. سم١ ٢٧: ٥ ـ ٧».

وكانت «عادته كل ايام اقامته في بلاد الفلسطينيين» أن يقوم بالغزو «فيأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ويرجع الى أخيش. سم١ ٢٧: ٩ ـ ١١». وكثيراً ما كان يقوم بالاغارة «على جنوبي يهوذا». وفي اغارته على يهوذا

ـ قبيلته، «صدّق أخيش داود قائلاً: قد صار مكروهاً لدى شعبه اسرائيل، فيكون لي عبداً الى الأبد. سم١ ٢٧: ١٠ ـ ١٢».

«وكان في تلك الأيام أن الفلسطينيين جمعوا جيوشهم لكي يحاربوا اسرائيل. فقال أخيش لداود: اعلم يقيناً أنك ستخرج في الجيش أنت ورجالك. فقال داود لأخيش: وأنت ستعلم ما يفعل عبدك. فقال أخيش لداود: لذلك سأجعلك حارساً لرأسي كل الأيام. سم١ ٢٨: ١».

«فقال رؤساء الفلسطينيين: ما هؤلاء العبرانيون؟. فقال أخيش لرؤساء الفلسطينيين: أليس هذا داود عبد شاول، ملك اسرائيل، الذي كان معي كل هذه الأيام وهذه السنين، ولم أجد فيه شيئاً من يوم نزوله الى هذا اليوم؟. فقال له رؤساء الفلسطينيين: ارجع الرجل الى موضعه الذي عيّنت له، ولا ينزل معنا الى الحرب، ولا يكون لنا عدواً في الحرب.. فدعا أخيش داود وقال له: خروجك ودخولك معي في الجيش صالح في عيني لأني لم أجد فيك شرّاً من يوم جئت إليّ الى هذا اليوم، وأما في أعين الاقطاب فلست بصالح. فالآن إرجع. فقال داود لأخيش: فماذا عملتُ؟. وماذا وجدتَ في عبدك من يوم صرتُ أمامك الى اليوم، حتى لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك؟. سم١ ٢٩: ٣ ـ ٨».

وهكذا كان داود مثال الصعلوك في علاقته مع الفلسطينيين. فالصعلوك كما عرفنا من أخبار العربية الشمالية قبل الاسلام هو الرجل المطرود من قبيلته لسبب أو لغيره. فاذا التجأ الى قبيلة أخرى، واحتضنته القبيلة بعامل المروءة العربية المشهورة، أصبح كواحد منها، له ما لأفرادها وعليه ما عليهم. فتسري عليه قوانينهم، ويأخذ بأعرافهم وتقاليدهم، ويتجاوب مع سلوكهم وأخلاقهم. يحارب من يحاربون أو يعادي من يعادون. وهكذا كان داود طوال مدة اقامته في بلاد الفلسطينيين، والتي جاوزت سنة وأربعة أشهر، مثال الصعلوك في علاقته مع الفلسطينيين، الذين آووه في هربه من وجه شاول، وأسبغوا عليه وعلى رجاله الحماية. وفي طلبه مكاناً يسكن فيه وتحديد المكان «في احدى قرى الحقل» تعبير صادق عن مشاعر الصعلوك الذي يرى أن في بعده عن مدينة المملكة خيراً له ولساكنيها، ويردف تبريره بسؤال نستشف منه روح المسكنة والاتضاع من عبد مطارَد أمام سيد ملك: «ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة؟».

وكان داود في بلاد الفلسطينيين مثال الصعلوك في سلوكه ومواقفه. فهو يغزو ويأتي بغنائمه الى سيده. يقول المحرر «وهكذا عادته كل أيام اقامته في بلاد الفلسطينيين» يقوم بالغزو «ويأخذ الغنم والبقر والجمال والثياب ويرجع الى أخيش».

ولعل أهم دليل على مثاليته في الصعلكة هو قيامه بغزو «جنوبي يهوذا». فهو يريد أن يُشعر سيده وحاميه أخيش بأنه انخلع نهائياً من قبيلته يهوذا، فهو يعاديها ويغزوها، لأن قبيلته الجديدة (الفلسطينيين) تعادي يهوذا وتغزوها. وقد كان هذا الموقف المثالي في صعلكة داود دافعاً لأن «يصدق أخيش داود قائلاً: قد صار مكروهاً لدى شعبه اسرائيل، فيكون لي عبداً الى الأبد».

وزاد في تأكيد سلوكه المثالي في حركة الصعلكة، عزمه على الانخراط في جيش الفلسطينيين الزاحف لمحاربة اسرائيل. فحين قال له أخيش: «إنك ستخرج معي» أجاب داود «وأنت ستعلم ما يفعل عبدك». وهذا الموقف المثالي زاد من ثقة أخيش به فقال له «لذلك أجعلك حارساً لرأسي كل الأيام». فغزوه ليهوذا، وعزمه على الانتظام في جيش الفلسطينيين لمحاربة اسرائيل، دفع أخيش الى زرع الثقة العمياء في شخصية هذا الصعلوك، فائتمنه على رأسه «كل الأيام». يضاف الى ذلك أن شعور أخيش بصدق داود وباخلاصه ووفائه، حدا به الى مجابهة أقطاب الفلسطينيين الذين شكّوا بداود وباخلاصه، قائلاً لهم: «لم أجد فيه شيئاً من يوم نزوله الى هذا اليوم».

أما داود الذي أحسّ بأن ايهام الملك أخيش بمثاليته في الصعلكة، قد فعل فعله في نفس أخيش، فراح يؤكد هذا الايهام بموقف المجروح الكرامة الذي اصطنعه. فحين وجّه أقطاب الفلسطينيين سهام الشك الى صدقه واخلاصه، انبرى كالمطعون في (موقفه النبيل) مدافعاً عن نفسه: «وماذا عملت؟. وماذا وجدت في عبدك من يوم صرت إليك الى اليوم؟.» ويعمل على تعميق الايمان في صدر أخيش بمثاليته في الصعلكة، بموقف المنخلع نهائياً من قبيلته (اسرائيل)، والملتصق الى النهاية بقبيلته الجديدة (الفلسطينيين). فيقول لأخيش: «ولماذا لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك؟.» وهل أعداء سيده الملك غير اسرائيل قبيلة داود قبل أن يخلع منها ويطرد؟.

كانت مصلحة داود تتطلّب منه هذه المواقف وأشكال السلوك التي تؤكد

كلها مثاليته في حركة الصعلكة. فقد كان يصبو الى ملك كالكثيرين من قادة المرتزقة في تلك الأيام. وكان مدركاً، منذ أيام خدمته لشاول، أن قبائل الجنوب ـ يهوذا ليست راضية عن شاول البنياميني ملكاً عليها. فراح يؤرث في الصدور نيران الثورة على شاول، ويعمل على استمالة هذه القبائل. وعلى كسب ودّ الفلسطينيين، لايهامهم بمثاليته في الصعلكة. ومثل هذه الأعمال يصح في القادة المرتزقة. فحين «حارب الفلسطينيون اسرائيل، هرب رجال اسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع، وقتل شاول وأولاده الثلاثة. سم١ ٣١: ١ ـ ٦». فرأى داود أن مصلحته تقضي بخلع نفسه من قبيلته الجديدة (الفلسطينيين)، والعودة الى قبيلته السابقة (يهوذا)، لأن خصمه مات، وعليه أن يعمل بجد وسرعة للوصول الى كرسي الملك بعده. وهكذا تمرّد داود في حبرون فور وصول خبر مقتل شاول. وتمرّده لا يعدو أن يكون بمساعدة الفلسطينيين، مما يسهّل عليهم تثبيت السيطرة على الخط التجاري، وتعطيل الأمر على منافسيهم الصوريين.

وكان من السهل أن يملك داود في قبائل الجنوب، بمساعدة الفلسطينيين، بعد أن تأكد لهم أن تمليكه في الجنوب يضعف شاول الموالي لصور. وهكذا انقسمت القبيلة الاسرائيلية، بعد مقتل شاول، الى فخذين: يهوذا، ملك عليه داود. واسرائيل، ملك عليه ايشبوشت بن شاول. «وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود. سم٢ ٣: ١».

وقد عمل داود بدهائه ومكره على تصفية المنازع الأول لملكه، ايشبوشت بن شاول. فقد «كان لابن شاول رجلان رئيسا غزاة» (مرتزقة). استمالهما داود، فخانا سيدهما ايشبوشت ودخلا الى مضجعه، «فقتلاه وحملا رأسه الى داود في حبرون». ولكن داود، دفعاً للتهم بأنه يحارب من ينازعه الملك، وطمعاً في كسب عطف اتباع شاول وولائهم، وببعد نظره، أظهر حزنه وأسفه على ايشبوشت، وحكم على قتلته بالاعدام ليتنصّل من الجريمة. «فأمر الغلمان فقتلوهما. سم٢ ٤».

وبعد مقتل ايشبوشت انضم الفخذان، يهوذا واسرائيل، بعد سبع سنين من الصراع، وملك عليهما داود.

وعندما اشتهر داود، رأى ملك صور، أب بعل، أن يستعين به في تأمين

طريق صور التجارية الى البحر الأحمر. فقد كان أب بعل (٩٨٠ ـ ٩٦٩ ق.م.) يسعى الى تركيز قدرة كنعان التجارية والحضارية في العالم. وكان الأصل في التجارة الكنعانية أن تذهب الى البحر الأحمر عن طريق مصر. بيد أن مصر كانت في حالة من الفوضى في ذلك الوقت. ولعل عقبات أخرى حالت دون مرور التجارة الكنعانية في تلك الطريق. وفي كنعان الجنوبية ـ الدرب الأخرى الى البحر الأحمر، كثير من الغزاة وقطّاع الطرق. وكان الصوريون قد استنكفوا عن استعمال هذه الدرب التجارية بعد انتشار عصابات الصعاليك والمرتزقة في منطقة التلال التي استوطنتها القبائل العبرية. فرأى أب بعل أن يستأجر «رئيس غزاة» ليحمي قوافله، فاستدرج شاول. وعندما ملك أحيرام الأول (٩٦٩ ـ ٩٣٥ ق.م.) على صور بعد موت أبيه أب بعل، استدرج داود.

بقي «ملك الملوك»، «مسيح الرب» داود الصعلوك، عميلاً لملك صور، وملكاً على قبيلتي اسرائيل ويهوذا، الى أن فتن عليه صعلوك آخر ـ ابنه ابشالوم الذي «اتخذ مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرون أمامه.. واسترق قلوب رجال اسرائيل.. وأرسل جواسيس في جميع أسباط اسرائيل قائلاً: اذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك ابشالوم في حبرون. وانطلق مع ابشالوم مائتا رجل.. وكانت الفتنة شديدة. وكان الشعب لا يزال يتزايد مع ابشالوم. سم٢ ١٥».

وتناهت أخبار الفتنة الى مسيح الرب، وأدرك أنه لا قبل له بالمتذمّرين منه والمتمردين عليه. ويبدو أنه شعر بالرعب يسري في أوصاله عندما تذكر ما كان يمارسه هو من أعمال القساوة والضراوة، وما يأتيه من ضروب التنكيل بالمهزومين من خصومه وأعدائه. وأدرك بالحدس ان ابنه ناهج نهجه، ولن يكون أعفّ منه. فأيقن أن السلامة في الهرب. «فقال داود لجميع عبيده الذين معه: قوموا بنا نهرب لأنه ليس نجاة من وجه ابشالوم. اسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا ويُنزل بنا الشرّ، ويضرب المدينة بحدّ السيف».

«وقيل لداود إن اخيتوفل (مشير داود) بين الفاتنين مع ابشالوم. سم١ ١٥».

«وصعد داود في جبل الزيتون باكياً، ورأسه مغطّى، ويمشي حافياً. وجميع الشعب الذين معه، غطّوا كل واحد رأسه وهم يبكون. سم٢ ١٥».

وراح الملك داود المتخفّي في رأس الجبل، يرسل الجواسيس مستقّطاً اخبار ابنه الذي فتن عليه وملك في حياته. وجاءه من يقول «هوذا ابشالوم مقيم

في أورشليم لأنه قال: اليوم يردّ لي بيت اسرائيل مملكة أبي. سم٢ ١٦: ٣».

«ولما جاء الملك داود الى بحوريم اذا برجل خارج من هناك، من عشيرة بيت شاول، يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة.. ويقول في سبّه: اخرج يا رجل الدماء، قد ردّ الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضاً عنه. ودفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك، وها أنت واقع بشرّك لأنك رجل دماء. سم٢ ١٦: ٥ ـ ٨». (تأمل: رجل فرد يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة. وتأمل: رجل واحد يسبّ ملك الملوك ونبي الانبياء، ومسيح الرب قائلاً: اخرج يا رجل الدماء).

ونصح أخيتوفل لابشالوم أن يصطنع الحزم ويبدي قوة العزم، ويسلك مسلكاً يقنع الخائفين والمترددين بأنه قد أحرق سفنه وراءه وقطع كل صلة له بأبيه. واختار له أن يدخل على سراري أبيه ويستبيحهن لنفسه في وضح النهار. فحين «قال ابشالوم لأخيتوفل: اعطوا مشورة. ماذا نفعل؟. قال أخيتوفل لابشالوم: ادخل الى سراري أبيك، فيسمع كل اسرائيل أنك قد صرت مكروهاً من أبيك، فتشدّد أيدي جميع الذين معك. فنصبوا لابشالوم الخيمة على السطح، ودخل ابشالوم الى سراري أبيه أمام جميع اسرائيل. وكانت مشورة أخيتوفل في تلك الأيام كمن يسأل بكلام الرب. سفر سموئيل الثاني ١٦».

هذا ما فعله ابشالوم بزوجات أبيه الذي كان «مختبئاً في احدى الحفر. سم٢ ١٧: ٩». وأخيراً بعد سلسلة من أعمال الجاسوسية، شبّ قتال بين اتباع داود واتباع ابنه ابشالوم، «فانكسر شعب اسرائيل أمام عبيد داود، وقتل ابشالوم. وهرب كل اسرائيل، كل واحد الى خيمته. سم٢ ١٨: ١٧».

وعلى اثر تمرّد ابشالوم، ووصوله الى (بلاط) أبيه، الهارب من وجهه، ومضاجعته لسراري أبيه. فقد داود ثقته بأولاده، ووعد زوجته الكنعانية بتشبع بأن يورث ابنها سليمان العرش من بعده.

وهنا أرى من الضروري الاشارة الى قصة داود مع بتشبع الكنعانية. ففي إحدى الأمسيات صعد داود الى سطح داره وجعل يسرّح بصره في بيوت جيرانه. فآنس عن كثب منه امرأة تستحم في دارها، فأحدّ النظر إليها فاذا هي شابة ممشوقة، أسرى منظرها الدم ساخناً في شرايينه. فأرسل يستقدم بعض

خبرائه سائلاً عنها وعن أخبارها. والقصة كما لخّصها محرر التوراة «كان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشّى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة. فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت ايل عم، امرأة أوريا الحثّي. فأرسل داود رسلاً وأخذها. فدخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهّرة من طمثها. ثم رجعت الى بيتها. سفر سموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ٤».

فـ «ملك الملوك» «مسيح الرب» داود النبي لم يضيّع لحظة من وقته الثمين في التودّد الى المرأة التي شهقت إليها نفسه، ولم يرَ أن يجلس إليها ساعة في ضوء القمر يبثّها لواعج حبه وهيامه. بل بادر بارسال زبانيته يجلبونها إليه كأنما هي بغي محترفة. وما لبث أن مال بها الى مخدعه ليطفىء فيها لظى شبقه. فلما قضى منها وطراً أعادها الى بيتها.

«رجعت الى بيتها، وحبلت المرأة. فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى. سم٢ ١١: ٥».

الفصل قصير ولكن المشهد مثير. أرأيت الى الالفاظ كيف تؤدي دورها بدقة في التعبير عن المشاهد المتتابعة في ترابط محكم ترابط السبب بالنتيجة: رأى المرأة تستحم. كانت جميلة جداً. أرسل في طلبها. دخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهّرة من طمثها، فحبلت.

لم يدر بخلد داود أن يصطنع وسيلة تعصمها من الحبل، مثلما فعل أونان بن يهوذا بن يعقوب، «فحين مات عير بكر يهوذا، قال يهوذا لأخيه أونان: ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك. فعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذ دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكي لا يعطي نسلاً لأخيه. سفر التكوين ٣٨».

ليت داود «أفسد على الأرض» كما فعل أونان. فبعدما أطفأ في المرأة «الجميلة جداً» لظى شبقه، أرسل في طلب الزوج المثلوم العرض من ساحة المعركة، على تقدير أن يبيت في بيته ويضاجع امرأته، فينسب الطفل الذي حملت به بتشبع لأوريا، وليس لداود.

ولكن أوريا لم يبت في بيته، وبالتالي لم يعاشر زوجته. لقد عزّ عليه أن ينعم بالعطلة الممنوحة له، وأن يستمتع بمعاشرة زوجته الفاتنة، بينما يعاشر

اخوانه الموت في ساحة المعركة. «فنام على باب بيت الملك. سم٢ ١١ : ٩».
وفي الصباح سأله داود: «لماذا لم تنزل الى بيتك؟». فأجاب أوريا بشهامة واباء ومروءة، قلّ أن تجد نظيراً لها. «إن التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام.. وأنا آتي الى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتي. وحياتك لا أفعل هذا الأمر. سفر سموئيل الثاني ١١: ١١».

أما داود فلم ينبض في صدره عرق بمثل ما خالج أوريا من أحاسيس انسانية ومشاعر نبيلة. وبالعكس. كانت (شهامة) هذا المسيح الذي «انتخبه الرب لنفسه حسب قلبه سم١ ١٣ : ١٤»، أنه «كتب في الصباح الى يوآب (القائد) يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وأرسل المكتوب بيد أوريا. سفر سموئيل التاني ١١ : ١٤».

وهكذا «مات أوريا الحثي». «فأرسل داود الى امرأة أوريا، وضمّها الى بيته، فصارت» واحدة من محظياته. سم٢ ١١ : ٢٦.

أعتقد أن التاريخ لم يسجل قصة حبكت أحداثها أحط أنواع المخادعة الغادرة وأبشع ألوان القسوة البالغة، كقصة «ملك الملوك» «مسيح الرب» داود النبي. وليس من قصة كان بطلها الشخصية النموذج في ممارسة الشهوة البهيمية، وفي العري النفسي الرهيب من أية مشاعر انسانية، كهذه القصة. فداود يسطو على زوجة أحد جنوده أثناء غيابه في ساحة المعركة يحامي عن داود ومملكة داود. ثم يتآمر هذا الملك النبي على حياة الجندي ليخلو له الجو، فيتزوج المرأة الجميلة التي زنا بها.

ولعل حبكة المؤامرة من أشرس وأقذر الوسائل التي عرفها التاريخ في الوصول الى الغاية. فداود ـ النموذج الفريد في الغدر والعدوان والقسوة والخداع، حمّل أوريا الحثي ـ النموذج الكنعاني الفريد في الشهامة والترفّع والاخلاص والاحساس بالواجب والشعور بمشاركة الآخرين، حمّله كتاب موته. رفض أوريا أن يعاشر زوجته. وعاد الى الجبهة ليعاشر الموت دفاعاً عن داود. ولم يكن يدري أنه يحمل بيده كتاب موته في أقذر عملية غدر وخداع حفظها بين دفتيه كتاب مقدس أو غير مقدس.

ولعل هذا الفصل الذي قام «ملك الملوك» «مسيح الرب» داود النبي، بدور البطولة فيه، هو من أقذر فصول الغدر التي مثّلها آباء، أنبياء، حكماء، وقضاة

بني اسرائيل، بين دفتي هذا الكتاب المقدس.

المهم أن داود، حين فقد ثقته بأولاده اثر تمرّد ابشالوم ومضاجعته لسراري أبيه، وعد زوجته الكنعانية بتشبع بأن يورث ابنها سليمان العرش من بعده. ولما علم أولاده بالأمر عمدوا الى التآمر عليه، خاصة أدونيا. وانقسم رجال بيته الى حزبين: واحد يؤيد الابن الأكبر لداود أدونيا، وينادي بحقه في خلافة أبيه. وآخر يناصر الابن العاشر، سليمان بتأثير المساعي التي بذلتها أمه الكنعانية الجميلة بتشبع. عندها جزعت بتشبع وخافت من أن يفاجيء الموت داود، فيستولي أدونيا على العرش. فتقدمت برفقة ناثان النبي تطالب زوجها بتنصيب سليمان على العرش في حياة أبيه تحقيقاً لوعده لها. وقد استطاعت أن تقنع داود بالتخلّي عن العرش لصالح سليمان، وهو بعد في الثانية عشرة من عمره. فلبّى داود طلبها وتنازل عن العرش لسليمان. «فنزل صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو والجلاّدون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود وذهبوا به الى جيحون. فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان، وضربوا بالبوق، وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان. سفر الملوك الأول ١: ٣٨».

ولما حضر الموت داود نادى سليمان وأوصاه بأن يقسو على خصومه ولا يرحم منهم أحداً، وأمره بأن يقتل قائده المظفر يوآب. ويوآب هو في ما علمنا:

- الذي فتك بابشالوم الابن العاق لداود.
- الذي أنفذ أمر داود بقتل أوريا الحثي زوج بتشبع.
- الذي صرع ابنير ليمكّن داود من مليكه ايشبوشت بن شاول.
- الذي صرع عماسا القائد السابق لجيش ابشالوم.

الذي أيّد أدونيا على سليمان عندما تنازعا تاج الملك.

وداود أمر سليمان بأن يقتل كذلك شمعي، وكان قد أظهر الشماتة بداود يوم فرّ هارباً من وجه ابنه ابشالوم. قال داود «وهو لعنني لعنة شديدة.. والآن احدر شيبته بالدم الى الهاوية. مل١ ٢: ٩».

وقد نفّذ سليمان أوامر أبيه، فبطش أولاً بأخيه أدونيا إذ «أرسل بيد بناياهو فبطش بأدونيا فمات مل١ ٢: ٢٥». وعلم يوآب أنه قد حان حينه فتحرّم بخيمة الرب. يقول المحرر «فهرب يوآب الى خيمة الرب وتمسّك بقرون المذبح. مل١

٢ : ٢٨». ولكن ذلك لم يغن عنه شيئاً فقد أمر سليمان بانتهاك حرمة الخيمة وسفك دمه. «فصعد بناياهو وبطش به. مل١ ٢: ٣٤». وأمر سليمان بقتل شمعي أيضاً «فخرج بناياهو وبطش به. مل١ ٢: ٤٦».

وعن حياة سليمان الخاصة يقول محرر التوراة «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة: مؤابيات وعمّونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم يهوه (الرب) لبني اسرائيل لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون اليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. وكان لسليمان سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. . فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. . وبنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين. . ولمولك رجس بني عمون. سفر الملوك الأول ١١ : ١ ـ ٧».

وسليمان لم يكن، وهو في أوج مجده، إلا ملكاً صغيراً، تابعاً. وحارساً لدرب تجارية عظيمة. ومملكتة عبارة عن امارة صغيرة في أقل من عشرة أميال مربعة. مملكة من خمسين مملكة كانت قائمة يومذاك في فلسطين.

عاشت مملكته عشرين عاماً يمزقها القلق وينخر فيها سوس الاضطراب. ثم غادرها مثقلة بالديون، تاركاً أتباعاً التحفوا ثوب الذل والاستكانة، فتقرّبوا لأصحاب الأرض ولمعبوداتهم. واتخذوا من روابط المصاهرة درعاً يقيهم خطر الطرد. وراح أبناء سليمان ومواليه يتنازعون الملك، فكان الكيد والدسيسة سلاح بعضهم وكان الغدر والبطش سلاح البعض الآخر.

* * *

وبعد، يبدو أن المؤرخ كمال الصليبي قرأ التوراة كما يقرأها ما يزيد على ألف مليون مؤمن، بذهن مغفّل وعقل معطّل، ولذلك لم يلاحظ أن شاول «كان يضرب في الأرض» بحثاً عن أتن أبيه التي شردت وضلّت الطريق، حين التقاه سموئيل الكاهن ومسحه ملكاً على اسرائيل. ويبدو أن شاول لم يصدّق نفسه أنه أصبح ملكاً بالدهن الذي سكبه سموئيل على رأسه، وبالتتويج الذي جلّله به في ما كان يبحث عن أتن أبيه الضائعة، ولذلك «لم يخبر أهله بأمر المملكة الذي تكلم به سموئيل. سم١ ١٠ : ١٦». وحين اجتمع الشعب برئاسة سموئيل لمسح شاول ملكاً على اسرائيل، لم يهتم شاول لكل ما يفعله سموئيل، ولم يقتنع بهذه

المسرحية التي أعدّها وأخرجها سموئيل، «فاختبأ بين الأمتعة» في ما كان الشعب ينشطون للاعداد لحفل التتويج.

وشاول الملك (تأمل الملك) «كان آتياً وراء البقر من الحقل» حين التقاه رسل يابيش وهم يبكون.

وشاول الملك عاش بعدما ضرب له سموئيل الكاهن ظهر المجن، نهباً للمخاوف، يقضّ مضجعه شبح صهره الصعلوك داود. وقد عبّر عن الهواجس والمخاوف التي تسكنه في توبيخه لابنه يوناثان الذي مال الى داود في مواجهته مع أبيه: «يا ابن المتعوّجة المتمرّدة، أما علمت أنك قد اخترت ابن يسّى لخزيك وخزي عورة أمك؟. لأنه ما دام ابن يسّى حيّاً على الأرض، لا تثبت أنت ولا مملكتك. سم١ ٢٠: ٣٠».

وشاول في صراعه مع الفلسطينيين ـ أصحاب الأرض، «عدّ الشعب الموجود معه فبلغ نحو ست مائة رجل. سم١ ١٣: ١٥». (تأمل الشعب ست مائة رجل). وحين تقدّم الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل دبّ الرعب في أوصال الاسرائيليين، «واختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار. وبعض العبرانيين عبروا الاردن.. وكل الشعب ارتعد وراء شاول. سم١ ١٣: ٥». (تأمل اختبأ الشعب في المغاير و.. وكل الشعب ارتعد وراء شاول). «وتفرّق الشعب عن شاول سم١ ١٣: ٨».

وشاول في صراعه مع صهره الصعلوك داود، «دعا جميع الشعب للنزول الى قعيلة لمحاصرة داود. سم١ ٢٣: ٧». (تأمل جميع الشعب نزل الى قعيلة لمحاصرة داود).

وداود كان يرعى الغنم حين ذهب اليه سموئيل الكاهن ليمسحه ملكاً على اسرائيل. وهذا الراعي قتل الأسد والدبّ معاً كما يقول الراوي التوراتي. وتمكّن بحجر المقلاع (سلاح الرعاة) من قتل الجبّار الفلسطيني جليات. ونزل من الكوة هارباً من وجه شاول.

وفي هربه من وجه شاول «جاء الى الملك الفلسطيني أخيش، ملك جت». وحين عرفه الفلسطينيون «خاف جداً»، ولم يجد وسيلة يستنقذ بها حياته إلا أن يتجنّن عليهم، «فغيّر عقله في أعينهم، وتظاهر بالجنون بين أيديهم، وأخذ يخربش على مصاريع الباب، ويسيل ريقه على لحيته. فقال أخيش: هوذا ترون

الرجل مجنوناً. فلماذا تأتون به إليّ؟ ألعلي محتاج الى مجانين؟. سم١ ٢١: ١٠.

ومن جت (يافا) الفلسطينية هرب داود «ونجا الى مغارة عدلام. سم١ ٢٢: ١». وفي ما كان شاول «يطلب داود على صخور الوعول» دخل الى أحد الكهوف ليستريح في ما «كان داود ورجاله في مغابن الكهف». «فقام داود وقطع طرف جبة شاول» في ما كان شاول نائماً، وكان الشعب ـ ثلاثة آلاف رجل جميعهم غفاة حول ملكهم شاول. وراح داود يوبّخ ملك اسرائيل: «وراء مَن خرج ملك اسرائيل؟. وراء كلب ميت، وراء برغوت واحد. سم١ ٢٤: ١٤».

وحين أرسل داود غلمانه الى نابال طالباً اليه أداء الاتاوة، ردّ نابال بسؤال استنكاري: «من هو داود، ومن هو ابن يسّى؟. قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده. سم١ ٢٥: ١٠».

وداود «مسيح الرب» وملك الملوك، فتن عليه ابنه ابشالوم الذي «اتخذ مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرون أمامه. سم٢ ١٥». «فقال داود لجماعته: قوموا بنا نهرب من وجه ابشالوم.. فصعد داود في جبل الزيتون باكياً ورأسه مغطّى، يمشي حافياً وجميع الشعب الذين معه غطّوا كل واحد رأسه وهم يبكون. سم٢ ١٥».

قلت إن المؤرخ كمال الصليبي لم يلاحظ أو لم يتأمل في سير ملوك بني اسرائيل كما يسردها تاريخ بني اسرائيل ـ الوثيقة الوحيدة التي تتناول تاريخ أولئك الملوك. وإنما ألَف، أقول ألَف، لهم تاريخاً آخر جعل فيه «المملكة الاسرائيلية تبرز عند منحدرات عسير الساحلية في أيام شاول، وتتوسّع في أيام داود» الذي جاءت «قصته بما فيها من قتل وسفك دماء واغتيالات، يأخذ بعضها برقاب بعض، أشبه بتاريخ بعض الرؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك متمدن[١٤]». وجعل (الصليبي) المملكة «تصل ذروة قوتها وازدهارها في أيام سليمان» الذي «لم يكن، وهو في أوج مجده، إلا ملكاً صغيراً، تابعاً. وحارساً لدرب تجارية عظيمة[١٥]». ولم تكن مملكته إلا امارة صغيرة في أقل من عشرة أميال مربعة. مملكة من خمسين مملكة كانت قائمة يومذاك في فلسطين. وأراد (الصليبي) أن يكون لهذه المملكة «سيطرة سياسية» على غرب شبه الجزيرة العربية.

وبلغة الجبر التي انتهجها قال الصليبي:

ـ ليكن مملكة اسرائيلية.

ـ ولتبرز عند منحدرات عسير الساحلية في غرب شبه الجزيرة العربية، في أيام شاول.

ـ ولتتوسّع في أيام داود.

ـ ولتصل الى ذروة قوتها وازدهارها في أيام سليمان.

وليكن لها سيطرة سياسية على غرب شبه الجزيرة العربية.

الخلط بين المعتقدات الطبيعية
والديانات التاريخية

ذكرنا أن المؤرخ كمال الصليبي عمل في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، وبطريقة جبرية، على زرع اليهود، تاريخاً وديناً، في غرب شبه الجزيرة العربية. ففي مجال التاريخ يقول «وقد كان لبني اسرائيل بين القرن الحادي عشر والقرن السادس قبل الميلاد، ملك في بلاد السراة، أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير». ص ١٢ ويقول في موضع آخر من كتابه «ومسار تاريخ بني اسرائيل، كما روي في التوراة، كان في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر». ص ٢٧

وفي مجال الدين يقول «إن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية، بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن». ص ١١ وإن «الديانة اليهودية نشأت بين ظهرانيهم في غرب شبه الجزيرة العربية». ص ١١ ويقول في موضع آخر من كتابه «كانت أرض التوراة كلها في غرب شبه الجزيرة العربية، وذلك في منطقة بطول يصل الى حوالي ٦٠٠ كيلو متر، وبعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كيلو متر، تشتمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز». ص ٢٧ وفي الصفحة ذاتها يقول «فاليهودية لم تولد في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية». وفي الصفحة التالية (٢٨) يقول «إن التوراة اليهودية، أو ما يفضّل المسيحيون تسميته (العهد القديم) من الكتاب المقدس، هو سجل للتجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية».

وفي الصفحة عينها يعمل البروفسور المؤرخ على اطلاق أحكام عامة،

هذا لا يعني أن اليهود لم يكن لهم أي وجود في فلسطين أو في غيرها من البلدان خارج غرب شبه الجزيرة العربية في أيام التوراة، بل جلّ ما يعني هو أن التوراة العبرية ـ أو ما يفضل المسيحيون تسميته «العهد القديم» من الكتاب المقدّس ـ هي، بالدرجة الأولى، سجل للتجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية في زمن بني إسرائيل. وفي غياب السجلات الضرورية، لا بدَّ من اللجوء إلى التكهن بكيفية استقرار اليهودية منذ وقت مبكر في فلسطين. وهنا سأغامر بتفسير أقدمه.

بين الأديان المعروفة في قديم الشرق الأدنى، تقف اليهودية في فئة تضمها وحدها، إذ لم تجر أية محاولة ناجحة حقاً لتفسير أصولها من خلال الأديان العراقية أو الشامية أو المصرية القديمة، باستثناء ما جرى على مستوى الاستعارات الأسطورية (الميثولوجية) كما في قصة الطوفان[1]. وحتى في هذه الحالة، لا يمكن للمرء حقاً أن يقول أين ولدت أمثال هذه الأساطير ومن استعارها ممن أو أخذها عنه. وكما سيرى لاحقاً (أنظر الفصل ١٢)، فإنه يجب البحث عن الأصول الحقيقية لليهودية في ثنايا الاتجاه في منحى التوحيد في عسير القديمة، حيث تمّ الجمع في وقت ما بين عدد من آلهة الجبال (ومنهم يهوه وآلهة صبءوت وشلم و شدي وعليون، وهم في الترجمة العربية المعتمدة «الرب» و«اله الجنود» و«اله السلام» و«الله القدير» و«الله العلي»)، واعترف بهم كإله واحد أسمى. وربما حدث ذلك بالترافق مع قيام تآلف بين بعض القبائل المحلية. وبعد أن تبنى سكان محليون يسمون الاسرائيليين (والأصحّ بني اسرائيل) هذا التوحيد البدائي المولود في غرب شبه الجزيرة العربية، قام هؤلاء بتطويره، مرحلة بعد أخرى، إلى ديانة عميقة المضمون، لها كتبها المقدسة، وتشمل مفهوماً متطوراً للألوهية ومحتوى اجتماعياً وأخلاقياً مصقولاً إلى درجة رفيعة.

تنبهم في حذلقاتها السطحية وأساليبها الملتوية، كل معالم البحث العلمي الموضوعي. وتعبّر بالتالي عما يعانيه مطلقها من ضمور ثقافي ومن غيبة فهم. يقول «بين الاديان المعروفة في قديم الشرق الأدنى، تقف اليهودية في فئة تضمّها وحدها». ويضيف «يجب البحث عن الأصول الحقيقية لليهودية في ثنايا الاتجاه في منحى التوحيد في عسير القديمة، حيث تمّ الجمع في وقت ما بين عدد من آلهة الجبال (ومنهم يهوه وآلهة صب اوت وشلم وشدي وعليون. وهم في الترجمة العربية المعتمدة 'الرب' و 'إله الجنود' و 'إله السلام' و 'الله القدير' و 'الله العلي'. واعترف بهم كإله واحد أسمى». ويضيف أيضاً «وبعد أن تبنّى سكان محليون يسمون الاسرائيليين (والأصح بني اسرائيل) هذا التوحيد البدائي المولود في غرب شبه الجزيرة العربية، قام هؤلاء بتطويره، مرحلة بعد أخرى، الى ديانة عميقة المضمون، لها كتبها المقدسة، وتشمل مفهوماً متطوراً للألوهية ومحتوى اجتماعياً وأخلاقياً مصقولاً الى درجة رفيعة».

من الجلي لذوي البصائر المتيقّظة (وما أندرهم في هذا العصر) أن ما يزعمه حضرة المؤرخ البروفسور كمال الصليبي من «أديان في الشرق الأدنى القديم». وما يتمحّله من «جمع بين عدد من آلهة الجبال». وما يدّعيه لبني اسرائيل من «تبنّي التوحيد وتطويره الى ديانة عميقة المضمون»، يمثّل وصمة عيب في تاريخ البحث العلمي الموضوعي. ويشوّه تاريخ المعتقدات في هذه الأرض. ويعبّر بالتالي عن جهل وتخلّف المجتمعات التي راج فيها كتاب الصليبي بطبعاته الست (وغداً أو بعد غد قد يصل الكتاب الى طبعاته العشر والعشرين).

ولكي نعطي مزاعم الصليبي وتمحّلاته وادعاءاته قيمتها الحقيقية. وبالتالي نقف على مسألة الضمور في ثقافة المؤرخ، وغيبة الفهم لديه (على الأقل في الموضوع الذي يعالج)، نرى من الضروري العودة تكراراً الى القاء بقعة من الضوء على معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية. وعلى مسألة ولادة الديانة التاريخية الأولى ـ الموسوية. وبالتالي على الاسماء التي تعبّر عن الدرجة العالية التي بلغتها المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، في سلّم الأخلاق الرفيعة. وعن سموّ نظرتهم الى القوة العالية التي افترضوا وجودها، وآمنوا بقدرتها، وغرسوا أخلاقهم في جوهرها.

المعتقدات الغيبية لدى المجتمعات القديمة
في سوريا الطبيعية

ظل الانسان في أثناء المراحل الحجرية الأولى أسير المحيط المادي الذي عجز عن فهمه أو تفسيره، فعاش ظواهره الطبيعية منفعلاً بها، لا فاعلاً فيها. ووقف أمام القوى الطبيعية مشدوهاً وخائفاً، تستبد به الرهبة ويملك الوجل عليه لبّه. يعاني، وبأشكال متباينة، من الشعور بالقلق ازاء الطبيعة الصاخبة والحياة غير المستقرة. ويكابد الافتقار الى أسباب الأمن والطمأنينة وبالتالي الشعور بالأمان. ولكن الطبيعة الانسانية تحمل في طيّاتها بذور الوعي التي تتفتّح بنسب متفاوتة وفي حدود معيّنة بحسب الزمان والبيئة، ومحاولات التفسير والتعليل قديمة قدم الانسان. ومن الممكن القول إن بداية وعي الانسان مرتبطة باحساسه بالسؤال: لماذا، وكيف؟.

ويبدو أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية (البيئة) بدأ في وقت مبكّر جداً (الزمان)، بالقياس الى غيره في المجتمعات الأخرى، يتأمّل (تفتّح بذور الوعي) في الكون المحيط به، وفي الظواهر الطبيعية الفاعلة في بيئته ومحيطه، وما يعتورها من تغيّرات راتبة دورية وأخرى عنيفة فجائية. ولعل الشعور الأول الذي خالجه في مراحل وعيه الأولى هو شعوره بأنه متصل بالوجود وقائم فيه. وأن هذا الوجود لغة، ولكنها لغة غامضة ومعقّدة يصعب فهمها أو استبصار معمّاها. فالانطلاق الأزرق الرحب الذي يلفّ الكون بسعته وعلوه، يشرق من أفقه اللامتناهي كوكب الشمس حيناً، وآناً يبزغ القمر بوجهه النورانيّ وتسرح النجوم المتلألئة، ألقى في نفسه الرعب والرهبة بقوته وجلاله. أما العوارض الجوية التي يضطرب بها النظام العادي، كالبروق والرعود والصواعق والعواصف، والحوادث الأرضية المفاجئة كالطوفان والزلازل وغيرها، فكان تأثيرها في مشاعره كتأثير قرع الجرس في تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان. وهكذا شدهته القوى الطبيعية بظواهرها الخارقة بالنسبة إليه في مراحل وعيه المبكرة، وبدورها المهم في حياته. فاندمج في هذا الميدان المفتوح أمام الشعور بالاعجاب والخوف، متأمّلاً بحسّه الطبيعي وانفعاله الحي. يثير التأمّل في نفسه أسئلة بسيطة في وضعها، واضحة في ظهورها، ولكنها عميقة في مراميها وأبعادها.

أسئلة من مثل: من خلق الوجود؟ ومن نظّمه؟. من يحرّك قوى الطبيعة؟. وهل في الطبيعة قوى تسيّرها، أم أن القوى خارجة عنها؟. وأين تكمن هذه القوى؟.

ويوم لم تكن له الامكانات الذهنية القادرة على فهم العلل والأسباب. ولم يتوافر له من العلم ما يمكّنه من ربط العلة بالمعلول، على الرغم من ادراكه بالغريزة استحالة حدوث شيء من لا شيء. ولم يكن له في مراحل وعيه الأولى المعارف الضرورية والخبرات العقلية التي تؤهله لفهم قوانين الطبيعة. ولم تكن القدرة على التأمل الذهني أو التفكير العلمي قد استيقظت في نفسه. ولم يكن تفكيره في تحولات الطبيعة أو تعليل ظواهر الكون قد وصل به الى شعور مقنع مطمئن. ولم يكن وعيه للسببيات قد نضج في ذهنه، وبالتالي لم يرَ سبباً ظاهراً للحوادث التي تشدهه وتؤثر في حياته. فلذلك وغيره نسبها الى أسباب خفية ذوي قوات هائلة، أو كائنات موفورة الفطنة واسعة المقدرة. ومن الطبيعي أن عجزه عن تعليل الحوادث الطبيعية أو عدم قدرته على ادراك الأسباب أو الوقوف على المسبّبات، ساقه الى افتراض وجود قوى غيبية تقف وراء الحوادث الطبيعية التي عجز عن تفسيرها أو ادراك عللها، تسيطر عليها وتتحكّم بها. معتقداً أن تقلّب أو تشكّل المظاهر الطبيعية المختلفة إنما يُعزى الى تلك القوى. أو مفترضاً أن في الظاهرة الطبيعية وفي العنصر الطبيعي قوة عليا مدركة واعية تؤثر وتفعل. وهكذا راح يضع في مبدأ كل فعل فاعلاً، معتقداً أن لا شيء يقع في الكون من دقيق الحوادث أو جليلها إلاّ وللقوة العالية المطلقة فيه قضاء وتدبير. وحتى اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين) لا يزال بيننا من يعرض للأحداث السعيدة التي تتمخّض عنها نواميس الطبيعة، فيذكرها على أنها عناية إلهية ومرحمة سماوية.

والقوى الغيبيّة التي أحسّ بوجودها في ظواهر الطبيعة المختلفة، آمن بقدرتها وبفاعليتها في مقومات الطبيعة. فهي باعتباره تسيّر الطبيعة وتوجّه قدرها وتتحكّم بصيرورة العالم الأرضي وتجعله تابعاً لها ينفّذ الارادات الصادرة عنها ويسير بموجب الاحكام التي تقرّرها. ونسب الى كلٍّ منها جانباً واحداً أو أكثر من الجوانب المؤثرة في حياته. وأضفى عليها صفاته وأخلاقه. ولكنه ميّزها عن البشر بالخلود. واعتقد أن هذه القوى تستقر في السماء.

وعندما اندمج الانسان القديم في سوريا الطبيعية بالغيب، وتفاعل مع

الطبيعة في شبه تواجد حميم، تجلّت له عظمة الطبيعة في نظام عجيب خارق خاضع لقوى منظمة بواسطة توازن ظاهراتها (حركات الكواكب، ومدارات الفصول). تلك الظاهرات التي تمتاز بفاعليتها المعطاء (إخصاب اللقاح الانثوي، والحياة في نور الشمس وحرارتها). وتجلّت له أيضاً في هذا العلو الرهيب العميق الذي كان في كثير من الأحيان يفعل في نفسه ويستثير خوفه، فيغمره الاحساس بالجلال والعظمة، ويحيا حالة ذهنية فائقة الحساسية، فتتكشّف له السماء بعلوها الهائل وامتداداتها اللانهائية وسرّها العميق، في تجربة نفسية فريدة تكاد تكون رهيبة. تجربة المهابة والجلال، والقوة المستقرة الهادئة الكامنة في المهابة والجلال، والتي تظهر له كنظام، ومن ثم كأساس الحياة البيولوجية.

والى جانب ما أوحت به السماء إليه من إحساس بالرهبة والعظمة والجلال، وجد أن للسماء في هذه البقعة من الأرض سلطة تفرض نفسها عليه كما تفرضها على الطبيعة ومظاهرها. وهكذا اندمج مفهومه للقوة الجبّارة التي تدير شؤون الكون الانسانية والطبيعية بالعلو والسماء. وظلّت مشاعره مشدودة أبداً نحو الجلال والسلطة المطلقة اللذين توحي بهما السماء.

ومن الواضح أن اندماج فكرة هذه القوة بالعلو والسماء في الذهن المشرقي القديم، ذو دلالة عميقة على العلاقة المرهفة التي تربط الانسان بالوجود الكوني البعيد. هذه العلاقة التي تعبّر عن ذاتها بالمشاعر العلوية السامية المشدودة أبداً نحو المطلق الكوني. وهذا ما نراه عند سائر البشر، فان مسكن «الآلهة» بمفهومهم هو السماء، أي العلاء. والسماء مأخوذة من «سما» أي علا وارتفع. واسم السماء مرادف لاسم الإله في لغات العالم بغالبيتها. وإذا ما أراد الناس، بسطاء كانوا أم علماء، الاشارة الى اسم الإله رفعوا أيديهم الى السماء. ثم إن الصلوات الشعبية في العالم بمجملها موجّهة الى «أبينا الذي في السماء». والطريف أن صلوات الانسان المبكّرة كانت توجّه الى الأب السماوي ذاته. تقول صلاة افريقية قديمة «حيث تكون السماء يكون الإله أيضاً[١٦]». ومن هنا كان، ولم يزل، ارتباط مفهوم الألوهة بالعلو والسماء.

هذه القوة والسلطة المطلقتان اللتان توحي بهما السماء، أطلق عليهما السومريون في حوض النهرين الأدنى صفة «ان» ـ (السيد ـ السماء). وقد ظلت هذه الصفة بلفظها السومري «ان» على ألسن المجتمعات التي أخذت بمفهوم

«ان» ـ (السيد) ـ (الله) في سوريا الشرقية والشمالية والوسطى والجنوبية الشرقية. وعلى ألسن المجتمعات في العربيتين الشمالية والجنوبية اللتين ساد فيهما هذا المفهوم أيضاً. ولكنها كانت على ألسن الكنعانيين في سوريا الغربية «أون». وأطلق عليهما الأكاديون في البادية السورية، وهم في حالتهم الفطرية، قبل الأزمنة التاريخية، صفة العلو «علْ» ـ (العالي). وأطلق عليهما الأموريون صفة «ماردوك ـ (السيد العظيم). والاشوريون صفة «أشور» ـ (السيّد).

وبعد اختلاط الأكاديين بالسومريين، ووصول المجموعتين الى درجة الانصهار، أخذ الأكاديون عن السومريين الكثير من طرائق التفكير والتعبير. وفي اتخاذهم الخط السومري وسيلة للتعبير عن لسانهم فقدت الأكادية كثيراً من الأصوات الحلقية التي لا وجود لها في نطق السومريين. فحين لم يتمكّنوا من تدوين حرف العين مثلاً راحوا يكتبون هذا الحرف همزة من باب الضرورة. والكتابة تؤثر في النطق. يضاف الى ذلك أن السومريين الذين نزل بهم الأكاديون، ساعدوا بنطقهم، بالاضافة الى حروفهم، على تشويه الأكادية. ذلك أنهم كانوا عاجزين عن نطق بعض الحروف ومنها العين، فكانوا يتلفّظون بالهمزة ما كان يعرض لهم من كلمات واسماء أكادية تشتمل على حرف العين. ولعلهم هم الذين ساعدوا على خلق نزعة إبدال العين بالهمزة في الالفاظ الأكادية.

وسقوط الحلقيات في الأكادية لا يخلو من التأثير في الحركات الخاصة بها، والتي تجاورها. فعندما تقوم الهمزة مثلاً مقام الحاء أو العين فان حركتها تتحوّل الى إمالة بعد أن كانت فتحة. من أمثلة ذلك edêšu عوضاً عن 'adašu من الأصل Ḥadašu (حدث). وهكذا يمكن اعتبار أصل كل همزة محرّكة بالامالة أو الكسرة، إحدى الحلقيات في الغالب. وعليه يمكن القول إن العين سقطت من اللفظ الاكادي «عَلْ» في البيئة السومرية، وقامت مقامها الهمزة، فأصبح 'al. واقتضى ذلك تحويل حركة الهمزة من الفتحة الى الامالة، فصار «EL»[١٧].

ويبدو من النصوص الميثولوجية التي وصلتنا من حوض النهرين، أن الانسان القديم في تلك المنطقة توصّل في محاولاته التفسيرية الى اعتقاد راسخ مفاده أن الكون والخليقة التي فيه من صنع قوة طبيعية، تجلّت بأقوى مظاهرها في زمن البدء، فأخرجت الكون من العماء، ونظّمته، ومن ثم أوجدت الانسان،

وساعدته من بعد على تفسير الكثير من أصول الموجودات، وقد عرفت تلك القوة الخلاقة لدى مختلف المجتمعات القديمة بصفات متعددة، أدى بعضها معنى «السيد» و«العالي» و«السيد العالي» أو «السيد العظيم».

والجدير بالانتباه إليه أن «السيد» أو «السيد العالي» أو «السيد العظيم» (الله بمفهومنا)، بقي في ذهن الانسان القديم في سوريا الطبيعية، بعد الانتهاء من عملية التكوين والخليقة وتنظيم الوجود، بقي بعيداً، وبعيداً جداً. فهو باعتبارهم «سيّد الأبدية» و «سيد المخلوقات» و «ملك السماء والأرض» و «الكلّي القدرة» و «الكلّي الحكمة» و «المدبّر للكون»[١٨]. وهو، لجلاله وعظمته وسموّه، بقي متعالياً وبعيداً، لا يرافق الانسان في اهتماماته اليومية، ولا يهتم بمشكلات البشر الحياتية بمعناها العادي والمعبّر. «إنه فوق، والانسان تحت. الله هو الله. والانسان هو الانسان»[١٩].

ومن هنا كان شعور الانسان القديم في هذه المنطقة من العالم بالحاجة الى قوة أو قوى أخرى «سيّدة» و «عالية» أيضاً. ولكنها تستمد سلطتها أو قوتها من القوة العليا المطلقة «ان» ـ (السيد) أو «ايل» ـ (العالي). تتقرّب من البشر بمحبة فتتنبّه الى ظروف حياتهم المادية والروحية، وتعمل على تخفيف الأعباء عنهم، ورفع سويتهم واعطائهم آمالاً جديدة لعالم أفضل على الأرض وما بعد الموت.

أما القوى العالية الأخرى فهم «بعل» أو «سيد» مدينة أو بيئة معيّنة مثل «بعل صور»، «بعل صيدون»، «بعل فغور»، «بعل طرسوس». و «أدون» ـ (السيد) و «ملقارت» ـ (ملك القرية ـ المدينة). أو صفات لقوى عالية مثل «نبو» ـ (المشرق) و «اشمون» ـ (السماء) و «يثع» ـ (المخلّص) و «العزيز» ـ (الجبار) و «كرب» ـ (المبارك).

وهم أيضاً قوى الطبيعة وفواعل الوجود مشخّصة: دموزي (تموز)، شمش، سن (القمر)، داجون، نهر، يم، موت، هدد.

وربما كان بعضهم أبطالاً أو تجسيداً اسطورياً لابطال قوميين، مثل كرت الصيدوني، وهرقتيل وايليسار الصوريين، ودانئيل الاوغاريتي، وهب ايل، وحمّ ون، وعم ون. فالبطولة شمول وعظمة. والبطل في نظر مقدّريه، إن لم نقل عابديه، هو رمز للقدرة الغلابة الفائقة. وكثيراً ما يبلغ تمجيد الابطال الدينيين أو الوطنيين، عن غير وعي، مرتبة التأليه، خاصة بعد موت البطل، لأن النفس

البشرية شديدة الميل الى تقديس الموتى.

وربما كانوا أجداد بيئة معيّنة، صنعوا خيراً في حياتهم. وبعد موتهم خلع عليهم الناس نعوتاً خارقة أو أضفوا عليهم صفات الاولياء والقديسين. وحين تعاظم قدرهم انثنى قومهم يطلبون شفاعتهم ورعايتهم لبعض الأمور الحياتية الغامضة، ولدرء الأخطار والمصاعب. وتيمّنوا باسمائهم. وقدّموا على أضرحتهم القرابين والنذور. وأخيراً جرى تأليههم في بيئتهم أو في بيئات أخرى. فـ «هرقئيل» مثلاً هو بطل صوري، ولكنه في بلاد الاغريق إله. يقول لوسيان السميساطي بعد ذكره معبد هرقئيل في صور «هو غير هرقليس اليونان، فهو أبعد منه في القدم وهو بطل من أبطال صور»[٢٠]. و «هب ايل» جد بيئة معيّنة في سوريا الجنوبية الشرقية، ولكنه في العربية الشمالية إله.

هذه القوى كانت بمثابة الفعل المسند الذي يلتزم بشيء. ولذلك فقد اندمجت بحياة الناس ومظاهر الطبيعة حولهم. وواكبت يوميات حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. فكان لكل بلدة «بعل» (سيد) أو «بعلة» (سيّدة)، تتيمّن باسمه أو باسمها، وتنظّم له أو لها طقوساً احتفالية دينية تتفق مع مشاعر الانسان وحاجاته الفردية والاجتماعية العامة، وترتبط بعواطفه وتطلعاته.

وفي مفهومه أن هذه القوى تقرّبت من الانسان في جميع الميادين. شعرت معه وعملت لمساعدته في حياته اليومية: بناء المسكن، تدجين الحيوان، أصول الزراعة والري والعمارة، استعمال الادوات المختلفة والمتعددة التي كان لها الأثر الكبير في رفع سويته المعاشية. استعمال الاعشاب للتداوي. وباختصار، عملت كل ما من شأنه تخفيف الاعباء عن الانسان. وكان لها الفضل في مساعدة الانسان على ايجاد طريقه وتأمين معيشته وسكنه وتأدية الاعمال الخيّرة بالنسبة له. وكانت في مشاركتها للانسان في العمل الحضاري: الزراعة وتدجين الحيوان والري والعمران، وفي رعايتها لحياته، قد مهّدت أمامه السبل الى الخير والرفاه.

وهذه القوى أو بعضها عاشت على الأرض. تقرّبت من الناس بغية تعليمهم أسس الحضارة. عاملتهم بمحبة، وسهّلت وسائل حياتهم، وكانت عوناً لهم. أو قل إنها سهرت على حياة الانسان بمختلف مرافقها، وغرست الأمل في نفسه. فشعر الانسان بقربها منه، وبمحبتها له أكثر مما شعر بمحبة الصانع الأول

رغم تقديسه لجلاله وعظمته ولجلالة وعظمة الأعمال التي قام بها هذا الصانع القادر.

وكثيراً ما كان الناس، وفي فترات كثيرة، ينسون الاله الخالق المطلق البعيد، ويتعاطفون مع القوى العالية القريبة. ولا تزال هذه الحالة متجذّرة في عواطف الناس حتى يومنا هذا: التقرّب من الانبياء، القديسين، الأولياء، في الديانتين المسيحية والمحمدية.

والجدير بالانتباه اليه أن القدماء في سوريا الطبيعية أطلقوا على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، وعلى القوى العالية القريبة، صفة «السيد»، أو صفة مرادفة لهذه الصفة. فالصفات: «ان» «شار» «رب» «بعل» «اون» «مار» «ذو» تعني «السيد». ومن الصفات المرادفة لصفة السيد نذكر مثلاً: «ملك» «ملقارت» ـ (ملك القرية ـ المدينة) «ماردوك» ـ (السيد العظيم) «يشع» ـ (المخلّص) «شيع القوم» ـ (مخلّص القوم) «عطرسم» ـ (مجد السماء) «العزيز» ـ (الجبّار) «نرجال» ـ (النور العظيم) و «ايل» ـ (العالي) التي تطورت صيغتها الى «الله» وأصبحت في الألف الأول ق.م. اسماً للقوة العالية[٢١].

والملاحظة التي تستوقف الباحث في حضارة المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، وفي معتقداتها، أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية وفي العربيتين الشمالية والجنوبية، أكدّ منذ عهد مبكّر في تاريخ نضجه الروحي والفكري على العلاقة الوطيدة بين مفهوم «السيد» «العالي» ـ (الله) وبين القيم الأخلاقية. أو قل إن هذا المفهوم توضّع في ذهنه مقروناً بالمثالية الخيرية للوجود، وبمفاهيم الحق والعدل والرعاية والحماية. وكانت النظرة العامة الى حكم «السيد» (الاله) تقوم على أساس أن «السيد» (الاله) يحمي ينقذ ينجّي يخلّص يحفظ يرعى يصون يمنح يهب ينعم ينير يشفق يعطف يرأف يلطف يرحم يبهج يسعد يسرّ يرضي يقوّي يعزّز يطهّر ينقّي يزوّد بوفرة يفيض يشفي يعضد يقي يضمن يعدل يصلح يقضي (بالعدل) يزيد ينمّي يؤازر يسند يدعم ينصر يؤيد يسامح يغفر يجمع يفضل يبارك.. وباختصار، يعنى بحماية العبد ورعايته.

وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الأخلاقي باطلاق الاسماء المعبّرة عنه على بنيهم وعلى مظاهر الطبيعة حولهم. والاسماء المعبّرة باعتبارهم هي الاسماء المركبة من صفة القوة العالية ومن الفعل الأخلاقي الذي أسندوه الى

القوة العالية. فـ «السيد» «العالي» المطلق، أو السيد العالي القريب، بمفهومهم أو باعتقادهم هو المنعم. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الأخلاقي باسماء مركبة من صفة القوة العالية ومن فعل العطاء أو الانعام. خذ مثلاً الفعل «اش» أو «أس» في اللغة السورية العربية الأم الذي يعني العطاء والانعام. ولا يزال في عربية اليوم «آس يؤسُهُم أوساً وإياساً: أعطاهم. والاوس العطية». هذا الفعل ذو المدلول الأخلاقي الرائع (أعطى إعطاء وانعم انعاماً) أضافوه الى «ان» - (السيد) و «ايل» - (العالي) - (المطلق، الله بمفهومنا) فكان لهم من الاسماء: اش ايل (ينعم ايل) أوس ان (ينعم ان). ويبدو أن صيغة «اش ايل» أكادية قديمة راجت في مجتمعات حوض النهرين، وعنهم اقتبسها الاغريق. فالمعروف أن بطل الياذة هوميروس هو «اش ايل» اشيل. أما صيغة «أوس ان» فقد راجت في سوريا الداخلية وخاصة في جنوبها الشرقي، وشعّت الى العربية الشمالية فالجنوبية. واسم «أوس ان» (أوسان) مشهور ومتداول كثيراً في العربيتين.

وعندما لحق الصفة «ايل» تطوّر في المبنى والمعنى (الألف الأول ق.م.) بفعل الزمان والبيئة واللسان، فتحوّلت الى «إله» فـ «الله» وأصبحت اسماً، أضافوا إليها أوس فكان لهم اسم أوس الله.

وكان من الطبيعي بفعل طبعيتهم الأخلاقية أن يضيفوا هذا الفعل ذا المدلول الأخلاقي الرائع (أعطى وأنعم) الى القوى العالية الأخرى التي تقرّبت من الانسان، أو قل إن الانسان شعر بقربها منه، فكانت، وما فتئت، تتفق مع مشاعره وحاجاته الفردية والاجتماعية العامة. وترتبط بعواطفه وتطلّعاته. فكان لهم من الاسماء: اش بعل. اش نن. اش عشترت. أوس رضى. أوس مناة. أوس اللات. أوس كرب. وما الى ذلك.

ومن الواضح أن مدلول «أوس ايل» و «أوس ان» في مفهومهم هو مدلول «ينعم الله» ذاته في مفهومنا، لأن «ان» و «ايل» في مفهومهم هو «الله» في مفهومنا. وقس على ذلك الاسماء جميعها المقترنة بـ «ان» أو «ايل» في مركب اسنادي أو اضافي. وكذلك الأمر في الاسماء المقترنة بالقوى العالية الأخرى.

و «السيد» «العالي» بمفهومهم أو باعتقادهم أيضاً هو المكافىء المعوّض. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الاخلاقي باطلاق الاسماء المعبّرة عنه على بنيهم أو على مظاهر الطبيعة حولهم. والاسماء المعبّرة باعتبارهم هي الاسماء

المركبة من صفة القوة العالية (الله) ومن الفعل «ارب» الذي يعني: يعوّض يكافىء. وهكذا شاع فيهم اسم «ارب ايل» ـ (يعوّض الله). ومدينة «ارب ايل» ـ (اربيل) في حزون بلاد النهرين الشمالية عريقة في التاريخ والحضارة. وقد أسندوا هذا الفعل الى القوى العالية الأخرى فكان لهم من الاسماء: ارب ان. انو ارب. نبو ارب. سن ارب. ارب ماردوك. ارب داجان. . وما الى ذلك. والجدير بالذكر أن عبارة «يعوّض الله» لا تزال على ألسنة العامة في سوريا الطبيعية.

وكانوا يعتقدون أيضاً أن كل ما في الكون والحياة هو بأمر، مشيئة، حكمة، ارادة القوة العالية (الله). وقد عبّروا عن هذا الاعتقاد باضافة الفعل «أمر» ـ (يشاء، يريد) الى القوة العالية، فكان لهم من الاسماء: أمر ايل. واسم «امر الله» ـ (حكم، مشيئة، ارادة الله) أصبح عبارة شائعة على ألسنة العامة في سوريا. وقد اسندوا هذا الفعل الى القوى العالية الأخرى فكان لهم من الاسماء: أمر اشور. أمر عشتار. يشع أمر. أمر شمش. أمر بعل. وما الى ذلك.

وباعتقادهم أيضاً وأيضاً أن الله ينير ويضيء. وقد عبّروا عن ايمانهم هذا باطلاق اسماء مركبة من «ايل» ومن الفعل «أور» ـ يضيء، فكان لهم من الاسماء: أور ايل (ايل يضيء أو ضياء الله).

وأن الله هو الذي يُسأل ويُرتجى ويُلتمس. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم باسماء ارش ايل (أسأل ايل. رجاء ايل. ملتمس من ايل). وأسندوا هذا الفعل أيضاً الى القوى العالية الأخرى فكان لهم من الاسماء: نبو ارش. هدد ارش. ماردوك ارش. شمش ارش. سن ارش. أرش ماردوك. ارش ان. . وما الى ذلك.

وأن الله هو الذي يرعى بني الانسان ويتعهّد أمورهم، فكان لهم من الاسماء: أمن ايل (يرعى ايل. يتعهّد ايل).

وأن الله يعطي أو هو المعطي: ايل ادّن (الله يعطي). ومن الاسماء التي يدخل في تركيبها صفات القوى العالية الأخرى: انو ادّن. نبو إدّن. ادّن اشور. ادّن ماردوك. ادّن داجان. بعل ادّن. ادّن عشتار. . وما الى ذلك.

وأن الله يحمي أو هو الحامي: أري ايل (اريئيل) (يحمي الله).

وأن الله هو الذي يُنبت الكلأ وينضّر الأرض. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم باسم: أب ايل (الله يخضّر. الله ينضّر). والجدير بالذكر أن الفعل أب (يخضّر، ينضّر، ينبت الكلأ) هجاء واحد (فتح فسكون)، وهو آخر ما تكون عليه اللفظة. وهذا يدل على قدمها كما يقول اللغوي الكبير الأب انستاس ماري الكرملي، مستشهداً بقول ثعلب: «الاب كل ما أخرجت الأرض من النبات». ويعني أيضاً أنها من اللغة السورية العربية الأم، وهي شائعة في الالسن الأخرى من مثل الكنعاني والبابلي والأرامي. ومن الاسماء الأخرى المركبة من هذا الفعل ومن صفات القوى العالية: أب بعل. ماردوك أب. أب ان.

وأن الله هو المنجّي (بلط ايل). وأن الله يحمي (بزر ايل). وأن الله يقوّي الانسان ويشدّد من عزائمه (جبرايل). وأن الله يرأف ويعطف (حنّ ايل). وأن الله يحمي ويصون (حصر ايل). وأن الله يقضي في كل شيء. وهو القاضي، وسيّد القضاء (دان ايل). وأن الله يشفي (رفأ ايل). وأن الله يسند ويساعد (سعد ايل). وأن الله يسلّم ويحفظ (سلم ايل). وأن الله يشدّ الأزر ويقوّي العزائم (شدّ ايل. ايل شدّاي. شد ملقارت). وأن الله يساعد ويعين (عزرايل). وأن الله يقوّي ويعزّز (عصم ايل. عصم ان). وأن الله يعطي (نتن ايل). وأن الله يعطي ويهب (هب ايل. وهب ان. وهب الله. وهب يثع). وأن.. وأن..

الديانة التاريخية الأولى

تبيّن لنا في ما تقدم أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية آمن بقيمة مطلقة، قدرة روحية، تعلو على الانسان. أعطاها صفة وليس اسماً. وأن الصفة «العالي» التي أطلقها الأكاديون في البادية السورية على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، تطوّرت صيغتها على ألسنة مجتمعات هذه الأرض الى «ايل ـ إله ـ الله». وتحوّلت في الألف الأول ق.م. في مفهوم مجتمعات سوريا الوسطى والجنوبية الشرقية، الى اسم.

يبدو أن موسى وعى هذا المفهوم ـ الصفة ـ الاسم (إله) في أرض مديان. وتوضّح في ذهنه مفهوم أن لكل جماعة من البشر (في عصره) إلهاً. وأن هذا الاله يسير على رأس الجماعة يرعاها ويحميها وينصرها، ويملّكها الأرض أيضاً.

عاد موسى الى مصر وراح يعمل بجهد لا يستكين على استمالة بني

اسرائيل المستعبدين (على رواية التوراة)، دافقاً في وجوههم الوعود بالتحرير من المعاناة التي يكابدون. مشيعاً بينهم أن في السماء إلهاً أقوى من إله المصريين. وأن هذا الاله سوف يخلّص بني اسرائيل من حياة الذل والعبودية «ويصعدهم من أرض مصر الى أرض جيدة وواسعة. الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. الى مكان الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سفر الخروج ٣: ٨».

ففي واد من أودية سيناء المرتفعة، الغنية بمختلف أماكن العبادة، أوهم موسى أتباعه بأن رسالة جديدة جاءته من إلهه. وأن هذه الرسالة تنطوي على عقد حلف أو عهد معه. وكانت المادة الأولى في هذا العهد هي وعدهم بأرض كنعان ميراثاً أبدياً. يقول محرر التوراة «قال يهوه لموسى: إذهب واجمع شيوخ اسرائيل وقل لهم: يهوه إله آبائكم. إله ابراهيم واسحق ويعقوب ظهر لي قائلاً: إني قد افتقدتكم وما صنع بكم في مصر. فقلت أصعدكم من مذلة مصر الى أرض الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. سفر الخروج ٣: ١٦».

فأول ما فعله موسى هو أنه وضع على رأس جماعته إلهاً. وأراد لهذا الاله أن يملّك الجماعة (بني اسرائيل) أرضاً تفيض لبناً وعسلاً (فلسطين). فما هي الخطوط العامة التي صاغ أو شكّل بها صورة هذا الاله؟. وما هي مقاييس وأبعاد الاطار الذي حصر به هذه الصورة؟.

يبدو أن موسى أراد أو قرّر بداية أن يضع اسماً لهذا الاله الذي أعلن عن حضوره في الجماعة. وقد يكون أن شيوخ الجماعة هم الذين طلبوا الى موسى أن يعرّفهم باسم إله الآباء الذي «افتقدهم» بعد طول غياب، «فسمع أنينهم وتذكر ميثاقه مع ابراهيم واسحق ويعقوب. سفر الخروج ٢: ٢٤». فقرّر أن يصعدهم من «مذلة مصر» ويسير بهم «الى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين التي تفيض لبناً وعسلاً».

لعل الخاصة الأولى التي تميّز الموسوية هي أنها كدين وضعي أو تاريخي، مؤسسة دينية. ومن الطبيعي أن يعطي القائم على الأمر في هذه المؤسسة (موسى أو غيره) لنفسه حق الاتصال بالكائن المطلق، ويحصر بذاته أيضاً طريقة الاتصال به. ومن هذا المنطلق خاطب «موسى الرب قائلاً: ها أنا آتي الى بني اسرائيل

وأقول لهم: إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه؟. فماذا أقول لهم؟. فقال الرب لموسى: أهيه الذي أهيه. وقال: هكذا تقول لبني اسرائيل: أهيه أرسلني إليكم. وقال الرب أيضاً لموسى: هكذا تقول لبني اسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب، أرسلني إليكم. هذا اسمي الى الأبد. سفر الخروج ٣: ١٣ ـ ١٥».

لا يعنينا في مجال موضوعنا البحث في مدلول الصيغة التي وضعها موسى اسم علم لله. لأن موسى قصد من تركيب هذه الأحرف (أهيه. يهوه) أن يبقى مدلولها سرّاً مبهماً، لغزاً غامضاً، تحار فيه وتختلج له أفئدة أولئك البسطاء الذين ساقهم من مصر ليعمل منهم مجموعة قومية، يحقق بها طموحه وأهدافه. ولكن الملاحظ أن هذه الصيغة شغلت العلماء والمتعالمين على مدى ألفي سنة، بحثاً عن مدلولها أو عن الجذر الذي اشتقت منه، أو الأصل الذي تعود إليه. وقد اختلفوا في تفسيرها اختلافاً واسع المدى. فرأى بعضهم أن هذه الصيغة تعني «سأكون الذي سأكون» أو «أكون الذي أكون» أو «سأكون الذي وعدت أن أكونه».

ورأى آخرون أن الله ينسب الى نفسه صفة البقاء على ما هو عليه في أفكاره وقراراته ووعوده.

ورأى فريق ثالث أن «يهوه» صيغة مضارع الغائب من الفعل «هوى» ـ (كان). فيكون معنى يهوه «يكون». كما ان معنى أهيه «أكون». ويكون يهوه اسم الله حين يتحدث عنه غيره. كما أن أهيه اسم علم لله حين يتحدث هو عن نفسه[٢٢].

ورأى فريق رابع أن الجذر الذي اشتق منه الاسم يهوه، يبدو أنه «هوى» بمعنى سقط. فيكون معنى يهوه «المُسقِط» أي الذي يُسقط ببروقه ورعوده الأعداء الآثمين[٢٣].

ورأى فلهاوزن أن «يهوه» من «هوى» العربية التي منها الهواء. ومعناه «يسري في الأهوية، يهب». أي أنه إله العاصفة[٢٤].

ورأى روبرت جريفز أن هذا الاسم مبارك. «من المحرّم الافصاح عنه كتابة. ومكنون، لا يُنطق به إلا مرة واحدة في السنة، همساً، وعلى لسان الكاهن الأعلى لدى دخوله قدس الأقداس»[٢٥].

وأما محرّر التوراة فقد فسّر «أهيه الذي أهيه» في هامش الفصل الثالث من سفر الخروج بـ «أكون الذي أكون». وفسّر يهوه بقوله: «هو في العبرانية اسم علم للاله الحقيقي، معناه يكون. وقد ترجم بلفظة رب».

المهم أن هذا التفسيرات، ومثلها كثير، وُضعت في إطار التخريج والتأويل. وبقيت في حدود هذا الاطار. ثم زادها التلفيق جهالة وغموضاً.

قلت لا يعنينا في مجال موضوعنا البحث في مدلول الصيغة (يهوه) التي وضعها موسى اسم علم لله. ولن نبحث هنا في اسم يهوه ومعناه، أو في اشتقاق صيغة الاسم. وليس في همّنا أن نتعرّف الى مفهوم الاله الذي تبنّاه اليهود القدماء. وأن نتبيّن الصفات التي نسبها بنو اسرائيل لإلههم. والشخصية التي تكوّنت له من خلال هذه الصفات. ولا غاية لنا في مجال هذا البحث في الوقوف على ما تاق إليه المتوجّه لاله التوراة (يهوه). والتعرّف في الوقت ذاته الى معنى الاله في نفسه. على اعتبار أن الانسان يعرف في توجّهه الى إلهه، في صلواته وابتهالاته. وفي ما صبت إليه نفسه من رغبات، وتاق الى تحقيقه من أمنيات.

وإنما يعنينا أن نلقي بقعة من الضوء على خاصة مهمة في الديانة الموسوية، ظلّت مهملة أو مغفلة منذ ظهور هذه الديانة (حوالي منتصف الألف الأول ق. م.). وظلّ المؤرخون والباحثون (بله الساسة وعامة الناس فهم أشبه بالقطعان في حظائر رجال الدين) غافلين عنها لقصور أو تقصير، جهل أو تجاهل، غباء أو تغاب، لا فرق. هذه الخاصة هي التعدّدية (تعدّد الآلهة)، أو الوثنية (الوثن)، أو الصنمية (الصنم)، أو الاشراك (اشراك عبادة الاله الواحد بعبادة آلهة أخرى)، سمّها ما شئت.

فمذ تكشّف يهوه (الرب) لموسى، أو قل مذ أعلن موسى عن حضور هذا الاله بين الجماعة، جعله موسى أو الأحبار الذين دوّنوا شريعة موسى، إلهاً خاصاً ببني اسرائيل، مثلما كان، باعتبارهم طبعاً، للأقوام والأمم الأخرى آلهتها. وهكذا راح القائد السائر على رأس الجماعة، موسى أو غيره، يطلق الجمع (آلهة) في وجوه أتباعه كلما واتت الفرصة، في محاولة لاقناعهم بأن لكل قوم إلهاً، بل آلهة. وأن إله الجماعة (يهوه) أعظم وأقوى من الآلهة الأخرى جميعها. وأنه سيبيد مجتمعات أرض فلسطين وآلهتها، ويملّك جماعته أراضيها.

وهذا الاله الخاص بجماعة بني اسرائيل أضفى عليه موسى أو الأحبار صفة الوحدانية والفرادة بين ما اعتبروه آلهة متعدّدة. فهو، باعتبارهم، فريد، لا مثيل له. يقول يهوه عن نفسه لموسى «ليس مثلي في كل الأرض. سفر الخروج ٩ : ١٤». ويقول موسى لفرعون «ليس مثل يهوه إلهنا. خروج ٨: ١٠». وفي «تسبيحة للرب» يقول موسى «من مثلك بين الآلهة يا يهوه. خروج ١٥ : ١١». ويقول داود «ليس إله مثلك. سم٢ ٧: ٢٢». ويقول سليمان «يا يهوه، إله اسرائيل، ليس إله مثلك في السماء من فوق، ولا على الأرض من أسفل. مل١ ٨: ٢٣». ويقول صاحب المزامير «لا مثيل لك بين الآلهة يا يهوه. مزمور ٨٦: ٨». و «من يشبه يهوه بين أبناء الله. مزمور ٨٩: ٦». ويقول النبي ارميا (١٠ : ٦) «لا مثل لك».

ويهوه في الوحدانية عظيم وكبير وقدير. أو قل هو أعظم قوة وأشد مضاء من «الآلهة الأخرى» التي زعموا وجودها. خاصة آلهة مصر التي خرج موسى بهم منها، وآلهة مجتمعات الأرض التي عقد العزم على غزوها وطرد سكانها منها أو ابادتهم، ليقيم فيها كياناً قومياً خاصاً ببني اسرائيل. فبعد ضربات الهلاك المرعبة التي أنزلها يهوه بالمصريين، «قال يهوه لموسى: خذوا مقداراً من الدم واجعلوه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت. فإني اجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر، من الناس والبهائم. . ويكون الدم لكم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر. . وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين، أنا يهوه. خروج ١٢ : ٧». ويقول موسى مؤكداً إن يهوه قد نفّذ وعيده «وصنع أحكاماً بآلهتهم. سفر العدد ٣٣: ٤». ويضيف موسى مخاطباً يهوه في نوع من الاقرار بجدارته والاعتراف بفضله «أي إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك؟. سفر التثنية ٣: ٢٤». ويسترسل موسى في المبالغة بتمجيد إلهه، فيجعله أعظم الآلهة طرّاً. ومن منطلق الاستئثار جعله «إله الآلهة ورب الأرباب. تثنية ١٠ : ١٧». ويبدو أن موسى أفاض في الحديث الى حميه يثرون، كاهن مديان، عن يهوه، وعن الضربات التي أنزلها بالمصريين والويلات التي ألحقها بهم، مما دفع يثرون الى القول، أو نسبوا إليه القول، «الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة. خروج ١٨ : ١١».

والتعابير التي تنقل هذا المفهوم كثيرة ومتشابهة. فهو مثلاً لدى محرّر سفر أخبار الأيام الأول (١٦ : ٢٥) «فوق جميع الآلهة». وهو في سفر أخبار الأيام الثاني (٢ : ٥) «أعظم من جميع الآلهة». وفي سفر يشوع (٢٢ : ٢٢) يعبّر المحرّر عن هذا المفهوم بتأكيد جازم قاطع «إله الآلهة يهوه. إله الآلهة يهوه». وفي سفر سموئيل الثاني (٧: ٢٢) يقول داود «أيها الرب الاله، ليس مثلك وليس إله غيرك». ويهوه لدى صاحب المزامير «إله الآلهة ٥٠: ١» و «إله عظيم، ملك كبير على كل الآلهة ٩٥: ٣». ويهوه «عظيم وحميد جداً، مهوب على كل الآلهة ٩٦: ٤». و «يهوه قائم في مجلس الآلهة. في وسط الآلهة يقضي ٨٢: ١».

ويمثل هذه التأكيدات يقول صاحب المزمور (١٣٥ : ٥) بلغة المتكلم «إن يهوه عظيم. وأدونينو (سيدنا) فوق جميع الآلهة». ويقول صاحب المزمور (٩٧: ٩) بلغة الخطاب «علوت جداً على كل الآلهة». ولذلك يطلب صاحب المزمور (١٣٦ : ٢) الى الآخرين، بلغة الأمر أن «احمدوا إله الآلهة. احمدوا رب الأرباب». ويوجّه صاحب المزمور (٩٧: ٩) الأمر الى الآلهة جميعها أن تسجد له «اسجدوا له يا جميع الآلهة».

وباختصار، إن أسفارهم جميعها لا تشير الى الاله الواحد إلا من خلال علوّه وعظمته وسيطرته على الآلهة التي زعموا وجودها. يقول النبي صفنيا (٢: ١١) «إن يهوه رهيب يستأصل جميع آلهة الأرض».

ويهوه، باعتبار موسى وأحبار بني اسرائيل، واحد، ولكنه ليس الاله الوحيد في العالم. وهذا الاله الواحد مقصور على بني اسرائيل وحدهم، وبالتالي ليس إله البشر أجمعين. أما الأقوام والأمم الأخرى فلها، باعتبارهم طبعاً، آلهتها التي تحميها وترعاها. فحين «خدع يعقوب قلب لابان الارامي» خاله وحميه، وسطا على مواشيه بلباقة داهية محتال، تآمر مع زوجتيه، ابنتي خاله، للهرب من وجه خاله، زاعماً لهما أن «إله أبي كان معي. تكوين ٣١: ٥». «فسعى لابان وراءه مسيرة سبعة أيام. تكوين ٣١ : ٢٣». وحين أدركه قال له «في قدرة يدي أن أصنع بك شراً، ولكن إله أبيك كلمني البارحة قائلاً: احترز من أن تكلّم يعقوب بخير أو شرّ. تكوين ٣١ : ٢٩». وبعد التوبيخ الذي جلّل لابان الارامي به صهره يعقوب، قال «إله ابراهيم وإله ناحور يقضيان بيننا.

تكوين ٣١: ٥٣». فليعقوب إلهه ولناحور إلهه بتعبير محرّر التوراة.

ومن هذا الباب يحدثنا سفر راعوث عن رجل من يهوذا اسمه ايلي ملك، ذهب «ليتغرّب في بلاد مؤاب هو وامرأته وابناه». وهناك «أخذا لهما امرأتين مؤابيتين، اسم احداهما عرفة واسم الأخرى راعوث.. وأقاما هناك نحو عشر سنين. ثم ماتا كلاهما». «فقالت الحماة لكنتيها: ارجعا كل واحدة الى بيت أمها.. فقبّلت عرفة حماتها، وأما راعوث فلصقت بها. فقالت: هوذا قد رجعت سلفتك الى شعبها، وآلهتها. ارجعي أنت وراء سلفتك. فقالت راعوث: لا تلحّي عليّ أن أتركك.. شعبك شعبي وإلهك إلهي. راعوث ١: ١ ـ ١٦». فللمؤابية إلهها ولليهودية إلهها بتعبير محرّر التوراة.

ويحدثنا محرّر سفر القضاة (١١: ٢ و٢٤) عن القاضي يفتاح الذي «أرسل رسلاً الى ملك بني عمون يقول: مالي ولك أنك أتيت إليّ للمحاربة في أرضي؟. فقال ملك بني عمون لرسل يفتاح: لأن اسرائيل قد أخذ أرضي عند صعوده من مصر.. فالآن ردها بسلام.. فأرسل يفتاح رسلاً الى ملك بني عمون قائلاً: أليس ما يملّكك إياه كموش إلهك تمتلك؟. وجميع الذين طردهم يهوه إلهنا من أمامنا، فاياهم نمتلك؟». فلملك بني عمون إلهه، وليفتاح إلهه باعتبار محرّر التوراة. ولكن إله التوراة يتميّز باستبداده وجبروته المطلق، فهو يحكم على مجتمعات فلسطين بالطرد أو بالابادة، ويوزّع أراضيها على أتباعه «ميراثاً أبدياً» بسندات تمليك مقدسة ستبقى محفوظة بين دفتي هذا الكتاب المقدس الى زمن لا يعرف إلا الله مداه.

وعبادة يهوه، إله بني اسرائيل الخاص، مقصورة على أتباعه، ومحصورة بالأرض التي تسلّلوا إليها واستوطنوا بعض مرتفعاتها، ولهذا فإن المدعو نعمان قائد جيش أرام (سوريا) سأل النبي ايليشع، عندما أبرأه من البرص (على ذمة التوراة)، أن يطرفه بقدر من ثرى بلاد اسرائيل ليعبد فوقه إله اسرائيل ويذبح الاضحيات التي يقربها له. «فقال نعمان أما يعطى لعبدك حمل بغلين من التراب لأنه لا يقرب بعد عبدك محرقة ولا ذبيحة لآلهة أخرى، بل ليهوه. مل٢ ٥: ١٧».

وحين أمر يهوه يونان بالذهاب الى نينوى «قام يونان ليهرب الى ترشيش من وجه الرب. يونان ١: ٣»، على اعتبار أن يهوه رب محلّي، وأن عبادته

مقصورة على أتباعه وفي الأرض التي يستوطنون.

وحين «سقط ملك اسرائيل اخزيا بن آخاب، من الكوة التي في عليته ومرض، أرسل رسلاً قائلاً لهم: اذهبوا واسألوا بعل زبوب إله عقرون إن كنت ابرأ من هذا المرض؟.. فلاقاهم ايليا التشبي (النبي) وقال لهم: أليس في اسرائيل إله حتى تذهبوا لتسألوا بعل زبوب إله عقرون؟. مل٢ ١: ٢».

وكان لجوء الفرد منهم أو طرده الى القوم أو المجتمع الآخر، يعني، باعتبارهم طبعاً، عبادة إله ذلك القوم أو المجتمع. فعندما لجأ داود الى الفلسطينيين هرباً من شاول، أصبح عاجزاً عن عبادة إله اسرائيل (يهوه)، لأن يهوه، كإله قومي، لم يعبد في غير مواضع سلطانه. وقد اعتذر داود الى شاول من ذلك عندما التقى به في ما بعد، وشكا إليه قومه بني اسرائيل قائلاً: «إنهم طردوني اليوم قائلين: اذهب اعبد آلهة أخرى. سفر سموئيل الأول ٢٦: ١٩».

المهم أن بني اسرائيل لم ينكروا وجود آلهة أخرى غير إلههم. تماماً كعدم انكارهم لوجود أقوام وقبائل أخرى غير قبيلتهم. ووجود الأرباب المختلفة لدى المجتمعات الأخرى، وباعتبارهم طبعاً، لا يتعارض مع ايمانهم بربهم (يهوه) الذي يتميّز عن الآلهة الأخرى، التي زعموا وجودها، بقوته وجبروته. وكثيراً ما نسبوا الى إلههم (يهوه) الاشتعال بنار الغيرة منها. يقول يهوه «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.. لأني أنا يهوه إلهك إله غيور. خروج ٢٠: ٣». وهذه الآية يكرّرها المحرّر حرفياً في سفر التثنية (٥: ٧). ويقول يهوه «لا تسجد لاله آخر لأن يهوه اسمه غيور. إله غيور هو. خروج ٣٤: ١٤». ويقول موسى «لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم، لأن يهوه إلهكم إله غيور. تثنية ٦: ١٤». وكثيراً ما يقرن اسلوبي التحذير والنهي بالتهديد بأن غيرة يهوه نار آكلة، يقول مثلاً «احترزوا من أن تنسوا عهد يهوه الذي قطعه معكم، وتصنعوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً، صورة، كل ما نهاك يهوه إلهك عنه. لأن يهوه إلهك هو نار آكلة، إله غيور. تثنية ٤: ٢٣».

وظلّ موسى يحذّرهم من مغبّة السجود للآلهة الأخرى، أو الذبح أو تقديم القرابين لها، والانغواء وراءها. يقول «من ذبح لآلهة غير يهوه وحده يهلك. خروج ٢٢: ٢٠». ويقول «احترز من أن تنسى يهوه إلهك. تثنية ٨: ١١». ويؤكد قوله بصيغة الجمع «احترزوا من أن تنغوي قلوبكم، فتزيغوا، وتعبدوا آلهة

أخرى. وتسجدوا لها. تثنية ١١: ١٦». وكثيراً ما يرد التحذير بصيغة النهي عن الميل الى الآلهة أخرى. خروج ٢٣: ١٣». «لا تسجدوا لآلهتهم، ولا تعبدوها. خروج ٢٣: ٢٤». «لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً. خروج ٢٣: ٣٢». «لا تسجد لاله آخر. خروج ٣٤: ١٤». «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. تثنية ٥: ٧». «لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم. تثنية ٦: ١٤». «ولا تعبد آلهتهم، لأن ذلك شرك لك. تثنية ٧: ١٦». «وإذا عبدت آلهتهم فإنه يكون لك فخاً. خروج ٢٣: ٣٣». «ولا تذكروا اسم آلهتهم ولا تحلفوا بها ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها. يشوع ٢٣: ٧».

وبالإضافة الى صيغتي الأمر والنهي، كثيرا ما يسوق موسى، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى، تحذيره بأسلوب التهديد. يقول مثلاً «إن نسيت يهوه إلهك، وذهبت وراء آلهة أخرى وعبدتها وسجدت لها، أشهد عليكم اليوم أنكم تبيدون لا محالة. تثنية ٨: ١٩». ويقول أيضاً «إذا قام في وسطك نبي أو حالم.. قائلاً: لنذهب وراء آلهة أخرى ونعبدها.. فذلك النبي أو الحالم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء يهوه إلهكم. تثنية ١٣: ٥». «وإذا أغواك سرّاً أخوك أو ابنك أو ابنتك أو صاحبك.. قائلاً: نذهب ونعبد آلهة آخرى.. من آلهة الشعوب الذين حولك.. فلا تسمع له ولا تشفق عينك عليه.. بل قتلاً تقتله. تثنية ١٣: ٦ - ٩». ويقول أيضاً «إن غويت وسجدت لآلهة أخرى، وعبدتها، فإني انبئكم اليوم أنكم لا محالة تهلكون. تثنية ٣٠: ١٧».

وفي سفر يشوع يجمع المحرّر صيغ النهي والأمر والتحذير فالتهديد في خطبة واحدة أو مقطع من فصل. يقول «تشدّدوا جداً لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى، حتى لا تدخلوا الى هؤلاء الشعوب، أولئك الباقين معكم. ولا تذكروا اسم آلهتهم ولا تحلفوا بها ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها. ولكن الصقوا بيهوه إلهكم.. ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب، أولئك الباقين معكم، وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم اليكم، فاعلموا يقيناً أن يهوه إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم. فيكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم وشوكاً في أعينكم، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها يهوه إلهكم.. ولكن حين تتعدّون عهد يهوه إلهكم.. وتعبدون آلهة أخرى، وتسجدون لها، يحمى غضب الرب عليكم،

فتبيدون سريعاً عن الأرض الصالحة التي أعطاكم. يشوع ٢٣: ٧».

ويبدو أن يهوه أو القائد الناطق باسم يهوه، قد نفّذ تهديده في احدى المرات، على رواية التوراة. . فبعد خروجهم من مصر بزمن يقرب من ثمانية وثلاثين عاماً قضوها متبدّين في صحراء سيناء. وبوصولهم الى تخوم أرض فلسطين، «ابتدأ الشعب يزنون مع بنات مؤاب. فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن. فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن. وتعلّق اسرائيل ببعل فغور. فحمي غضب يهوه على اسرائيل. فقال يهوه لموسى: خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم ليهوه مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب عن اسرائيل. فقال موسى لقضاة اسرائيل: اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور. . وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً. سفر العدد ٢٥: ١ ـ ٩».

وظلّ ميل الجماعة الى آلهة مجتمعات الأرض يثير حفيظة يهوه، ويؤرث غضبه وسخطه. وقد يصل السخط على الجماعة الى حدّ التهديد بإزالة اسرائيل عن وجه الأرض، أو باقتلاعهم من هذه الأرض، وطردهم الى أرض لم يعرفوها من قبل: «إن كنتم تنقلبون من ورائي. . فتذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فاني أقطع اسرائيل عن وجه الأرض مل١ ٩: ٦». وبصيغة أخرى يقول «إن انقلبتم وتركتم فرائضي، وذهبتم وعبدتم آلهة أخرى، وسجدتم لها، فإني أقلعهم من الأرض التي أعطيتهم إياها. . فيقولون من أجل أنهم تركوا يهوه إله آبائهم، وتمسكوا بآلهة أخرى، وسجدوا لها، لذلك جلب عليهم كل هذا الشر. ، أخبار الأيام الثاني ٧: ١٩».

ويبلغ التهديد أحياناً حالة يطعمهم فيها لحم بنيهم في الحصار والضيق. يقول يهوه «من أجل أنهم تركوني. . وبخّروا لآلهة أخرى. . وبنوا مرتفعات للبعل. . لذلك ها أيام تأتي. . وأجعل هذه المدينة للدهش والصفير. كل عابر يدهش ويصفر من أجل كل ضرباتها. وأطعمهم لحم بنيهم. فيأكلون كل واحد لحم صاحبه في الحصار والضيق. سفر ارميا ١٩: ٤ ـ ٩».

هذا الحثّ اللاهث على أفراد يهوه من بين «الآلهة الأخرى». والتحذير من مغبّة السجود لها والانغواء وراءها. والنهي عن ذكرها أو عبادتها أو الذبح وتقديم القرابين لها. والتهديد باقتلاع الجماعة من الأرض أو بافنائها أو باطعامهم لحم بنيهم في الحصار والضيق في حال التبخير لها، يعني أن ايمانهم

بيهوه كان سطحياً. أو قل إن الدعوة ـ الديانة التي وضعها موسى لم تنغرس عميقاً في نفوس أتباعه. ولذلك سرعان ما كانوا ينصرفون عن عبادة إله موسى (يهوه)، الى عباداتهم السابقة. فحين صعد موسى الى جبل سيناء ليجتمع بإلهه «يهوه)، «اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا الرجل موسى الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم واتوني بها.. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل، وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه وقال غداً عيد للرب. فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا للّعب. خروج ٣٢: ١ ـ ٦».

فموسى لم يستطع ردع قطيعه عن عبادة العجل الذهبي، وعن الرقص عراة أمامه، لأن عبادة العجول التي مارسوها في مصر كانت لا تزال حية في ذاكرتهم بعد خروجهم القريب من مصر. والحقيقة أن بني اسرائيل لم يتخلّوا قط عن عبادة العجل. وظلّوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان رمزاً لإلههم. وقد أشار محرّر التوراة (العهد القديم) الى عبادتهم للعجول في غير موضع. من ذلك مثلاً أن يربعام ملك اسرائيل أمر بصنع «عجلي ذهب.. وضع واحداً في بيت ايل، وجعل الآخر في دان.. وذبح للعجلين اللذين صنعهما.. وقال هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. سفر الملوك الأول ١٢: ٢٨ ـ ٣٢». وذاعت عبادة العجول بين اليهود في السامرة حتى ليقول هوشع (٨: ٥) «قد زَنِخَ عجلك يا سامرة».

وقصة الأفعى التي أدخلها موسى في روعهم، وحاول أن يجعلها خيطاً في نسيج إيمانهم، وفريضة دهرية في طقوس عبادتهم، قصة غريبة ومدهشة. وهي تندرج تحت باب السحر الذي شغل حيّزاً مهماً في الديانة التي أنشأها موسى. فحين تقوّل الجماعة على موسى وإلهه، موجّهين اليهما أصابع الاتهام بالتقصير في إدخالهم أرض العسل واللبن التي وعداهم بها. وبلسان محرّر التوراة «تكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية، لأنه لا خبز ولا ماء. وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف. أرسل الرب على الشعب الحيّات المحرقة، فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من اسرائيل.

فأتى الشعب الى موسى وقالوا قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك. فصلّ الى الرب ليرفع عنا الحيات. فصلّى موسى لأجل الشعب. فقال الرب لموسى: اصنع لك حية محرقة وضعها على راية، فكل من لُدغ ونظر إليها يحيا. فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية. فكان متى لدغت حية انساناً ونظر الى حية النحاس يحيا. سفر العدد ٢١: ٥ ـ ٩».

وقد عبدها اليهود في الهيكل الى زمن حزقيا، ملك يهوذا (٧٢٠ ق.م.) «الذي سحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني اسرائيل كانوا الى تلك الأيام يوقدون لها، ودعوها نحشتان. مل٢ ١٨ : ٤».

وكانت الأصنام والترافيم (أشكال من التماثيل) شيئاً عادياً في حياة بني اسرائيل وفي جوهر إيمانهم. ففي أحد مواقف الصراع، وهي كثيرة بين شاول وداود، على تزعّم جماعة بني اسرائيل، «أرسل شاول رسلاً الى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه. فأنزلت ميكال (زوجة داود وابنه شاول) داود من الكوة، فذهب هارباً ونجا. وأخذت ميكال الترافيم ووضعته في الفراش، ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب. سم١ ١٩ : ١١» ايهاماً لرسل شاول بأن داود نائم في الفراش.

وفي الفصل السابع عشر من سفر القضاة قصة غامضة أو غير واضحة، مفادها أن «رجلاً من جبل افرايم اسمه ميخا» أخذ فضة من أمه ثم ردّها إليها. «فأخذت أمه مائتي شاقل فضّة وأعطتها للصائغ، فعملها تمثالاً منحوتاً وتمثالاً مسبوكاً. وكانا في بيت ميخا. وكان للرجل ميخا بيت للآلهة، فعمل أفوداً وترافيم». وفي الفصل التالي يقول مدوّن السفر «إن بني دان (أحد أسباط اسرائيل) أقاموا لأنفسهم تمثال ميخا المنحوت».

وعندما كان «رجال دان يتجسّسون الأرض (أرض فلسطين) جاؤا الى جبل افرايم الى بيت ميخا. قضاة ١٨ : ٢». «فدخلوا بيت ميخا وأخذوا التمثال المنحوت والأفود والترافيم والتمثال المسبوك. فقال لهم الكاهن: ماذا تفعلون؟. فقالوا له: اخرس. ضع يدك على فمك واذهب معنا. قضاة ١٨ : ١٨». فصرخ ميخا قائلاً «آلهتي التي عملت قد أخذتموها مع الكاهن. قضاة ١٨ : ٢٤».

ورغم النواهي الصارمة التي أطلقها في وجوههم زعماؤهم وكهانهم، كقول

موسى «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة.. ولا تسجد لهن ولا تعبدهن. خروج ٢٠: ٤». وفي الفصل (٣٤: ١٧) من سفر الخروج يؤكد موسى على هذا النهي بقوله «لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة». فقد ظلّ بنو اسرائيل «يصنعون لأنفسهم تماثيل مسبوكة. هوشع ١٣: ٢». «ويذبحون للبعليم ويبخّرون للتماثيل المنحوتة. هوشع ١١: ٢». حتى «امتلأت أرضهم أوثاناً. اشعيا ٢: ٨». وصارت «أصنام بيت اسرائيل كلها مرسومة على الحائط (في الهيكل) ويقف قدامها سبعون رجلاً من شيوخ بيت اسرائيل. حزقيال ٨».

وظلّ أنبياؤهم ينددون بـ «الصانعين لأنفسهم من فضتهم وذهبهم أصناماً. هوشع ٨: ٤». وبـ «المتوقّدين الى الاصنام تحت كل شجرة خضراء. اشعيا ٥٧: ٥». وبـ «الساجدين لتمثال مسبوك. مزمور ١٠٦: ١٩».

وظل يهوه يشكو الى أنبيائه انصراف الجماعة عن عبادته، وتحوّلهم الى عبادة التماثيل والأصنام. فهو يقول مثلاً الى حزقيال (١٤: ٥) «كلهم ارتدوا عني بأصنامهم». ويقول الى ارميا (٢: ٢٨) «كلكم عصيتموني.. فعلى عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا». ويصرخ الى سموئيل النبي متذمراً «تركوني وعبدوا آلهة أخرى. سم١ ٨: ٨».

وكثيراً ما كان يهوه يغضب، وفي غضبه على «رجاسات بيت اسرائيل الشريرة. حزقيال ٦: ١١»، يطلق تهديداته المعهودة: «أبيد مرتفعاتكم.. وأخرب مذابحكم.. وأطرح قتلاكم قدّام أصنامكم. حزقيال ٦: ٣».

ولكن رغم الوسائل الكثيرة التي انتهجها الكهنة في محاربة هذه الظاهرة (ميل أتباعهم الى عبادات مجتمعات الأرض). ورغم منجزات يهوه الكثيرة والتي أكّدها محرّرو التوراة في أكثر من فصل وبأكثر من صيغة، ظلت الجماعة ترتد عن يهوه كلما واتتهم الفرصة، أو كلما تراخى الكهنة في التنبيه والتحذير والوعيد والتهديد. يقول محرّر سفر القضاة (٣: ٥) «فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم». وفي الفصل العاشر من السفر ذاته يقول المحرّر «وعبد بنو اسرائيل البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين. وتركوا يهوه ولم يعبدوه». ويقول محرّر سفر الملوك الأول (١١: ٥ ـ ٨) عن سليمان «فذهب

سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشرّ في عيني يهوه، ولم يتبع يهوه.. وبنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين، ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن». وعن يربعام بن نباط، ملك اسرائيل، يقول المحرر «عمل عجلي ذهب وقال.. هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر.. وبنى بيت المرتفعات. سفر الملوك الأول ١٢: ٢٨». وعن آخاب بن عمري، ملك اسرائيل، يقول «عبد البعل وسجد له، وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة. وعمل آخاب سواري لاغاظة يهوه إله اسرائيل أكثر من جميع ملوك اسرائيل. مل١ ١٦: ٣٠». وفي أيامه لم يبق من «الركب التي لم تجثُ للبعل، والأفواه التي لم تقبله، غير ٧٠٠٠. مل١ ١٩: ١٨». وكذلك «عمل أخزيا بن آخاب، ملك اسرائيل، الشر في عيني يهوه.. وعبد البعل وسجد له، وأغاظ يهوه إله اسرائيل. مل١ ٢٢: ٥٢».

وفي أيام يهوشفط بن آسا، ملك يهوذا، «لم تنتزع المرتفعات، بل كان الشعب لا يزال يذبح ويوقد على المرتفعات. مل١ ٢٢: ٤٣».

وفي أيام يهواش ملك يهوذا «لم تنتزع المرتفعات، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات. مل٢ ١٢: ٣».

وفي أيام امصيا بن يهواش ملك يهوذا «لم تنتزع المرتفعات، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات. مل٢ ١٤: ٤».

وفي أيام عزريا بن أمصيا ملك يهوذا «لم تنتزع المرتفعات، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات. مل٢ ١٥: ٤».

وفي أيام فقح بن رمليا، ملك اسرائيل. ويوثام، ملك يهوذا، «كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات. مل٢ ١٥: ٣٥».

وهكذا كان الأمر في أيام ملوك اسرائيل ويهوذا بغالبيتهم. يقول المحرّر «وقد اتقى بنو اسرائيل آلهة أخرى. وسلكوا حسب فرائض الامم الذين طردهم يهوه من أمام بني اسرائيل.. وبنوا لأنفسهم مرتفعات في جميع مدنهم.. وأقاموا لأنفسهم انصاباً وسواري على كل تلّ عال وتحت كل شجرة خضراء. وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات.. وعبدوا الاصنام.. وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين.. وعملوا سواري، وسجدوا لجميع جند السماء.. وعبدوا

البعل. مل٢ ١٧ : ٧ ـ ١٦». ويقول المحرر عن منسّى بن حزقيا، ملك يهوذا، «بنى المرتفعات وأقام مذابح للبعل، وعمل سارية.. وسجد لكل جند السماء وعبدها. مل٢ ٢١ : ٣ ـ ٥». وعن آحاز بن يوثام، ملك يهوذا، يقول المحرر «ذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء. مل٢ ١٦ : ٤». «وذبح لآلهة دمشق الذين ضاربوه، قائلاً: لأن آلهة ملوك ارام تساعدهم، أنا أذبح لهم فيساعدونني.. فجمع آحاز آنية بيت يهوه، وقطّع آنية بيت يهوه، وأغلق أبواب بيت يهوه. وعمل لنفسه مذابح في كل زاوية في أورشليم. وفي كل مدينة فمدينة من يهوذا عمل مرتفعات للايقاد لآلهة أخرى. اخبار الأيام الثاني ٢٨ : ٢٣ ـ ٢٥».

وإذا صدف وخرج منهم من «أمر أن يُخرجوا من هيكل يهوه جميع الآنية المصنوعة للبعل ولكل أجناد السماء.. ولاشى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات.. والذين يوقدون للبعل وللشمس والقمر ولكل أجناد السماء.. وأخرج السارية من بيت يهوه.. وهدم بيوت المأبونين التي عند بيت يهوه حيث كانت النساء ينسجن بيوتاً للسارية.. ونجّس المرتفعات التي قبالة أورشليم التي بناها سليمان لعشتورت رجاسة الصيدونيين، ولكموش رجاسة المؤابيين ولملكوم كراهة بني عمون.. وهدم المذبح في المرتفعة التي عملها يربعام في بيت ايل.. وأباد السحرة والعرافين والترافيم والاصنام وجميع الرجاسات التي رئيت في أرض يهوذا وفي أورشليم. مل٢ ٢٣». فهذا يعني أن كهنة الاصنام وبيوت المأبونين ورجاسات السحرة والعرافين، والترافيم والاصنام، كانت جزءاً من عباداتهم ومن حياتهم، وفي جوهر ايمانهم. وإذا كان يوشيا قد شذّ عن القاعدة التي كان عليها القائمون على الأمر في بني اسرائيل، فإن غيره من القادة ظلوا «يذهبون وراء الآلهة الاخرى ليعبدوها.. حتى صارت آلهتك يا يهوذا بعدد مدنك. وبعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للتبخير للبعل» كما يقول النبي ارميا (١١ : ١٠ ـ ١٣). وحتى «امتلأت أرضهم أوثاناً» كما يقول النبي اشعيا (٢ : ٨).

ويبدو أن ميلهم الى «الآلهة الأخرى» كان قوياً وجارفاً. فصار «الابناء يلتقطون حطباً، والآباء يوقدون النار، والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكاً لملكة السموات، ولسكب سكائب لآلهة أخرى. ارميا ٧ : ٩ و١٧». وهذا

الميل الى «الآلهة الأخرى» الذي تمكّن في نفوسهم دفعهم الى محاجّة أنبيائهم ومخاصمتهم. فحين كان النبي ارميا ينقل لهم ما يضطرم في صدر يهوه (الرب) من شكوى وتذمّر، كقوله مثلاً «هذا الشعب الشرير الذي يأبى أن يسمع كلامي. الذي يسلك في عناد قلبه، ويسير وراء آلهة أخرى ليعبدها ويسجد لها. ارميا ١٣ : ١٠». «تركوني وبخّروا لآلهة أخرى. . وبنوا مرتفعات للبعل. . وسكبوا سكائب لآلهة أخرى. ارميا ١٩ : ٤ و١٣». و «وضعوا مكرهاتهم في البيت الذي دعي باسمي لينجّسوه. ارميا ٧: ٣». كانوا يقفون بوجه ارميا مدافعين بقناعة راسخة عن ميلهم الى عبادات مجتمعات الأرض، فيقولون له إنهم حين كانوا يعبدون ملكة السموات (عشتروت) شبعوا خبزاً ولم يروا شرّاً. ولكنهم حين عبدوا يهوه امتنع عنهم الخير. ولذلك «سنعمل كل أمر خرج من فمنا، فنبخّر لملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم. فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نرَ شرّاً. ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات وسكب سكائب لها، احتجنا الى كل، وفنينا بالسيف والجوع. وإذ كنا نبخّر لملكة السموات ونسكب لها سكائب، فهل بدون رجالنا كن نصنع لها كعكاً لنعبدها ونسكب لها السكائب. ارميا ٤٤: ١٧».

وبالاضافة الى الذبح على المرتفعات، وإقامة الانصاب والسواري، وعبادة الاصنام، وسبك العجول، وما شابه ذلك من طقوس بدائية، نقل لنا حزقيال في رؤياه صورة معبّرة عن تأديتهم بعض الطقوس الكنعانية، مشوّهة وخالية من أي مضمون. والرؤيا كما عبّر عنها حزقيال «إن يد الرب وقعت عليّ. . وأتى (الرب) بي في رؤى الله الى أورشليم فالهيكل. . ثم قال (الرب) لي: يا ابن آدم ارفع عينيك نحو طريق الشمال (طريق الهيكل)، فرفعت عيني وإذا تمثال الغيرة المهيّج الغيرة على باب المذبح. . ثم قال لي ادخل وانظر الرجاسات الشريرة التي هم عاملوها هنا. فدخلت ونظرت وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت اسرائيل مرسومة على الحائط، وواقف قدامها سبعون رجلاً من شيوخ بيت اسرائيل. . ثم جاء بي الى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز. . ثم جاء بي الى دار بيت الرب الداخلية وإذا عند باب هيكل الرب بين الرواق والمذبح نحو خمسة

وعشرين رجلاً، ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس. حزقيال ٨».

وهكذا ظل ميل بني اسرائيل الى عبادات مجتمعات الأرض، والتأثر بمعتقداتها، ضمن اطار الطقوس والشعائر: التقاط الحطب، وايقاد النار. صنع الكعك، وسكب السكائب. اقامة السواري، ورفع الانصاب. بناء المذابح وتقديم الذبائح. التبخير وبناء المرتفعات. لم يستطيعوا الارتقاء الى درجة الاحساس بالفكرة المطلقة، غير المحدودة بالصورة، والمتعالية على تجربة الحواس. القوة المثالية الجبارة، والكونية الجامعة، التي أخرجت الكون من العماء، وحرّرته من الفوضى، وجعلته في بنية منظمة. ولم يتمكنوا من تقبّل أو إدراك فكرة تقرّب الاله من البشر، فيشعرهم بمحبته و (انسانيته)، وقبوله التضحية بذاته من أجل البشر.

المعتقدات الطبيعية والديانات التاريخية

وضح لنا في ما تقدّم أن معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية هي معتقدات طبيعية، أي فعل عقلي، فعل تأمّل في الحياة وفي ما وراء الطبيعة. فحين بدأ الانسان القديم في سوريا الطبيعية يتأمّل في الكون والحياة، تكشّف له الكائن المطلق من خلال الظاهرات الكونية. وظهر له مفهوم «ان» ـ (السيد) و «العالي» ـ (ايل ـ الله) في شبه تواجد حميم مع الطبيعة.

والملاحظ أن ذلك الانسان ظلّ مشدوداً ومروعاً بذلك الفارق العظيم بينه وبين الكائن «العالي» ـ المطلق. ولذلك لم يحاول حصر «السيد»، «العالي» في مفهومهم، و «المطلق» ـ (الله) في مفهومنا، بصياغة ما تدل عليه، تلمّح إليه. ولم يعطِ له أي ملمح، ولم يلبسه أي قناع، ولم يجعله موضوعياً بأي صنم. وإنما حافظ على الشعور بأن «السيد»، «العالي» ـ (المطلق ـ الله) ليس موضوعاً يستطيع مراقبته أو التقاطه. وإنما هو حقيقة مطلقة بعيدة المنال. سرّ لا يسبر. وهو مرعب بقوته وأليف بقربه في آن معاً، وذلك ما عُبّر عنه بالاجلال والحب.

فالله في المعتقدات الطبيعية حقيقة مطلقة، مبدأ مجرّد. هو فوق الطبيعة الفيزيائية والبشرية. هو الحقيقة الكلية التي تفوق عالم الظواهر الحسية.

أما في الديانات التاريخية فلا تمييز بين المطلق والذاتي، بين الالهي

والطبيعي. ومن هنا كان الله بمفهوم واضعي الديانات التاريخية هو الفاعل الحقيقي في كل حدث طبيعي. ولما كان الله يتدخل في كل حدث طبيعي، فان المعجزات لا تعتبر خرقاً للقانون الطبيعي.

وعندما نقول إن معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية هي معتقدات طبيعية، يعني أن لا أسس تاريخية لها. والوثائق المكتشفة في المنطقة لا تشير الى مفهوم ما، اصطلح الباحثون والمؤرخون على تسميته «ديانة». وما يشتمل عليه مفهوم «الديانة» من مبادئ وقواعد واقيسة ومصطلحات، طقوس وشعائر، تنظيمات وعمليات تبشير. وما يرافقها من نصوص تعليمية تساعد على توضيح المفهوم ـ جوهر الدعوة الدينية. ولا تشير الوثائق أيضاً الى تسجيل لتلك المجتمعات معتقداتها في ما صار يسمّى في المفهوم المعاصر «كتاباً مقدساً».

أما الأديان التاريخية أو الوضعية (أي التي وضعها فرد. موسى مثلاً وضع أول ديانة تاريخية ـ اليهودية أو الموسوية) فهي فعل ايمان. والايمان يعني التصديق، ولا يعني العلم. فصاحب الدعوة الدينية يقصّ على الجماعة أو القوم الذين تُوجه الدعوة إليهم ما يعتقد أنه الحقيقة. وهم يصدّقون بما قُصّ عليهم ويعتبرونه كحقائق ثابتة، لأنهم اتجهوا نحو الدعوة بقلوبهم، وتفانوا فيها بوجداناتهم. ومن الطبيعي أن التصديق، خاصة في بدء ظهور الدعوة، يكون فعلاً وجدانياً وقائماً على الاقناع بالمعجزات.

الديانات التاريخية تُعزى بمفهوم أتباعها الى مصدر إلهي. ومن هنا كان الناس الذين توجّه الدعوة إليهم يعتنقونها غير مجادلين فيها. يضاف الى ذلك أن المنطق الديني لا يأخذ بالعلل الطبيعية التي سلّم بها المنطق العقلي. وإنما يقوم على الايمان بوجود قوة علوية تجب خشيتها ومداراتها لأنها ذات أهواء وتأثيرات في أفعالنا جميعها. أما المنطق العقلي في المعتقدات الطبيعية فهو حرّ، يسعى الى التعرّف على حقيقة «العالي» بطرقه الخاصة، وعلى حقيقة الكون عن طريق العلم التجريبي. ومن هنا كان اعتقاد القدماء في سوريا الطبيعية بأن «العالي» خلق الكون ووضع له نواميس أو قوانين طبيعية، يسير وفقها من دون تدخّل «العالي».

في الديانات التاريخية تقييد للحرية الفردية الى حدّ أن التفكير في الأمور

الدينية، ينظر إليه من وجه خروجاً على الدين، وقد يُرمى صاحبه بالتكفير. أما في المعتقدات الطبيعية فالحرية مطلقة للإرادة البشرية في الاعتقاد وفي التعبير. وحرية الايمان من حرية الفكر. ولذلك لا يجد الباحث في التاريخ السوري القديم ما يدل على وجود ما يسمى مثلاً بلغتنا الحاضرة، اضطهاد ديني. بل كان كل مجتمع يتقرّب الى الصفة التي عبّر بها عن العالي، من دون معاناة الخوف أو التكفير من جانب المجتمع الآخر.

المعتقد الطبيعي إلهام لا شعوري ناشىء عن علل بعيدة من إرادتنا. وعندما يتجذّر هذا الالهام في ذهن الفرد يضحي ايماناً. أما الديانة الوضعية أو التاريخية فهي في الصورة أشكال وطقوس، وفي الاطار تنظيم طائفي يربط جماعة معيّنة بمجموعة من الشعائر والتعاليم الخاصة.

والمعتقدات الطبيعية واضحة وجلية، تصدر عن فعل عقلي قائم على الاختبار والتأمل. أما الديانات التاريخية فحافلة بالأسرار والغوامض. والناس يأخذون الدين بتأثير العاطفة لا بتأثير الدليل والبرهان.

الدين الوضعي أو التاريخي مجموعة من التشريعات والطقوس والشعائر التي تحيط بحياة الانسان، في أوضاع معيّنة، إحاطة شبه تامة. وهو من جهة أخرى مؤسسة دينية أعطت لنفسها حق الاتصال بالكائن المطلق. وحصرت بنفسها طريقة الاتصال به أيضاً. ولذلك أطلقت على «السيّد» «العالي» اسماً (فالمعروف أن موسى واضع أول ديانة تاريخية ـ اليهودية أو الموسوية، أطلق على الكائن المطلق اسم يهوه). ووضعت جملة نواميس نظرية حدّدت صفاته، وأرست جملة القواعد العملية التي ترسم طريقة عبادته.

وباختصار، كانت المعتقدات في سوريا الطبيعية جوهراً حيّاً، لقاء في المفاهيم بين الأفراد والجماعات في البيئة الواحدة. وفي ظلّها لا نعرف ما يسمّى في الديانات التاريخية بالكفر والالحاد. ولا نجد في حياة الناس ما نجده في حياة أتباع الديانات التاريخية من خلاف أو نزاع أو صراع.

المهم أن المؤرخين والبحّاثة الغربيين نظروا الى معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية نظرتهم الى ديانات وضعية تاريخية. ومن هذا المنطلق تراهم في دراساتهم لتلك المعتقدات يتحدّثون عن «إله» و «آلهة» اسماءً

وأعداداً ومجموعات، آباء وابناء، مراتب ووظائف.. وكأن هناك ديانات موضوعة، حدّد فيها واضع كل منها اسم الاله ومرتبته ووظيفته وقرابته من الآلهة الآخرين.

* * *

كان من الضروري أو من الواجب أن نلقي هذه البقعة من الضوء على معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، وعلى مسألة ولادة الديانة التاريخية الأولى - الموسوية، وبالتالي على الأسماء التي تعبّر عن الدرجة العالية التي بلغتها المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية في سلّم الأخلاق الرفيعة، وعن سموّ نظرتهم الى القوة العالية التي إفترضوا وجودها وآمنوا بقدرتها وغرسوا أخلاقهم في جوهرها. كان من الضروري أن نفرد هذه الصفحات كلها لكي نعطي مزاعم الصليبي وتمحّلاته وادعاءاته قيمتها الحقيقية. وبالتالي نقف على مسألة الضمور في ثقافة المؤرخ، وغيبة الفهم لديه، على الأقل في هذا الموضوع الذي يعالجه.

إذا عدنا الى قراءة الصفحة ٢٨ من كتاب الصليبي يتضح لنا أن المؤرخ سار على خطى الغربيين، ولم يستطع أن يتجنّب السقوط في مهاوي الأغلاط التي وقعوا فيها. ففي «قديم الشرق الأدنى» لم يكن أديان كما يزعم الصليبي. وإنما كان معتقدات طبيعية. وأعتقد أن الفرق بين المفهومين كبير كما أوضحنا في ما تقدم. ولكن الصليبي خلط كالغربيين بين مفهوم المعتقدات الطبيعية ومفهوم الديانات التاريخية أو الوضعية. ومن الجلي أن حشر اليهودية، كديانة تاريخية، بين معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، تقصير مزرٍ لا يليق باستاذ جامعي تتخرّج الأجيال على هدي قلمه ولسانه.

والواقع أن ما قدّمه المؤرخ من تفسيرات، أو وجهات نظر، يتميّز بالبله والقصور الى درجة بعيدة. ففي قوله «بين الأديان المعروفة في قديم الشرق». هل يعني أن هناك أدياناً غير معروفة؟. وما هي؟. وفي قوله «تقف اليهودية في فئة تضمّها وحدها»، هل يعني أن الأديان باعتباره اليوم، أو كانت، تصنّف في فئات؟. وإذا كانت اليهودية تقف في فئة تضمّها وحدها، فلماذا اعتبرها فئة؟. فالفئة، كما هو معروف، تضم أكثر من واحد أو عنصر. ولكن الفئة باعتبار المؤرخ صليبي «تضمها وحدها».

وفي قوله «لتفسير أصول اليهودية من خلال الأديان العراقية أو الشامية أو المصرية». يعني أنه جمع بين اليهودية كديانة تاريخية، وبين معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية وفي مصر. وهذا تقصير مزرٍ كما ذكرنا. وماذا يقصد بقوله «الاديان العراقية»؟. تأمل: «الاديان»؟ كم دين؟. وما هي اسماؤها ومفاهيمها؟.

وباختصار، إن هذه الصفحة (٢٨) من كتاب المؤرخ صليبي عبارة عن تلفيقات قميئة، فيها من التكلّف والتعمّل والتصنّع ما فيها. وليس هناك دقة في التحديد ولا وضوح في الشروح ولا تناسق في الألفاظ ولا تناسب في الدلالات.

وقول الصليبي «يجب البحث عن الأصول الحقيقية لليهودية في ثنايا الاتجاه في منحى التوحيد في عسير القديمة» ضرب بذيء من التلفيق، يدخل في اطار تزوير التاريخ وتشويه الحقائق. وقد حاولنا أن نفهم هذه الأحكام الجازمة التي يطلقها حضرة المؤرخ، فذهب عناؤنا عبثاً. ورغم اننا لا نعرف في هذا العصر ما يعرف بالتمحيص والتمخيض، فمن الصعب أن يرضى القارىء المستنير بهذه الرطازات التي يأباها الفكر الواعي، وتنبو عنها العقلانية المنطقية. فما معنى «الأصول الحقيقية لليهودية»؟. ولماذا «البحث عنها في عسير»؟. وهل هناك أصول غير حقيقية لليهودية؟. وأين نبحث عنها؟.

أشرنا في ما تقدم الى ولادة اليهودية على يدي موسى. ومن خلال الوثيقة الوحيدة التي تذكر موسى وتتناول تاريخ بني اسرائيل ـ التوراة ـ العهد القديم. ولا نعرف تاريخاً آخر أو وثيقة أخرى أشار أو أشارت الى هذا الموضوع.

وما معنى قول الصليبي «منحى التوحيد في عسير القديمة؟». وكيف يطلق المؤرخ هذا الحكم الجازم وفي الصفحة الثانية من الفصل الأول، من غير أن يقدم للقارىء أي كلمة في «منحى التوحيد» الذي يزعم أنه كان في عسير القديمة. وما تلا هذه العبارة من توضيح أو تفسير متمثّلاً بقوله «حيث تمّ الجمع في وقت ما بين عدد من آلهة الجبال ومنهم يهوه وآلهة صب اوت وشلم وشدي وعليون، وهم في الترجمة العربية المعتمدة 'الرب' و 'إله الجنود' و 'إله السلام' و 'الله القدير' و 'الله العلي'. واعترف بهم كإله واحد أسمى». هو خير شاهد على خاصة تميّز كتاب الصليبي من أول حرف الى آخر حرف، هي التلفيق

والتدجيل. والاصرار اللحوح على التلفيق والتدجيل.

يهوه: رأينا في ما تقدم أن «يهوه» هو الاسم الذي ابتدعه موسى وأطلقه على الاله الذي أوهم جماعته بأنه إله خاص بهم. وأنه أقوى من إله المصريين. وأنه سوف يخلّص بني اسرائيل من حياة الذل والعبودية. «ويصعدهم من أرض مصر الى أرض جيدة وواسعة. الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. الى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سفر الخروج ٣: ٨».

وهذا الاسم لا معنى له إلا في ذهن موسى الذي ابتدعه وفرض عبادته على أتباعه. لأن موسى قصد من تركيب هذه الأحرف (أهيه ـ يهوه) أن يبقى مدلولها سرّاً مبهماً، لغزاً غامضاً. تحار فيه وتختلج له أفئدة أولئك البسطاء الذين ساقهم من مصر ليعمل منهم مجموعة قومية، يحقق بها طموحه وأهدافه. ولكن الطريف أن هذه الصيغة (يهوه) شغلت العلماء والمتعالمين على مدى ألفي سنة، بحثاً عن مدلولها أو عن الجذر الذي اشتقت منه، أو الأصل الذي تعود إليه. وما لفّقوه من تفسيرات في مجلداتهم الضخمة والمتعدّدة صيغ في إطار التخريج والتأويل، وظل في حدود هذا الاطار. ثم زاده التلفيق جهالة وغموضاً. وأحبار اليهود أو محرّرو التوراة هم الذين ترجموا «يهوه» الى «الرب» و «الله». وهذه العملية (ترجمة يهوه الى الله) تعتبر أكبر عملية تضليل عرفها التاريخ، ساقت ما يزيد على نصف البشرية الى وهاد الأوهام، ورمت بهم الى مهاوي الأضاليل. والمؤسف أنها ما فتئت شاهداً على معاناة المؤرخين والعلماء والمتعالمين من الفدامة والجهالة والتغفّل.

وعبادة يهوه ظلت مقصورة على أتباع موسى ـ بني اسرائيل. ومحصورة بالأرض التي تسلّلوا إليها واستوطنوا بعض مرتفعاتها. وقد ذكرنا وكرّرنا (والتكرار تهمة يرمى بها المؤلف)، وفي جميع المؤلفات التي وضعناها، أن الأرض التي أقاموا فيها مملكتهم لا تتجاوز عشرة أميال مربعة. مملكة من خمسين مملكة كانت قائمة يومذاك في أرض فلسطين.

صبـ اوت: الذي يترجمه أحبار اليهود أو محرّرو التوراة الى «رب الجنود»، ليس إلهاً معيناً كما يزعم الصليبي. وإنما هو اللقب الذي نسبه أحبار اليهود أو محرّرو التوراة الى إلههم يهوه.

شلم: ليس «إله السلام» كما يزعم الصليبي. وإنما هو فعل يعني «يسلّم، يحفظ، يصون». وقد أسنده القدماء في سوريا الطبيعية الى القوة العالية المطلقة، أو الى القوى العالية القريبة، في صيغة اسم مركب يعبّر عن ايمانهم بأن القوة العالية هي التي تحفظ الانسان وتصونه وتحميه. فمن الاسماء التي وصلتنا عنهم مثلاً: سلم ان (سلمان) يعني يسلّم الله أو الله يسلّم، يحفظ، يصون. وفي سوريا الغربية كانت صيغة الاسم سلم اون (سلمون). ومنها: سلم اللات. بعل شلم. اشمون شلم. شلم اشور. ماردوك شلم. نبو شلم. شمش شلم. نرجال شلم. شلم هدد. انو شلم.

شدي: ليس إلهاً، ولا يعني «الله القدير» كما يزعم الصليبي. وإنما هو فعل بمعنى «يقوّي». وقد أسنده القدماء في سوريا الطبيعية الى القوة العالية المطلقة والقوى العالية القريبة، ايماناً منهم بأن القوة العالية تشدّ أزر الانسان وتقوّي من عزائمه. فكان لهم من الاسماء: شد ايل. ايل شدّاي. شدّ ملقارت.

عليون: ليس إلهاً، ولا يعني «الله العلي» كما يزعم الصليبي. وإنما هو صفة (العالي) أطلقتها المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية على «ايل» بعد تحوله الى اسم في النصف الثاني من الألف الأول ق.م. فقالوا: «ايل عليون» أي الله العلي.

وهكذا جمع الصليبي بين «يهوه» (إله بني اسرائيل الخاص) وإله الجنود (الصفة التي أطلقها الأحبار على يهوه) وشلم (فعل) وشدي (فعل) وعليون (صفة تعني العالي). جمع هذه الصيغ ذوات المدلولات المختلفة على اعتبار أنها «آلهة جبال». «واعترف بهم كإله واحد اسمى».

وفي هذا «الجمع» ضروب من المعايب:

- اعتباره الاسم (يهوه) والصفة (صب اوت وعليون) والفعل (شلم وشدي) آلهة. وآلهة جبال. والسؤال: ماذا يقصد بـ «آلهة جبال»؟. وهل هناك آلهة سهول؟. وأين؟ وما هي اسماؤها؟.

- كيف ومتى تمّ الاعتراف بهذه الآلهة «كإله واحد أسمى»؟. وما دام حضرة المؤرخ قد ترجم «عليون» الى «الله العلي»، فهل هناك إله أسمى من «الله العلي»؟.

- وأين تمّ الاعتراف بهذه الآلهة كإله واحد أسمى؟.

ـ طبعاً في عسير، لأن المؤرخ الألمعي وقف، كما يبدو، على حالة الخمول التي تسيطر على الذهن العربي. وعلى واقع الضمور الثقافي وغيبة الفهم الذي يرفل فيه الانسان العربي. فعمد الى طمس الحقائق وحقن القارىء بالأضاليل: يهوه، إله الجنود، في عسير، تأكيداً لمقولته أو نظريته: أن «الديانة اليهودية نشأت في غرب شبه الجزيرة العربية». وأن «أرض التوراة كلها كانت في غرب شبه الجزيرة العربية». و «أن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية».

فـ «يهوه» الذي لم تتجاوز عبادته، مع المملكة التي أقامها أتباعه، عشرة أميال مربعة في أرض فلسطين، نقله المؤرخ المتبحّر العبقري كمال الصليبي الى عسير في غرب شبه الجزيرة العربية. وفي هذه العملية (النقل) اجتراء على العقل وتزوير للتاريخ وتشويه للحقائق. وقد يكون فيها سوء نيّة وخبث طويّة. وقد تكون تعبيراً عن غيبة فهم وجهل ظاهر، ولو غطّي على شناعته بزخرف القول.

والطريف أن الصليبي لم يقتصر، بعمليته الجبرية القاهرة، على نقل يهوه من مملكة اسرائيل التي لم تتجاوز حدودها عشرة أميال مربعة في بعض مرتفعات فلسطين، الى غرب شبه الجزيرة العربية. وإنما أراد لأرض التوراة أن تكون في منطقة تمتد بطول يصل الى حوالي ٦٠٠ كم، وبعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كم في غرب شبه الجزيرة العربية.

والجدير بالذكر في هذا المجال أن بعض المغفّلين من المؤرخين الغربيين الذين تميّز أبحاثَهم الشنائعُ في الخلط والخبط، سبقوا المؤرخ كمال الصليبي في نقل يهوه من الدائرة الضيّقة التي حصر فيها في أرض فلسطين، الى مملكة ايبلا في الشمال السوري، والى حوض النهرين. وألحقوه جبراً بالحضارات البابلية والكنعانية والارامية. فلانغدن[٢٦] مثلاً يحشر «ياو» yaw (يهوه) بين ما يزعمه آلهة الأكاديين والأموريين والأراميين. ودوغيرتي[٢٧] حاول أن يقيم صلة بين «يهوه» وبين «ايا»، يقول «لقد جرت محاولة لربط «ايا» مع «ياه» ـ الصيغة القديمة لـ «يهوه». وبلغته: The attempt has been made to connect Ea with Yah, an ancient form of Yahweh.

من المؤسف أن يصدر هذا الكلام عن باحث في معتقدات الشرق المتوسطي القديم. فـ «ايا» ليس إلهاً كما يزعم دوغيرتي. وإنما هو قوة الماء (ايا

تعني بيت الماء). أي قوة الحياة في الماء. وقوة الحياة في الماء هي من جوهر القوة العليا «ان» أو «ايل» أو «ماردوك» مثلاً (الله بمفهومنا). ومحاولة دوغيرتي إقامة علاقة لغوية أو صرفية (لفظية) بين ايا Ea وبين ياه Yah دليل على قصر في النظر وضعف في البصيرة، وهما من المعاب التي لا يجوز أن تنسب الى مؤرخ.

ويبتدع المؤرخ البرت كلاي(٢٨) صيغة إله كنعاني Jahu ويرى أن جذر يهوه الموسوي قد يعود الى هذا الاله الكنعاني المزعوم. وقد يعود الى ايا Ea البابلي، أو الى الأراميين. وينقل عن وليم هيس التخريج الذي تبنّاه في دراسته عن علاقة يهوه بـ «هدد» الارامي. ويضيف إن يهوه يعني هدد.

ويشير الى دراسات المؤرخين الذين قالوا إن يهوه جاء مركباً في بعض الاسماء من عصر أمورابي مثل «ياوي ايلو» Jawi-ilu.

وينقل عن مؤرخين آخرين زعمهم بأن اسم يهوه جاء منقوشاً على لوح من كيش في حوض النهرين في عهد ريم انوم الذي حكم في نهاية الالف الثالث ق.م. وجاء منقوشاً أيضاً على لوح من سومو أبوم من أسرة أمورابي. وينقل الاسم المنقوش غلى اللوح Ja-wu-um زاعماً أنه أصل Yahweh.

ويزعم كلاي بأن يهوه يدخل في تركيب اسم حفيدة سارغون العظيمة Lipush-Jaum على اعتبار أن Jaum يمثل الاسم Yahweh.

ومن مزاعمه أيضاً بأن يهوه جاء مضمّناً في النقوش التاريخية الاشورية، مثل Ja-u في Jau-Hazi وفي العهد البابلي الحديث مثل Jahu-u أو Jaum-El في عهد أمورابي. وجاء مضمّناً في تركيب اسماء من مثل Ashirat-Ja-wi في عهد أمورابي. وفي Ahi-Ja-wi في ألواح تعنك Ta'annek. ويمضي كلاي في تدبيج تلفيقات، أقل ما يقال فيها إنها تعبّر عن سوء نية أو جهل صفيق. ويبدو أن صاحبنا المؤرخ يهودي أو متهوّد، يريد أن يقنع القارىء البسيط بأن يهوه عرف منذ الالف الثالث ق.م. وفي بلاد بابل. وأن اسمه جاء مضمّناً في النقوش التاريخية الاشورية. ويدخل أيضاً في تركيب اسم حفيدة سارغون العظيمة. لأن هذا التغافل أو التجاهل أو التعامي، لا فرق، عن حقيقة جوهرية هي أن يهوه لم يظهر إلا مع موسى. ولم يتجاوز اسمه دائرة قطرها عشرة أميال مربعة في بعض مرتفعات فلسطين، يعبّر عن سوء نية أو عن غباء فاحش وجهل

مدقع في الموضوع الذي يتناوله. ومن العيب أن توزّع هذه التلفيقات والتخريجات الباطلة قراطيس على الناس.

ويدّعي عضو البعثة الأثرية الايطالية الى ايبلا، جوفاني بيتيناتو، بوجود اسم يهوه مركّباً في اسماء أعلام ورد ذكرهم في نصوص ايبلا. ويزعم بأن «يهوه» حلّ محل «ايل» في عهد ما من عهود مملكة ايبلا، مما يدعو للافتراض، على زعمه، بحدوث ارتقاء نحو التوحيد الالهي في ديانة ايبلا. وفي اعتقاده أن التوحيد جاء مع يهوه.

وقد ردّ على بيتيناتو عدد من المؤرخين، ولكنه أصر، رغم الانتقادات والردود، على مزاعمه، وأكّد عليها في كتابه الصادر في ميلانو ١٩٧٩ بعنوان «ايبلا امبراطورية منقوشة على الطين».

ولعلّ أبشع أشكال التلفيق ما نجده عند الباحث ماكينز[٢٩] الذي يبدو أنه يجهل الموضوع الذي يتناوله في كتابه. والخوف هو من اقتران الجهل بسوء النية. فصاحبنا المؤرخ يؤكد أن «ايا» Ea يأتي في صورة «آ» Aa أيضاً. وهذه الصورة تتطابق مع يا Ya أو ياه Jah العبرية. ويلفّق صاحبنا صيغة أخرى هي يا داجانو Ya-Dajanu ليقول إنها تتطابق مع ياه داجان Jah is Dagon وينقل عن البروفسور برنشس تأكيده بأننا نمتلك العناصر الأولية التي تشير الى رغبة الباحثين في مطابقة ياه مع داجان. وهناك اسم مهم هو آ Aa الذي يتطابق مع ياه Jah. وبعد مناقشة تلفيقية مذهلة يخلص الى نتيجة هي أن صيغة ياه هي واحدة من الصيغ التي تعبّر عن الله في اللغة الاشورية ـ البابلية.

* * *

ويضيف الصليبي في الصفحة ٢٨ «وبعد أن تبنّى سكان محليون يسمون الاسرائيليين هذا التوحيد البدائي المولود في غرب شبه الجزيرة العربية، قام هؤلاء بتطويره، مرحلة بعد أخرى، الى ديانة عميقة المضمون، لها كتبها المقدسة، وتشمل مفهوماً متطوّراً للألوهية ومحتوى اجتماعياً وأخلاقياً مصقولاً الى درجة رفيعة».

وهكذا يجعل المؤرخ كمال الصليبي، وبالاسلوب الجبري الذي انتهجه، من بني اسرائيل «سكاناً محليين في غرب شبه الجزيرة العربية، قاموا بتطوير التوحيد البدائي المولود هناك الى ديانة عميقة المضمون، لها كتبها المقدسة،

وتشمل مفهوماً متطوّراً للالوهية ومحتوى اجتماعياً وأخلاقياً مصقولاً الى درجة رفيعة».

إننا في عجب مما يكتب حضرة المؤرخ. فهو لم يكتب ما كتب توخّياً للحقيقة، بل حبّر كتابه ليقال عنه: تكلم البروفسور كمال الصليبي. ولا يهمه أن يكون ذيالك الكلام صحيحاً أو خطأً. المهم أن يحقق الغاية التي من أجلها تم تسويد هذه الصفحات. والواقع أن هذا الكلام لا يطلقه رجل متمتّع بجميع قوى عقله. ويبدو أن المؤرخ لم يسأل نفسه، ولا ينتظر من ناقد أن يسأله: متى تبنى بنو اسرائيل التوحيد الذي تزعم؟. ومتى قاموا بتطويره الى ديانة عميقة المضمون؟. وهل حقاً أن «كتبهم المقدسة تشمل مفهوماً متطوراً للالوهية، ومحتوى اجتماعياً وأخلاقياً مصقولاً الى درجة رفيعة؟».

الملاحظ أن المؤرخ لا يذكر المستند الذي اعتمد عليه في اطلاق ما أطلق من أحكام قاطعة جازمة، وفي تقرير ما قرّر من نظريات لا ينالها النقد ولا يشوبها الشك (باعتباره طبعاً). وكأنه ينسب ذلك الى علمه الذي افتخر به وعبّر عنه بقوله «كنت أشعر بأن الواجب العلمي يفرض عليّ أن لا أبقي ما توصلت اليه من المعرفة (كذا المعرفة) بشأن التوراة سرّاً. فلا يجوز أن تكون هناك معارف سرية يحتفظ بها الباحثون لأنفسهم» ص١٩.

فمسائل من مثل التوحيد الذي تبنّاه بنو اسرائيل، وطوّروه الى ديانة عميقة المضمون، تشمل كتبها المقدسة مفهوماً متطوراً للالوهية.. هي «معرفة توصل إليها» المؤرخ كمال الصليبي. ورأى ضرورة اذاعتها، لأنه «لا يجوز أن تكون هناك معارف سرية يحتفظ بها الباحثون لأنفسهم».

والمبكي أسفاً وحزناً، أو المضحك هزءاً وسخرية، أن هذه (المعرفة) توصّل اليها المؤرخ كمال الصليبي، وأذاعها في العقد الأخير من القرن العشرين بعد يسوع الناصري. وفي مجتمعات، الوعي فيها مستلب أو مهزوم أو غافل أو غائب أو مغيّب. والقارىء فيها زائغ العينين، يتصف بالسذاجة وقصر النظر. ويعاني من ضمور ثقافي ومن غيبة فهم. وهو في الوقت ذاته ملجوم بالاعتياد وانغلاق العقل، ومحكوم بالميل الى الانقياد والاستعداد الى التصديق.

واذا أردنا أن نعرف شيئاً عن (التوحيد) الذي تبناه بنو اسرائيل. وأن نقف على «ديانتهم العميقة المضمون»، على زعم المؤرخ صليبي، فليس أمامنا من

مصدر أو مستند غير تاريخ بني اسرائيل المقدس ـ كتاب التوراة اليهودية ـ العهد القديم.

وقبل أن نتدبّر ما في هذا «الكتاب» من (توحيد)، طوّره بنو اسرائيل الى (ديانة عميقة المضمون)، على زعم المؤرخ صليبي، أرى من الضروري التمهيد بكلمة موجزة في معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية. كي نقف على نشأة الديانة التاريخية الأولى على يدي موسى، وبالتالي على ما (عرفه) حضرة المؤرخ في هذه الديانة من (توحيد) ومن (عمق في المضمون).

ذكرنا وأكدّنا في أكثر من موضع في هذا البحث وفي ابحاثنا السابقة، أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية آمن بقوة عالية واحدة، قدرة روحية، قيمة مطلقة، تعلو على الانسان. اعطاها صفة وليس اسماً. وقد عبّر عن هذه القوة العالية الواحدة بصفات متنوعة تبعاً لتنوّع البيئات والألسنة ومراحل التطور. فالسومريون في حوض النهرين الأدنى عبّروا عن القوة العالية بصفة «ان» ـ (السيد). والأشوريون في الحزون الشمالية من بلاد النهرين عبّروا بصفة «أشور» ـ (السيد). والأكاديون في البادية السورية عبّروا بصفة «عل» ـ (العالي). وعبّر الأموريون في سوريا الوسطى بصفة «ماريك» ـ (السيد العظيم).

المهم أن هذه الصفات تعبّر عن مفهوم واحد لقوة عالية واحدة ـ الله بمفهومنا.

وذكرنا أن مفهوم «ان» ـ (السيد) أو «أون» بلسان الكنعانيين، ترسّخ في ذهن الانسان القديم في سوريا الطبيعية لأكثر من ألفي سنة ق.م. فهو يدخل في تركيب الكثير من اسماء المدن والمناطق والاقاليم والجبال، من مثل:

سيحان (نهر في الشمال السوري)

نعمان (يُرضي الله. يُنعم الله) (واد قريب من الفرات)

جوزان (على نهر الخابور).

جرمان (يثبّت الله، يُكمل الله). زيد ان (يمنح الله. يهب الله). سمعان (يسمع الله): مدن حضارية قديمة ـ من ضواحي دمشق.

ومن اسماء المراكز الحضارية في سلسلة جبال لبنان الغربية: كفرون (قرية الله). عرمون (يكدّس، يكوّم الله). عزّون (الله يقوّي، يعزّز). بحمدون (يجمّل، يحسّن الله). حصرون (الله يحمي، يصون).

ومن اسماء المراكز الحضارية في اقليم فلسطين: شمرون (يحرس، يحمي الله). شارون (الله ييسّر). بيت أون (بيت الله). حبرون (صديق، رفيق، خدين الله). حرمون (حرم الله. فالمعبد مكان مقدس. مكرّس، منذور، مخصّص لوجه الله، فهو حرم). جلّون (كومة، عرمة الله). عبدون (عبد الله). لجون (يربط، يجمع الله). رامون (يعلي الله).

وذكرنا أن مفهوم «ان» ـ (السيد) شعّ الى العربية الشمالية ومنها الى الجنوبية قبل الألف الثاني ق.م. والدلالة الوحيدة التي بقيت لنا سليمة، الى حد ما، من هذا المفهوم في العربيتين، هي الاسماء المقترنة بالصفة «ان». فمن اسماء المواضع العريقة في التاريخ في العربية الشمالية: ظهران (يطهّر، ينقّي الله). ريّان (يروي الله) ـ (وادي). ثهلان (جبل في نجد). غمران (ماء بين نجد والحجاز).

وفي العربية الجنوبية: أوسان (يعطي الله). نجران (مجرى الله). عذران (الله يساعد). سمعان (يسمع الله). يفعان (يبارك الله) (حصن في جبل ريحة). نعمان (حصن في ناحية النجاء). همدان. وهران. لحيان (اسماء مناطق).

أما المفهوم «ايل» ـ (الله) الذي ظهر مع الأكاديين في البادية السورية في الألف الرابع ق.م. وربما قبل ذلك، فقد كان أكثر ترسّخاً في الذهنية الحضارية السورية، وأكثر اشعاعاً في أرجاء العالم القديم. وقد ذكرنا في ما تقدم أن ما بقي لنا من اسماء يدخل «ايل» في تركيبها، يشير الى سموّ معانيها وعمق دلالاتها واتساع دائرة شعاعها التي شملت، بالاضافة الى سوريا الطبيعية، العربيتين وبلاد الاغريق. فمن اسماء المناطق والاقاليم والجبال والمدن العريقة في التاريخ والحضارة التي يدخل «ايل» في تركيبها:

بابل (باب الله).

سمو ايل (ملك لارسا ١٨٩٤ ـ ١٨٦٦ ق.م.).

سمو ايل (مدينة عريقة في التاريخ والحضارة في الشمال السوري. تقوم عليها الآن بلدة زنجرلي التركية).

جبيل (جب ايل ـ بيت الله أو عائلة الله) على الساحل الكنعاني. يقول المؤرخون وعلماء الآثار إنها تسبق الالف الثالث ق.م.

بيت ايل (بيت الله) في فلسطين.

هرقئيل (البطل الصوري الذي أطلق اسمه على المضيق الفاصل بين المتوسط والأطلسي (مضيق جبل طارق حالياً). وفي بلاد الاغريق وصل هرقئيل الى مرتبة الألوهة.

اشيل (اش ايل ـ يعطي الله) بطل الياذة هوميروس.

فرجيل (فرج ايل ـ يفرج الله) شاعر الرومان المشهور.

ومن الاسماء العريقة في التاريخ في العربية الشمالية:

حايل (حي ايل ـ يحيي الله) ـ (منطقة ومدينة في نجد).

جبيل (بيت الله) مدينة في منطقة ميسان، وميناء الى الشمال من القطيف.

حجيل (حوج ايل) ـ (واد في العربية الشمالية).

وفي العربية الجنوبية:

ايل يفع ملك معين حوالي ١١٢٠ ق.م.

وقه ايل ملك معين حوالي ١١٠٠ق.م.

صدق ايل ملك معين وحضرموت حوالي ١٠٢٠ ق.م.

يدع ايل ملك سبأ ٧٨٠ ق.م.

كرب ايل ملك سبأ ٧٠٠ ق.م.

ايل يفع ملك حضرموت حوالي ١٠٠٠ ق.م.

وهنا أرى من الضروري التذكير بأن هذه النماذج من اسماء المدن والمناطق والاقاليم والجبال والملوك، ترجع في مدلولاتها الى عصور قديمة، أعني أقدم من المسميات، لأن المسمى يتخذ عادة اسماً معروفاً ومشهوراً من قبل.

وذكرنا أيضاً وأيضاً أن الصفة «ايل» وحدها من دون الصفات الأخرى، تطوّرت صيغتها في الالف الأول ق.م. الى «إله» فـ «الله». وتحوّلت في النصف الثاني من الألف الأول ق.م. في مفهوم مجتمعات سوريا الوسطى والجنوبية الشرقية، الى اسم.

* * *

يبدو أن موسى وعى هذا المفهوم ـ الصفة ـ الاسم (إله) في أرض مدين، بعد قتله المصري وهربه من مصر الى مدين. وتوضّح في ذهنه مفهوم أن لكل جماعة من البشر (في عصره) إلهاً. ووعى أيضاً صفات القوى العالية القريبة التي تقرّبت من الانسان أو قل إن الانسان شعر بقربها منه، كـ «البعل» و «الملك»

و «عشتروت». ولكنه جعل الصفة الواحدة اسم إله، واعتبر الاسماء مجموعة آلهة.

فموسى أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى، هو أول رجل، كاهن، نبي (سمّه ما شئت) اعتبر صفات القوى العالية القريبة اسماء. وبالتالي اعتبر الاسم الواحد إلهاً. من ذلك مثلاً: أن «بعل فغور» ـ (سيد منطقة فغور) صار إلهاً باعتبار موسى أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى (سفر العدد ٢٥: ٣). و «البعل» (من غير اضافة الى مدينة أو بيئة) صار إلهاً أيضاً. يقول محرر سفر القضاة (٢: ١١) «وعبدوا البعليم». وفي الآية التالية من الفصل ذاته يقول «تركوا يهوه وعبدوا البعل وعشتاروت». وفي الفصل الثالث من السفر ذاته يقول المحرر «وعبدوا البعليم». وفي الفصل الثامن يقول المحرر «وكان بعد موت جدعون (أحد القضاة ـ الحكام) أن جعل بنو اسرائيل بعل بريث إلهاً». وفي الفصل العاشر من السفر ذاته يقول المحرر «وعبدوا البعل والعشتاروت». ويقول محرر سفر الملوك الأول (١١: ٥ ـ ٨) «فذهب سليمان (الحكيم النبي) وراء عشتورت إلهة الصيدونيين وملكوم إله العمونيين. وبنى سليمان مرتفعة لمولك إله بني عمون».

من الواضح أن عشتروت ليست خاصة بالصيدونيين. وليست اسماً كما يزعم المحرّر. وإنما هي صفة (العشيرة ـ السيدة) وقد شاعت في أرجاء سوريا الطبيعية كما رأينا من قبل. وأن ملكوم (تحريف الملك) صفة لقوة عالية أيضاً. وأن هذه الصفة مولك (تحريف ملك) ليست خاصة ببني عمون. ويقول المحرر عن آخاب بن عمري ملك اسرائيل إنه «عبد البعل وسجد له وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل. سفر الملوك الأول ١٢: ٢٨».

وعندما اعتبر موسى أو الحبر الذي حرر شريعة موسى. صفة القوة العالية اسم اله، صارت مجموعة الاسماء التي نسبها للقوى العالية القريبة، صارت باعتباره طبعاً، آلهة، جاء في الكتاب المقدس «فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم، وأعطوا بناتهم لبنيهم. وعبدوا آلهتهم. سفر القضاة ٣: ٥». وجاء فيه أيضاً «وعبد بنو اسرائيل آلهة ارام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين. وتركوا يهوه ولم يعبدوه. سفر القضاة ١٠: ٦».

من الواضح لكل ذي بصيرة أن موسى أو الحبر الذي دوّن شريعة موسى، هو الذي ابتدع مصطلح الآلهة ونسبه الى مجتمعات فلسطين: الكنعانيين والحثيين والأموريين و.. فهذه المجتمعات لم تعرف الآلهة كجمع مطلقاً، وإنما عرفت الاله الواحد ـ ايل ـ الله، والقوى العالية القريبة (وقد فصّلنا القول في هذا الموضوع في ما تقدم). وليس في التاريخ ولا في ما وصلنا من نصوص، أي اشارة لما يزعمه موسى أو الحبر الذي دوّن شريعة موسى، من آلهة لكل من هذه المجتمعات، أو من اختلاف آلهة المجتمع الواحد عن آلهة المجتمع الآخر.

والمعروف أن موسى حين وعى هذا المفهوم ـ الصبفة ـ الاسم (إله) في أرض مدين، عاد الى مصر وراح يعمل بجهد لا يستكين على استمالة بني اسرائيل المستعبدين (على رواية التوراة). دافقاً في وجوههم الوعود بالتحرير من المعاناة التي يكابدون. مشيعاً بينهم أن في السماء إلهاً أقوى من إله المصريين. وأن هذا الاله (الذي ابتدعه موسى ووضع له اسماً ـ يهوه) سوف يخلّص بني اسرائيل من حياة الذل والعبودية (على رواية التوراة) «ويصعدهم من أرض مصر الى أرض جيدة وواسعة. الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. الى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سفر الخروج ٣: ٨».

ويهوه، باعتبار موسى، إله بني اسرائيل الخاص. مثلما كان لكل جماعة من البشر إله، وباعتبار موسى طبعاً. ولكن يهوه الموسوي نموذج فريد لا مثيل له بين الآلهة الأخرى، باعتبار موسى طبعاً. يقول موسى: «من مثلك بين الآلهة يا يهوه. سفر الخروج ١٥: ١١». ويقول داود النبي «ليس إله مثلك. سم٢ ٧: ١٢». ويقول سليمان النبي «يا يهوه، إله اسرائيل، ليس إله مثلك في السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل. مل١ ٨: ٢٣».

ويهوه أعظم قوة وأشد مضاء من «الآلهة الأخرى» التي زعم وجودها موسى أو الاحبار الذين حرّروا شريعة موسى. فهو «فوق جميع الآلهة. سفر أخبار الأيام الأول ١٦: ٢٥». وهو «أعظم من جميع الآلهة. سفر الاخبار الثاني ٢: ٥». ويهوه في سفر يشوع (٢٢: ٢٢) وفي المزامير (٥٠: ١) «إله الآلهة».

وكثيراً ما نسبوا الى إلههم يهوه الاشتعال بنار الغيرة من «الآلهة الأخرى» التي زعموا وجودها. يقول موسى «لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم

التي حولكم، لأن يهوه إلهكم إله غيور. تثنية ٦ : ١٤». وظل موسى يحذرهم من مغبة السجود للآلهة الأخرى، أو الذبح وتقديم القرابين لها. والانغواء وراءها. يقول «من ذبح لآلهة غير يهوه وحده يهلك. خروج ٢٢ : ٢٠».

وباختصار، إن اسفارهم كلها لا تشير الى الاله الواحد إلا من خلال علوّه وعظمته وسيطرته على «الآلهة الأخرى» التي زعموا وجودها. يقول النبي صفنيا (٢ : ١١) «إن يهوه رهيب يستأصل جميع آلهة الأرض».

فموسى أو الحبر الذي دوّن شريعة موسى، هو الذي ابتكر أو وضع مصطلح آلهة. وقبل موسى لا يذكر التاريخ هذا المصطلح. ولا تشير النصوص التي وصلتنا الى ما يعبّر عن هذا المصطلح مطلقاً.

وكنا قد رأينا في ما تقدم أن موسى أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى، هو الذي ابتكر أو وضع مصطلح الاوثان والأصنام واعتبرها آلهة. فحين صعد موسى الى جبل سيناء ليجتمع بإلهه (يهوه)، «اجتمع الشعب على هرون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا الرجل موسى الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هرون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وأتوني بها. . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل، وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هرون بنى مذبحاً أمامه وقال: غداً عيد للرب. فبكّروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدّموا ذبائح سلامة. سفر الخروج ٣٢».

(هذا تكرار لما ذكرناه سابقاً. والتكرار مطلوب أولاً ومقصود ثانياً وضروري ثالثاً).

فموسى لم يستطع ردع قطيعه عن عبادة العجل الذهبي، وعن الرقص عراة أمامه، لأن عبادة العجول التي مارسوها في مصر كانت لا تزال حية في ذاكرتهم بعد خروجهم القريب من مصر. والحقيقة أن بني اسرائيل لم يتخلّوا قط عن عبادة العجل. وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان رمزاً لإلههم. وقد أشار الكتاب المقدس الى عبادتهم للعجول في غير موضع. من ذلك مثلاً أن يربعام ملك اسرائيل أمر بصنع «عجلي ذهب. . وضع واحداً في بيت ايل، وجعل الآخر في دان. وذبح للعجلين اللذين صنعهما. . وقال هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. سفر الملوك الأول ١٢ : ٢٨». وذاعت عبادة

العجول بين اليهود في السامرة حتى ليقول هوشع النبي (٨: ٥) «قد زَنِخَ عجلك يا سامرة».

وفي الفصل السابع عشر من سفر القضاة قصة غامضة أو غير واضحة، مفادها أن «رجلاً من جبل افرايم اسمه ميخا» أخذ فضة من أمه ثم ردّها اليها. «فأخذت أمه مائتي شاقل فضة وأعطتها للصائغ. فعملها تمثالاً منحوتاً وتمثالاً مسبوكاً. وكانا في بيت ميخا. وكان للرجل ميخا بيت للآلهة، فعمل أفوداً وترافيم». وفي الفصل التالي يقول مدوّن السفر «إن بني دان (أحد اسباط اسرائيل) أقاموا لأنفسهم تمثال ميخا المنحوت. قضاة ١٨ : ٣».

وعندما كان «رجال بني دان يتجسّسون الأرض (أرض فلسطين) جاؤا الى جبل افرايم الى بيت ميخا. قضاة ١٨ : ٢». «فدخلوا بيت ميخا وأخذوا التمثال المنحوت والأفود والترافيم والتمثال المسبوك. فقال لهم الكاهن: ماذا تفعلون؟. فقالوا له: اخرس. ضع يدك على فمك واذهب معنا. قضاة ١٨ : ١٨». فصرخ ميخا قائلاً «آلهتي التي عملت قد أخذتموها مع الكاهن. سفر القضاة ١٨ : ٢٤».

ورغم النواهي الصارمة التي أطلقها في وجوههم زعماؤهم وكهانهم، كقول موسى «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة.. ولا تسجد لهن ولا تعبدهن. خروج ٢٠ : ٤». وفي الفصل (٣٤: ١٧) من سفر الخروج يؤكد موسى على هذا النهي بقوله «لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة». فقد ظل بنو اسرائيل «يصنعون لأنفسهم تماثيل مسبوكة. هوشع ١٣ : ٢». «ويذبحون للبعليم ويبخّرون للتماثيل المنحوتة. هوشع ١١: ٢». حتى «امتلأت أرضهم أوثاناً. سفر اشعيا ٢ : ٨». وصارت «أصنام بيت اسرائيل كلها مرسومة على الحائط (في الهيكل) ويقف قدامها سبعون رجلاً من شيوخ بيت اسرائيل. حزقيال ٨: ١٠».

وظل أنبياؤهم يندّدون بـ «الصانعين لأنفسهم من فضتهم وذهبهم أصناماً. هوشع ٨: ٤». وبـ «المتوقّدين الى الاصنام تحت كل شجرة خضراء. اشعيا ٥٧ : ٥». وبـ «الساجدين لتمثال مسبوك. مزمور ١٠٦ : ١٩».

ورغم الوسائل الكثيرة التي انتهجها الكهنة في محاربة هذه الظاهرة (ميل أتباعهم الى عبادات مجتمعات الأرض)، ظلّت الجماعة ترتد عن يهوه كلما واتتهم الفرصة، أو كلما تراخى الكهنة في التنبيه والتحذير والوعيد والتهديد.

جاء في الكتاب المقدس «وعبدوا الأصنام وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين. . وعملوا سواري. . وعبدوا البعل. سفر الملوك الثاني ١٧ : ٧ ـ ١٦».

وخلاصة القول إن قارىء التوراة (العهد القديم) بعقل مستنير وبصيرة واعية، يقف على جملة أمور بالغة الأهمية:

أولها أن الموسوية لم تعرف التوحيد. أي الاله الواحد. فيهوه، باعتبار موسى وأحبار بني اسرائيل، واحد، ولكنه ليس الاله الوحيد في العالم. وهذا الاله الواحد مقصور على بني اسرائيل وحدهم. وبالتالي ليس إله البشر أجمعين. أما الأقوام والأمم الأخرى فلها، باعتبارهم طبعاً، آلهتها التي تحميها وترعاها.

الثاني: أم موسى أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى، هو الذي اعتبر صفات القوى العالية التي تقربت من الانسان القديم في سوريا الطبيعية، أو قل إن الانسان شعر بقربها منه، اعتبرها اسماء وصنّفها تحت مصطلح آلهة.

الثالث: أن موسى أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى، هو الذي ابتدع مصطلح الاوثان والأصنام، وبالتالي اعتبرها آلهة.

الرابع: وهو الذي ابتدع مفهوم أو مصطلح «آلهة». ولذلك صار، باعتباره طبعاً، لكل جماعة أو مجتمع إله أو آلهة. وعلى هذا الاعتبار صار «الصيدون آلهة ولمؤاب آلهة ولبني عمون آلهة وللفلسطينيين آلهة وللأراميين آلهة. سفر القضاة ١٠ : ٦». وصار للعرب أيضاً آلهة. وباعتبار الموسويين طبعاً.

فأين «التوحيد» الذي تبنّاه بنو اسرائيل، على زعم الصليبي؟. أليس من المخجل أن يتفصّح استاذ جامعي، تتخرّج الأجيال على هدي قلمه ولسانه، بمثل هذه الأحكام ـ الافتراءات. وأن يرطن لسانه بمثل هذه المعايب؟. وكيف يتجرأ على تحويل المنكرات والموبقات الى مزايا خلقية، الى دين، الى توحيد؟.

وبالنسبة لـ «الديانة اليهودية العميقة المضمون». والتي «تشمل محتوى اجتماعياً وأخلاقياً مصقولاً الى درجة رفيعة»، كما يزعم المؤرخ كمال الصليبي. فان العبد الفقير، مؤلف هذا الكتاب، يتحدّى (معذرة لهذه الصيغة الشعبية)، وبلغة أنصع بلاغة، هو حديًا المؤرخ البروفسور كمال الصليبي في أن يذكر عبارة واحدة في التوراة اليهودية، تستشف منها «عمق المضمون» في الديانة

اليهودية، أو «المحتوى الاجتماعي والأخلاقي المصقول الى درجة رفيعة».

واذا خطر في باله أو بال غيره من المؤرخين، أن يذكر الوصايا العشر التي يردّدها ما يزيد على نصف البشرية، على اعتبار أنها تلخّص «ديانة عميقة المضمون»، فلا أرد عليه بغير ردّه الى مؤلفي «أمجاد اسرائيل في أرض فلسطين» الصادر عن دار الطليعة - بيروت ١٩٧٨.

ومن جهتي، لقد قلّبت كتاب اليهود المقدس - التوراة (العهد القديم)، ونقّبته كلمة كلمة بحثاً عن تلك «الديانة العميقة المضمون» و «المفهوم المتطور للألوهية» و «المحتوى الاجتماعي والأخلاقي المصقول الى درجة رفيعة» التي يتحدث عنها المؤرخ كمال الصليبي، فلم أعثر على صورة واحدة، واحدة فقط، أو منحى واحد، واحد فقط، مما ينسبه البروفسور المؤرخ الى الديانة اليهودية. ولم أجد في بحثي المتواصل واللحوح «الديانة التوحيدية» ص ١٢ أو «الدين الخلقي المصقول» ص ١٥٥ أو «الدين الذي كان يفوق العقائد المحلية في مستواه الفكري والخلقي الى حدّ لا يقاس. وكذلك الديانات العليا لامبراطوريات مصر والعراق» ص ٣١ كما يزعم المؤرخ كمال الصليبي في الصفحات المشار اليها أعلاه من كتابه.

وكأن صاحبنا المؤرخ اللوذعي الذي رأى في الديانة اليهودية «ديناً خلقياً مصقولاً»، «يفوق في مستواه الفكري والخلقي» العقائد في مجتمعات مصر وحوض النهرين. «ويشمل مضموناً اجتماعياً وخلقياً مصقولاً الى درجة رفيعة» لم يسمع بخبر الحلقة العلمية الخطيرة التي عقدت في فلسطين المحتلة في أوائل شهر آب ١٩٥٧. واشترك فيها عدد كبير من زعماء اليهود وعلمائهم من مختلف أنحاء العالم. وكان القصد من عقد هذه الحلقة القيام بدراسات اجتماعية لمعرفة أسباب التدهور الاجتماعي الذي أصاب يهود اسرائيل بعد انشاء الدولة. وأسباب تدهور العلاقات الاجتماعية بين يهود اسرائيل وبقية يهود العالم. وأسباب فشل الايديولوجية الصهيونية في جذب يهود العالم نحو اسرائيل. وقد تكلّم في هذه الحلقة ٧٢ مفكراً يهودياً، وعلى رأسهم بن غوريون رئيس حكومة اسرائيل، وناحوم غولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية. وقد اتفق الجميع على أن المجتمع اليهودي مريض. وأن هذا المجتمع لم يستطع أن يغسل نفسه من أدران الماضي. وانه يشبه برج بابل، ليس له طابع خاص.

واذا كان أعضاء الحلقة قد اختلفوا في تعيين أسباب الفشل، فقد اتفقوا على «أن السبب في ذلك هو الدين اليهودي وتعاليم التوراة، التي تتضمن قواعد اجتماعية ذوات طابع وحشي، غير انساني. فهي تدعو اليهود الى قتل غير اليهود، وسلب ممتلكاتهم. وتدعو الى اعتزال الناس غير اليهود، واحتقارهم واستعبادهم، واقتراف الفظائع ضدهم. وتدعو الى قتل الأسرى، والاعتداء على النساء والاطفال. وتدعو أيضاً الى التخريب والتهديم. والى استعمال القسوة والشراسة».

أما واضع هذا البحث فقد وجد في التوراة اليهودية ما وجده اليهود الصهيونيون أنفسهم فيها: تعاليم دينية تتميّز بالنزوع الى التخصيص، وبالعنصرية، وبالطابع الوحشي. فمذ أفرد موسى يهوه إلهاً خاصاً بجماعة بني اسرائيل، أفرد الجماعة بالمقابل شعباً خاصاً بيهوه، ومن هنا ظل يهوه يخاطبهم بلسان موسى بمثل قوله «اتخذكم لي شبعاً، وأكون لكم إلهاً. سفر الخروج ٦ : ٧». «وتكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. خروج ١٩ : ٥». «مملكة كهنة وأمة مقدسة. خروج ٢٩ : ٦». «وواعدك يهوه اليوم أن تكون له شعباً خاصاً. سفر التنثنية ٢٦ : ١٨». «وأكون لكم إلهاً، وأنتم تكونون لي شعباً. سفر أرميا ٧ : ٢٣». و «تكونون لي شعباً، وأنا أكون لكم إلهاً. أرميا ١١ : ٤». «وأسير بينكم، وأكون لكم إلهاً، وأنتم تكونون لي شعباً. سفر لاويين ٢٦ : ١٢».

ومن الطبيعي أيضاً أن تكون الجماعة الخاصة بالاله شعباً مختاراً من بين الشعوب سائرها، ولذلك يقول يهوه (الرب) «وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. تثنية ١٤ : ١». وفي سفر لاويين ٢٠ : ٢٤ يقول «أنا يهوه إلهكم الذي ميّزكم من الشعوب». وفي الآية التالية من الفصل ذاته (٢٠ : ٢٦) يقول «وقد ميّزتكم من الشعوب لتكونوا لي».

ويوسعنا التأكيد على أن موسى قد أسبغ على جماعة بني اسرائيل الطابع الذي ميّزهم، وسيبقى يميّزهم الى الأبد، عن الشعوب الأخرى. فقد أوهمهم بأن الإله يهوه اختارهم من بين الشعوب سائرها. وأنهم مباركون منه، مقرّبون إليه. وظل طوال حياته يعمل بجهد لا يستكين على ترسيخ هذا المفهوم في

صدور أتباعه. يقول يهوه (الرب) «إياك قد اختار يهوه إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. تثنية ٧: ٦». ويقول موسى «إن يهوه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم. تثنية ٤ : ٣٧». ويقول في فصل آخر من السفر ذاته «إن يهوه التصق بآبائك ليحبهم، فاختار من بعدهم نسلهم الذي هو أنتم، فوق جميع الشعوب. تثنية ١٠: ١٥».

وما وضعه موسى من أسس وأقامه من قواعد، سار عليه من جاء بعده من زعماء وأنبياء وكهنة. يقول صاحب المزامير (١٣٥ : ٤) مثلاً «الرب اختار يعقوب لذاته واسرائيل لخاصته». ويقول اشعيا (٤٣ : ٢١) بلسان يهوه طبعاً «هذا الشعب جبلته لنفسي، اخترته. اشعيا ٤٤ : ١». «وأما أنت يا اسرائيل عبدي يعقوب الذي اخترته، نسل إبراهيم خليلي، الذي أمسكته من أطراف الأرض، ومن أقطارها دعوته، وقلت لك: أنت عبدي اخترتك ولم أرفضك. اشعيا ٤١ : ٨». ويقول ارميا (١٣ : ١١) بلسان يهوه طبعاً «كما تلتصق المنطقة بحقوي الانسان، هكذا ألصقت بنفسي كل بيت إسرائيل، وكل بيت يهوذا، يقول الرب، ليكونوا لي شعباً واسماً وفخراً ومجداً».

ومن الطبيعي أيضاً وأيضاً أن يكون الشعب المختار مباركاً من الإله. يقول يهوه (الرب) «مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. تثنية ٧: ١٤». ويقول موسى «يباركك يهوه إلهك في الأرض التي يعطيك. تثنية ٢٨: ٨».

وشعور الجماعة بأنهم الشعب الأثير والمصطفى والمبارك أفعمهم كبرياء واعتزازاً، ومنحهم شعوراً بالتفوق وإحساساً بالتعاظم. ثم إن الارتباط الوثيق الذي أحكمه موسى بين يهوه (الرب) وبين جماعة بني إسرائيل، دفع الجماعة الى مقاسمة الإله عظمته.

ويبدو أن يهوه ما جعلهم شعبه الخاص، واختارهم، وباركهم، إلا لأنهم أولاده وأحباؤه. جاء في سفر الخروج (٤ : ٢٤) «هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر». ويقول موسى في سفر التثنية (١٤ : ١) مخاطباً بني إسرائيل «أنتم أولاد للرب إلهكم». ويقول صاحب المزامير (٢: ٧) «قال لي الرب أنت ابني. أنا اليوم ولدتك». ويقول أشعيا (١ : ٢) بلسان يهوه (الرب) «ربّيت بنين ونشّأتهم».

ويحكم اختياره لهم وارتباطه الوثيق بهم قاسموه قدسيته. يقول يهوه

(الرب) «تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة. خروج ١٩ : ٦». «لتعلموا أني أنا يهوه الذي يقدسكم. خروج ٣١: ١٣». ويضيف يهوه أيضاً «تكونون لي قديسين. لاويين ١٩ : ١». وفي الفصل التالي من السفر ذاته يؤكد على هذه المقولة ـ المفهوم بقوله «تكونون قديسين لأني أنا يهوه إلهكم. لاويين ٢٠: ٧». ويطيب له هذا التأكيد فيكرره في الفصل ذاته بقوله «تكونون لي قديسين لأني قدوس أنا يهوه. لاويين ٢٠: ٢٦». وفي سفر التثنية (٧: ٦) يقول موسى «لأنك أنت شعب مقدس ليهوه إلهك، أياك قد اختار يهوه إلهك لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض». وفي فصل آخر من السفر ذاته (٢٦ : ١٨) يقول «وواعدك الرب. . أن تكون شعباً مقدساً ليهوه إلهك كما قال». ويقول ارميا (٢ : ٣) «إسرائيل قدس للرب».

ويهوه (الرب) **يسكب روحه عليهم وعلى نسلهم فيتنبّأون**، أو قل يشاركونه في كشف أسرار الغيب. يقول يهوه (الرب) بلسان اشعيا (٤٤ : ٣) «أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك». ويؤكد يهوه (الرب) قراره بلسان النبي يوئيل بلغة فيها من البلاغة ما يسمى بالتفصيل والشمول. فهو يفصل الجماعة التي تنسكب روحه عليها الى بنين وبنات وشيوخ وشباب. وهذه البركة (الروح الإلهية) تشمل الجميع حتى العبيد والإماء. يقول «إني أسكب روحي على كل بشر فيكم، فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويحلم شيوخكم أحلاماً. ويرى شبابكم رؤى. وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء اسكب روحي».

وهذه الهبة أو النعمة الإلهية **رفعتهم الى مصاف الآلهة**، أو قل إنهم قاسموا يهوه ألوهيته. ولذلك يقول موسى «إن قسم يهوه هو شعبه. تثنية ٣٢: ٩». ويقول صاحب المزامير (٨٢: ٦) بلسان يهوه طبعاً «أنا قلت إنكم آلهة. وبنو العلي كلكم».

وبحكم اختياره لهم، وارتباطه الوثيق بهم، يسكن بينهم. يقول يهوه (الرب) «وأسكن في وسط اسرائيل، وأكون لهم إلهاً. سفر الخروج ٢٩: ٤٥».

وهو يعمل لخيرهم وحدهم. والطريف أو المؤسف أن عمل الخير لاتباعه لا يتم إلا بالحاق الأذى والشرّ بالاقوام والامم الأخرى. ففي الوقت الذي يفيض على جماعته روح النعمة، يضرب الأقوام ويهلك الأمم. يقول بلسان النبي زكريا (١٢: ٤ ـ ١٠) «في ذلك اليوم يقول يهوه، أضرب كل فرس

بالحيرة وراكبه بالجنون. وأفتح عيني على بيت يهوذا. وأضرب كل خيل الشعوب بالعمى. في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب، وكمشعل نار بين الحزم، فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار.. ويخلّص الرب خيام يهوذا.. ويكون في ذلك اليوم أني التمس هلاك كل الأمم الآتين على أورشليم. وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة».

ويهوه يميّز أتباعه، أو بالأحرى أراد له أتباعه أن يميزهم عن الشعوب سائرها، تعبيراً عن عنصريتهم العرقية وغرورهم القومي. ولذلك يطلب موسى الى يهوه أن «نمتاز أنا وشعبك عن جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. خروج ٣٣: ١٦». فيرد عليه يهوه بقوله «أنا يهوه إلهكم الذي ميزتكم من الشعوب. لاويين ٢٠: ٢٤». وفي الآية التالية مباشرة يؤكد يهوه حكمه أو قراره، بقوله «وقد ميّزتكم من الشعوب لتكونوا لي. لاويين ٢٠: ٢٦».

ويهوه أراد، أو بالأحرى أرادوا له، أن يجعلهم أسياد البشرية. يقول يهوه (الرب) بلسان صاحب المزامير (٢: ٨) «اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وأقاصي الأرض ملكاً لك. تحطّمهم بقضيب من حديد. ومثل إناء خزّاف تكسّرهم». ويقول اشعيا بلسان يهوه «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت يهوه يكون ثابتاً في رأس الجبال. ويرتفع فوق التلال، وتجري إليه كل الأمم. اشعيا ٢: ٢».

«وبنو الغريب يبنون أسوارك، وملوكهم يخدمونك.. وتنفتح أبوابك دائماً.. ليؤتى إليك بغنى الأمم، وتقاد ملوكهم. لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد، وخراباً تخربُ الأمم. اشعيا ٦٠: ٢ ـ ١٢».

«هكذا قال يهوه: تعب مصر وتجارة كوش، والسبئيون ذوو القامة إليك يعبرون، ولك يكونون وخلفك يمشون. بالقيود يمرون ولك يسجدون. اشيعا ٤٥: ١٤».

«ويقف الأجانب ويرعون غنمكم. ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب. تأكلون ثروة الأمم، وعلى مجدهم تتأمرون. اشعيا ٦١: ٥».

يبدو يهوه في هذه النصوص وكأنه استخلف اليهود في الأرض. وأورثهم

أقطارها وشعوبها حقاً مقدساً مقضياً. فهو يرمي الى تقويض النظم السياسية للمجتمع الدولي بأسره، وإخضاعه لنير اليهود. واصطناع شعوبه رقيقاً منكر الانسانية مغموط الحقوق.

والصورة العامة في هذه النصوص وأمثالها: اليهود في عل، يتربعون على عرش السيادة، وفي يدهم صولجان الحكم. ومن دونهم البشر قاطبة عبيد يتردّون في المواطئ الدنيا من الحضيض، يعنون لهم الهام، قد استرقتهم التعاليم اليهودية وقفاً على خدمة اليهود ـ شعب اللّه المختار.

ولما كان موسى قد جمع أتباعه في وحدة سياسية ـ دينية. أي وحدة سياسية يجمع شملها الدين. ووحدة دينية، هدفها تحقيق الاغراض السياسية. ونظر الى الدين على أنه آلة، قوة قاهرة، تخضع السواد الأعظم من العامة لمشيئته، فيكون قادراً على تسخيرهم واستخدامهم. كان من الطبيعي أن تنطلق تشريعات موسى من مفهوم القبيلة، وتنحصر في ربط اليهود، بعضهم ببعض، في فئة قتالية، غير قابلة للاندماج مع الآخرين. من هنا جاءت تشريعات موسى عنصرية، ضيقة، منغلقة، تدور في دائرة القبيلة الاسرائيلية، لا تتعداها الى غيرها من الشعوب. واذا صدف وتعدّتها، فلتبيان الوسائل في امتصاص الشعوب، أو استعبادها بأي شكل من أشكال الرق. فهي مثلاً تنهي اليهودي عن قتل اليهودي، والغدر به، والانتقام منه، والحقد عليه، أما بقية الشعوب فهي تأمر بقتلها، والغدر بها والانتقام منها، والحقد عليها. «وكلّم الرب موسى قائلاً: كلّم كل جماعة بني اسرائيل وقل لهم: لا تسرقوا ولا تكذبوا ولا تغدروا أحدكم بصاحبه.. لا تغصب قريبك.. بالعدل تحكم لقريبك.. لا تسع في الوشاية بين شعبك.. لا تبغض أخاك في قلبك.. لا تنتقم، ولا تحقد على أبناء شعبك. بل تحب قريبك كنفسك. سفر اللاويين ١٩».

وخذ مثلاً آخر من هذه التشريعات العنصرية، المنغلقة، الخاصة بالقبيلة اليهودية، قول يهوه الموسوي «لا تشهد على قريبك شهادة زور. ولا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا أمته ولا ثوره ولا حماره. سفر الخروج ٢٠». وقوله «لا تقرض أخاك بربا.. للأجنبي تقرض بربا. لكن لأخيك لا تقرض بربا. سفر التثنية ٢٣». «إن أقرضت فضة لشعبي فلا تكن كالمرابي. لا تضع عليه ربا. سفر الخروج ٢٢». «إذا افتقر أخوك عندك، وبيع لك، فلا تستعبده

استعباد عبد.. ولا تتسلط عليه بعنف.. والى آبائه يرجع.. وأما عبيدك الذين يكونون لك، فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيداً واماء. وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين في أرضكم. منهم تقتنون، ومن عشائرهم الذين عندكم، الذين يلدونهم في أرضكم، فيكونون ملكاً لكم، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك. تستعبدونهم الى الدهر. وأما أخوتكم بنو إسرائيل، فلا يتسلط انسان على أخيه بعنف. سفر اللاويين ٢٥».

فهذه الشرائع أو الفرائض أو الوصايا تقرر أن نظرتهم الى غير اليهودي هي نظرة شاذة. فلا يجوز مثلاً للاسرائيلي أن يتعامل بالربا مع أخيه الاسرائيلي. بينما يباح له أن يمتص غيره من الأمم والشعوب. ويتعامل معه بأبشع أنواع الربا الفاحش. ولا يجوز لليهودي أن يسرق أخاه اليهودي، ولا أن يشهد بالزور عليه، ولا أن يقتل يهودياً، أو يكذب عليه، أو يغدر به، أو يغصبه، أو ينتقم منه، أو يحقد عليه، أو يشتهي امرأة قريبه، أو بيته. ولا أن يسبب لليهودي أذى بواحدة من هذه النقائص الاجتماعية التي يعدّدها الكاتب.

ولكن هذه الشريعة تبيح لليهودي، بل تأمره بمعاملة غير اليهودي بجميع هذه النقائص الاجتماعية، المحرّمة في معاملة اليهودي لليهودي. ولا غرو، فاليهود هم الشعب المختار، الخليق بأن يكون السيد، وسائر الشعوب عبيداً.

ومن الواضح أن هذه الشرائع أو الوصايا هي نماذج للعنصرية في القبح الاخلاقي وانعدام القيم الانسانية. وتجسيد حي لطبيعتهم الداخلية التي تمور فيها مراجل من التعصّب الأعمى والعنصرية الشوهاء.

والسؤال الذي يمكن أن يوجّه الى حضرة البروفسور كمال الصليبي، الباحث المنقّب واللغوي الضليع والمتبحّر العبقري. والى الذين يأتمون بالمعلم كمال الصليبي: في أي نص توراتي، أو في أي سفر من أسفار هذا الكتاب المقدس، وقف أو وقفوا على «الديانة العميقة المضمون»، وذات «المحتوى الاجتماعي والأخلاقي المصقول الى درجة رفيعة»، وعلى «الدين الخلقي المصقول الذي كان يفوق عقائد المجتمعات القديمة في مستواه الفكري والخلقي، الى حدّ لا يُقاس»؟.

أعتقد أن حضرة الأستاذ النجيب، والعبقري الداهية، والباقعة الفريد، الدكتور كمال الصليبي. والمجتمعات الخاملة المستسلمة القانعة، المعِدّة للنفاق

والادّعاء، الرافلة ببرود السذاجة والغفلة، والملوّثة أخلاقياً واجتماعياً، التي تعاني من التدنّي في المستويات النفسية والأخلاقية والفكرية، ومن تعطيل القدرات العقلية، هم الذين يعثرون على «الديانة العميقة المضمون» وعلى «الدين الخلقي المصقول» في نصوص وأسفار تنبهم في قتامها كل معالم الأخلاق، ويختفي وراءها أضخم الأحقاد وأفجر الملوك والأنبياء.

مدن كنعان

حين عمد الصليبي الى زرع اليهود، تاريخاً وديناً، في غرب شبه الجزيرة العربية، كان من المفروض عليه أن يزرع في المكان عينه بعض أقوام سوريا الطبيعية القديمة، نظراً لتداخل تاريخ بني اسرائيل بتاريخ الأقوام التي احتكّوا بها في هذه الأرض. فعن الكنعانيين مثلاً يقول «كانت أرض كنعان تقع في الجانب البحري من عسير. وليس في فلسطين والساحل الشامي» ص ٢٩. وهذا الكلام التقريري يكرّره الصليبي بحرفيته في الصفحة ١٠١ من كتابه، بقوله «كانت أرض الكنعانيين في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في فلسطين». وشاهده الوحيد أن «الكنعانيين أعطوا اسماء من غرب شبه الجزيرة العربية لبعض مستوطناتهم على ساحل المتوسط الشرقي، وهي اسماء مثل: صور وصيدون وجبيل وارواد ولبنان» ص ٣٤.

صور: يقول حضرة المؤرخ اللوذعي «صور، لم تكن مدينة على حافة البحر، بل هي الواحة الحالية الكبيرة 'زور'. وهي الواحة المسماة اليوم بالتحديد 'زور الوادعة' في منطقة نجران بمحاذاة بلاد يام المجاورة للصحراء العربية الداخلية. وسفنها كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محمّلة. ويمكن التعرّف الى اسماء الأماكن التي تاجرت معها هذه القوافل في أجزاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية» ص ٣٤.

وفي صيدون يقول المؤرخ الألمعي «من المؤكد أن صيدون الواردة هنا ليست هي الميناء اللبناني (صيدون). وإنما هي قرية 'آل زيدان' في مرتفعات جبل شهدان. وهي واحدة من بين أربع صيدونات، تدعى 'زيدان' أو 'آل زيدان'، توجد حتى اليوم في أجزاء مختلفة من عسير» ص ٩٩.

مدهش أو مرعب هذا التزوير للتاريخ. صور وصيدون أشهر المنائر

الكنعانية في التاريخ، مسخهما المؤرخ كمال الصليبي الى واحة «زور الوادعة» وقرية «آل زيدان». وزرعهما، في عملية جبرية قاهرة، في منطقة نجران من غرب شبه الجزيرة العربية.

صور وصيدون اللتان كانتا أغنى مدينتين في العالم منذ الألف الثاني ق.م. أنشأت تجارتهما شبكة عالمية جعلت منهما محور الحركة الاقتصادية العالمية. وقد بسط الصوريون سلطانهم على قبرص وصقلية وكريت ومالطة. وأسسوا المراكز التجارية في هذه الجزر من مثل ميناء فينكس في جزيرة كريت (القرية). ثم توغلت أساطيلهم التجارية في الجانب الغربي من المتوسط الذي كانوا يعتبرونه بحيرة كنعانية برؤوسه وخلجانه وشطآنه جميعها، لا ينازعهم فيه منازع.

وفي أواخر القرن الحادي عشر ق.م. كان للصوريين والصيدونيين عشرات المدن والمراكز التجارية على شواطئ المتوسط الجنوبية[٣٠]. وكان لهم في مصر مراس عدة. وقد أشار هيرودتس الى وجود حي في مدينة ممفيس طبعه الصوريون باسمهم هو «الميدان الصوري»[٣١]. أما مرتكزهم على شاطئ المتوسط الجنوبي فكان مدينة قرطاجة. ربيبة صور ومنافسة روما في السيطرة على المتوسط، والتي ظلت أعظم مدن العالم ردحاً من الزمن[٣٢].

ويبدو أن العتيقة Al'atiqa (Utica) هي أقدم مستعمرة كنعانية في شمال أفريقيا. وحين وضعوا أُسس المستعمرة الثانية أطلقوا عليها اسم «القرية الحديثة» Qart-ḥadašt - (قرطاجة) تمييزاً لها عن الأولى «العتيقة».

وكان لهم في اسبانيا الجنوبية وفي الجزر المتوسطية وعلى الشواطئ الايطالية عشرات المدن والمراكز التجارية أيضاً، منها مثلاً ترشيش وقادش في اسبانيا، وطرسوس وكورنثوس في اليونان، ومرسيليا في فرنسا.

وهكذا نرى أن الملاحة الكنعانية التي نجمت عن شروط جغرافية وتاريخية ـ سياسية، حتّمت على الكنعانيين التوسع عبر المتوسط، وتأسيس سلسلة من المراسي أو محطات النزول أو المراكز التجارية، تفصل في ما بينها مسافات منتظمة لتكون مراسي تناسب أسفارهم الطويلة، مثل قرطاجة، نورا، بيثيا، موتيا، قادش، وموغادور[٣٣].

المهم أن ما وصلنا من شهادات كثيرة من المؤرخين الكلاسيكيين يؤكد على المدى الحضاري الواسع الذي بلغه الكنعانيون في تلك العصور المبكرة من

تاريخ الحضارة الانسانية. ديودورس الصقلي مثلاً يقول «كان نجاحهم عظيماً. وقد دفعتهم التجارة التي ملكوا زمامها في العالم القديم، الى إقامة المستعمرات في صقلية وفي ما جاورها من الجزر، وفي ليبيا وسردينيا وايبريا»[٣٤]. أما المؤرخ الاغريقي سترابو فقد شهد لمستعمرات صور الكثيرة، فكتب يقارنها بصيدون قائلاً «لئن كان اسم صيدون قد ورد كثيراً على ألسنة الشعراء، فهوميروس مثلاً لم يذكر صور، فإن لصور من المستعمرات المنتشرة في ليبيا (افريقيا) وفي ايبريا وبعد أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، ما يجعل لاسمها مجداً أكثر من جميع أشعار العالم». ويؤكد سترابو في بحثه أن الكنعانيين كانوا قد سيطروا على ايبريا وليبيا واسبانيا قبل زمن هرميروس وحرب طروادة. ويقول عن قادش «إن الجزيرة غدت الأكثر شهرة بين الجزر جميعها رغم أنها واقعة في نهاية الأرض»[٣٥].

ومن المؤرخين المحدثين ول ديورانت الذي يقول «لقد أقام الكنعانيون حاميات لهم في نقاط منيعة على سواحل البحر المتوسط، ظلت تكبر حتى اضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان، في قادش وقرطاجة ومرسيليا ومالطة وصقلية وسردينيا وكورسيكا، وفي انجلترا البعيدة أيضاً. واحتلوا قبرص وميلوس ورودس. ونقلوا الفنون والعلوم من مصر وكريت والشرق المتوسطي ونشروها في اليونان وفي أفريقيا وإيطاليا واسبانيا. وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية. وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية»[٣٦].

اجتاز الكنعانيون بمراكبهم أعمدة هرقل «مضيق جبل طارق)، وأقاموا مستعمرات على شاطئ الأطلسي مثل قادش وليكسوس Lixus وبذلك شقوا الحجب التي كانت تفصل بين العالم القديم المعروف وبين العالم المجهول وراء البحار. ولا مراء بأن اكتشاف المحيط الأطلسي يعدّ انتصاراً من أعظم الانتصارات وأبعدها أثراً في تطور الحضارة. يقول المؤرخ جاك بيرن «لقد كان اكتشاف أميركا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بداية عصر جديد في تاريخ أوروبا. وقبله كان اكتشاف الكنعانيين للغرب في القرن الحادي عشر ق.م. بداية عصر جديد في تاريخ العالم»[٣٧]. ويقول ديودور الصقلي (القرن الأول ق.م.) «إن الفينيقيين الدائبين من قديم الدهر على خوض البحار استقرت جاليات منهم على شواطئ ليبيا (افريقيا) وغرب أوروبا، فأحرزوا مكاسب طائلة

وثروات واسعة شدّدت عزائمهم على طلب المزيد، وسوّلت لهم الابعاد بمراكبهم عن أعمدة هرقل، والضرب في عرض هذا البحر المحيط المسمى أوقيانوس. إلاّ أنهم قبل التورّط في مهالكه ومُغوياته أنشأوا لهم في قارة أوروبا مدينة سموها قادش على شبه جزيرة قريبة من أعمدة هرقل. وأقاموا لهرقل هيكلاً عظيماً كانوا يتقرّبون إليه بالأضاحي على مذهب الفينيقيين. وما زال هذا الهيكل الى عهدنا اليوم قبلة المصلّين والمتعبّدين، يؤمه الكثير من أعيان الرومان يرفعون إليه أدعيتهم ويحملون إليه نذورهم[٣٧].

صور المجد والبهاء وشدة النفوذ خرج منها قدم (قدموس. وحرف السين لاحقة يونانية) ابن ملك صور، فسعى الى بلاد اليونان، وأسس مدينة «طيبة» ثم مدينة «قدميا» (نسبة الى اسمه. ومن هذا الاسم جاء مصطلح أكاديمي وأكاديمية). وعلم اليونانيين استعمال الحروف الهجائية، كما يقول هيرودتس.

ويقول ديودورس الصقلي إن قدموس بنى هيكلاً في احدى الجزر اليونانية (رودس). ويذكر ديودورس من بين مشاهداته في الهيكل وعاء زجاجياً عليه نقوش فينيقية.

وفي زيارته لاحدى الجزر اليونانية ذكر هيرودتس من بين مشاهداته في الجزيرة، معبداً لهرقثيل يعود الى زمن هجرة قدموس. وقال إن الجزيرة تحمل اسم ثازوس الذي جاء على رأس جماعة من الفينيقيين لاستعمار الجزيرة واستثمار مناجمها.

صور العريقة في التاريخ والحضارة، التي خرجت منها ايليسار ابنة ملك صور في القرن التاسع ق.م. على رأس حملة حضارية، وأسست قرطاجة في ساحل افريقيا المتوسطي عام ٨١٤ ق.م.

وصور التي تغنّى بمجدها أنبياء التوراة. فأشعيا مثلاً يشير الى صور «المفتخرة التي منذ الأيام القديمة قدمها.. صور المتوّجة التي تجارها رؤساء ومتكسّبوها كرام الأرض ٢٣: ٧».

ويتحدث حزقثيل عن صور التي «انكسرت مصاريع الشعوب، وتحوّلت إليها.. صور المعمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين ألقوا رعبهم على جميع جيرانها ٢٦: ٢ و١٧». صور «تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة. تخومك في قلب البحور. بناؤوك تمّموا جمالك.

عملوا كل ألواحك من سرو سنير. أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوا لك سواري. صنعوا من بلّوط باشان مجازيفك. صنعوا مقاعدك من عاج مطعّم في البقس من جزائر كتّيم. كتّان مطرّز من مصر هو شراعك ليكون لك راية. الأسمانجوني والأرجوان من جزائر اليشة كانا غطاءك. أهل صيدون وأرواد كانوا ملاّحيك. حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك. شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلاّفوك. جميع سفن البحر وملاّحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك.. ترشيش تاجرتك بكثرة كل غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك. ياوان وتوبال وماشك هم تجارك. بنفوس الناس وبآنية النحاس أقاموا تجارتك.. بنو ددان تجارك. جزائر كثيرة تجار يدك. أدّوا هديّتك قروناً من العاج والابنوس. أرام تاجرتك بكثرة صنائعك. تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرّز والبوص والمرجان والياقوت... دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك... وددان وياوان قدّموا غزلاً في أسواقك. العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك. تجار شبا ورعمة هم تجارك، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك. حرّان وكنّة وعدن تجار شبا وأشور وكلمد تجارك. سفن ترشيش قوافلك لتجارتك، فامتلأت وتمجّدت جداً في قلب البحار.. عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين. بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض. حزقئيل ٢٧».

ويتغنّى حزقئيل بالمجد الذي كان لملك صور فيقول «ها أنت أحكم من دانئيل. وما دونك سرّ مستور. بحكمتك وبفهمك حصلت لنفسك ثروة، وحصلت الذهب والفضة في خزائنك. بكثرة حكمتك كثرت يسارك.. أنت خاتم الكمال وكامل الجمال وممتلىء حكمة. كنت في عدن جنة الله. وكان كل حجر كريم كساء لك. من العقيق الأحمر والياقوت الأصفر. ومن العقيق الأبيض (الماس) والزبرجد والجزع واليشب. من اللازورد والبهرمان والزمرد والذهب. أنت الكروب المنبسط المظلّل. كنت على جبل الله المقدس. وتمشّيت في وسط حجارة النار. أنت كامل في طرقك من يوم خلقت. حزقئيل ٢٨».

وصور بلسان النبي زكريا «بنت لنفسها حصناً. وكوّمت الفضة كالتراب، والذهب كطين الأسواق ٩ : ٣».

صور الكنعانية العريقة في التاريخ والحضارة، أراد لها المؤرخ كمال الصليبي أن تؤسس، في عملية جبرية قاهرة، في غرب شبه الجزيرة العربية بعد القرن العاشر ق.م. على اعتبار أن الكنعانيين الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية الى الساحل السوري «على أثر الهزائم المتتالية التي ألحقها بنو اسرائيل بهم في مواطنهم الأصلية»، قد أنشأوها في موطنهم الجديد ـ الساحل السوري.

والمدهش أن الصليبي يستشهد بما دوّنه هيرودتس في تاريخه «نقلاً عن كهنة مدينة صور الفينيقية في أيامه (القرن الخامس ق.م.) أن هذه المدينة انشئت قبل ٢٣٠٠ سنة من تلك الأيام. (القرن الخامس ق.م.) ص ٣٤.

فتأمل أيها القارئ المستنير: صور الصليبي أسست بعد القرن العاشر ق.م. (يعني في التاسع). وفي هذا القرن بالذات خرجت منها ايليسار ابنة ملك صور، وأسست قرطاجة. وصور هيرودتس أنشئت قبل ٢٨٠٠ سنة ق.م. وسفنها التي جابت البحار والمحيطات منذ الألف الثالث ق.م. جعلها الصليبي «قوافل حيوانات محملة». وصور خرج منها قدم (قدموس) قبل الألف الثاني ق.م. ونشر الأبجدية الكنعانية في أوربا.. تأمل خلط العصور واختلاق الأصول. وتأمل مؤرخاً يريد أن تكون عيوننا حفراً تسقط فيها تفاهاته من غير أن نستطيع رؤيتها. والسؤال: كيف يستطيع القارئ المستنير أن يقرأ تفاهات الصليبي من غير أن يصاب بالقيء أو الغثيان أو بالجنون والتوتر؟.

وبلاد «يام» التي تقع «زور الوادعة» بمحاذاتها، يقارنها الصليبي بلفظ «يم» الذي يعني عمق المياه. يقول بالحرف «زور الوادعة بمحاذاة بلاد يام (قارن مع يم العبرية).» ص ٣٤ (كذا يقارن بلاد يام بلفظ يم الذي يعني عمق المياه). مدهش هذا المؤرخ الذي يستفرغ تفاهاته وجهله على الآخرين. ويريد من القارئ أن يكون مستسلماً لتلفيقاته، مستيقناً بكتابه الحافل بالتشوّهات والعاهات والبذاءات المعبّرة وغير المعبرة.

وينفي الصليبي أن يكون الملك أحيرام قد تربّع يوماً على عرش صور. يقول «وتتحدث التوراة عن الملك حيرام (حيرم) ملك صر. ومامن ملك قديم بهذا الاسم معروف بأنه نصب على مدينة صور اللبنانية. والفينيقي أحيرام (ءحرم) كان ملك جبيل، وهو مكان مختلف تماماً. وهناك اختلاف في الاسم أيضاً بين حيرم وءحرم» ص ٣٥.

في هذا الكلام وجوه فاحشة من التدجيل والتقصير. فهو أولاً يدخل في اطار عمليات التزييف التاريخية، وتشويه الحقائق، التي انتهجها الصليبي، والتي بلغت في كتابه من الدقة حدّاً أوقع كثيرين من المثقفين في مهاوي الأضاليل. وساق جماعات من مشاهير الكتّاب والعلماء الى وهاد الأوهام.

وهو ثانياً يعبّر عن اصرار صاحبه على تجاهل تاريخ هذه الأرض. ونفيُه أن يكون ملك باسم أحيرام قد تربّع على عرش صور، يمثّل عملية اعتداء على التاريخ، وبالحري محو للتاريخ.

وهو ثالثاً يتميّز بالسذاجة وقصر النظر. وفيه من السطحية المتعالمة، والفهم المغلوط، والجنوح الى التبريرات التافهة التي يسوقها المؤرخ بلا أدنى تدبّر، ما يجعله أقرب الى أسلوب المهاترة منه الى آداب البحث والمناظرة. فصاحبنا المؤرخ الألمعي يعتقد أن أحيرام اسم خاص لملك جبيل. وليس من الضروري أن يكون هناك أحيرام آخر ملكاً على صور.

وما طرحه حضرة المؤرخ من شروح وتمحّلات وتعاليل مريضة، يعبّر عن ضحالة وعيه وضعف بصيرته وقصور ذهنه في الموضوع الذي يعالج. فهو أولاً يعمد الى تصحيف الاسم (أحيرام ـ أخو العلى)، ومسخه مسخاً شنيعاً، وتشويهه تشويهاً غريباً. فخرج لديه «حيرام، حيرم، «حرم». وباعتقاده أن هذه الصيغة التي ابتدعها، تصحيفاً وتحريفاً، تختلف عن صيغة أحيرام ملك جبيل.

وهو ثانياً لا يعرف أن أحيرام يعني «اخو العلا». وهذا الاسم واحد من اسماء معبّرة كثيرة شاعت في مجتمعات سوريا الطبيعية قديماً. وهي تعبّر عن مفاهيم أخلاقية واجتماعية كانت المثل الأعلى لسائر المذاهب الفكرية والأخلاقية التي أبدعها أو وضعها الانسان عبر العصور. وقد كان لها على مرّ العصور أثر كبير في تقوية الدوافع الاجتماعية وتوطيد الأخلاق وبناء المجتمع على أسس سليمة من الدوافع النبيلة والأخلاق الفاضلة. ومثل هذه الأسماء كثير وتاريخي في مجتمعات سوريا الطبيعية، من مثل أبرام (أبو العلى) الذي حرّفه محررو التوراة الى ابراهيم. ويعتبره المؤمنون بالديانات التاريخية «ابو» الأنبياء. ومثل أحيرام (أخو العلى) ملك صور. وأحيرام آخر ملك جبيل. ومثل أحيقار (أخو الوقار) الأرامي (القرن السابع ق.م.) الذي أعطى بلغته الأرامية ما ساهم في إغناء الأدب اليوناني، خاصة باب الأمثال فيه. وما كان له أثر بالغ في التوراة

اليهودية وفي انجيل المسيح أيضاً. ومثل أب شالوم (ابو السلام) وأب ندب (ابو السخاء والكرم والجود) وأب صدق (ابو العدل) وأب أوس (ابو العطاء) و.. ومثل هذه الاسماء المعبّرة شائع كما قلنا في مجتمعات سوريا الطبيعية جميعها. فمن الاسماء التي وردت في النقوش الكنعانية[٣٨]: أب شالوم. أب ندب. أخ ندب. ومن الاسماء التي وصلتنا من تراث المدن ـ الدول الأشورية[٣٩]: أب شالوم. أخو وقار. ومن الاسماء التي وردت في قوائم الاسماء الشخصية في مدرسة المعبد في نيبور[٤٠]: شلم أبي. شلم أخي. أبي طب. ومن الاسماء الأمورية[٤١]: أخو أقرو. ومن الاسماء التي وصلتنا من تراث نوزي[٤٢] في حوض النهرين: أخو وقار. ومن الاسماء التي صنّفها جبسون[٤٣] من النقوش السورية المكتشفة: أب سالوم. أخي رام. أحي ملك. ومن الاسماء التي صنّفها أولمستد[٤٤] من تراث فلسطين: أب سالوم. ومن الاسماء التي وصلتنا من تراث ديدان[٤٥] في العربية الشمالية: أب سالوم. أوس أخو. ومن الاسماء التي وردت في ما وصلنا من تراث لحيان في العربية الشمالية[٤٦]: أب سلام، أب شكر. ومن الاسماء التي صنّفها ركمانز[٤٧] من نقوش العربيتين الشمالية والجنوبية: أخ ندب. أب أوس. أب حمد. أب كرب. أب سلم. أب صدق. أب رضو.

صيدون: في تحديده لأرض كنعان يقول المحرّر التوراتي «وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة. وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم الى لاشع. سفر التكوين ١٠ : ١٩».

ويقول المؤرخ كمال الصليبي «من المؤكد أن صيدون الواردة هنا ليست هي الميناء اللبناني (صيدون). وإنما هي قرية 'آل زيدان' في مرتفعات جبل شهدان. وهي واحدة من بين أربع 'صيدونات' تدعى 'زيدان' أو 'آل زيدان'، توجد حتى اليوم في أجزاء مختلفة من عسير».

من الواضح أن صاحبنا المؤرخ كمال الصليبي يكتب في موضوعات، ليس له أدنى دراية أو إلمام بها. أو أنه لا يفهم فيها شيئاً على الاطلاق. فهو لا يعرف مثلاً أن مفهوم «ان» ـ (السيد) ظهر في التاريخ قبل الألف الرابع ق.م. في حوض النهرين الأدنى. وظلّ كصفة للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء (الله بمفهومنا) مترسّخاً في الذهنية الحضارية السورية لأكثر من ألفي

سنة. وفي سوريا الغربية لحق لفظ «ان» إمالة مضمومة بفعل البيئة واللسان، فصار «أُون». والدلالة الوحيدة التي بقيت لنا سليمة، الى حد ما، من هذا المفهوم، هي الاسماء المقترنة بالصفة «أون» ـ (السيد) في مركب اسنادي أو اضافي. فمن اسماء المدن والمناطق الطبيعية المقترنة بـ «أون» ـ (السيد) في سلسلة جبال لبنان الغربية نذكر: عرم ون التي تعني «السيد يكدّس الخيرات في البيادر». ومن الطبيعي أن مدلول عرمون في مفهومهم هو مدلول «الله يكدّس الخيرات في البيادر» في مفهومنا، لأن «أون» (السيد) في مفهومهم هو «الله» في مفهومنا. وقس على ذلك الاسماء جميعها المقترنة بـ «أون» في مركب اسنادي أو اضافي. كفرون (قرية السيد ـ الله). عين هرم ون (السيد ـ الله يعلي، يرفع). زينون (السيد ـ الله يغمرنا بالسناء والبهاء). اشم ون (اسم الله). بشم ون ـ بشامون (يطيّب الله). بحمدون (جمال، ملاحة، بهاء الله). حصرون (السيد ـ الله يحمي). صيدون (السيد ـ الله يزوّد، يموّن).

ومن الاسماء المشهورة في سوريا الغربية المقترنة بـ «أون» ـ (السيد) نذكر: شمعون (يسمع الله) رحم ون (يرحم الله) عبدون (عبد الله). رام ون (يعلي الله). هلّ ون. مارون. جدعون..

فـ «صيدون» ـ (يزوّد، يموّن الله) من الاسماء المعبّرة التي شاعت في سوريا الغربية. ومثل هذه الاسماء التي تدخل صيغة «أون» ـ (السيد) في تركيبها، محصور في سوريا الغربية.

جبيل: يقول فيها حضرة المؤرخ الألمعي «جبيل قد تكون جبل أو قبل بالعربية. وهناك أماكن كثيرة تحمل هذا الاسم في غرب شبه الجزيرة العربية، ومنها 'القابل' في إقليم نجران» ص ٣٥.

جبيل التي يعتقد علماء الآثار أن مبانيها التي ترجع الى أكثر من ستة آلاف سنة ق.م. تعتبر أقدم أبنية حجرية في العالم[٤٨].

جبيل التي احتضنت ميثولوجيا «أدون» و «عشتروت». وعن الجبيليين انتقلت الى اليونان. ففي جبيل كان لـ «أدون» ـ (السيد) الدور الذي كان لدموزي السومري وتموز البابلي والبعل الكنعاني. فهو قوة الحياة الخضراء النابتة من الأرض. هو العنصر المذكّر، مبدأ التناسل والخصب. زاخر بالقوة في الربيع، لكنه يموت في الصيف، ثم يبعث من جديد في مستهل الربيع.

إن ما وصلنا عن «أدون» ـ (سيّد الخصب) في جبيل، قليل، قياساً بما وصلنا عن البعل في أوغاريت. وأغلبه جاءنا عن طريق الاغريق الذين اقتبسوا هذه العقيدة بكل جزئياتها وتفاصيلها. لم يغيّروا فيها شيئاً غير بعض الأسماء بفعل البيئة واللسان. وكل ما تقوله النصوص الميثولوجية عن «أدون» أنه يموت في رحلة صيد في أعالي جبال لبنان مصروعاً بناب خنزير بري. فتنبت على ما جرى من دمه في الأرض شقائق النعمان، وتصطبغ مياه النهر، نهر أدون، باللون الأحمر القاني على ما جرى فيه من دمه.

كان الناس يندبون موته المفجع ويبكونه بحرقة وألم. وقد شاعت طقوس التفجّع بموته وإن لم يصلنا عنها إلاّ القليل، ومما نقله الاغريق، أو ما حفظه الكتّاب السوريون المتأخرون مثل لوسيان السميساطي الذي زار جبيل في القرن الثاني للميلاد ورأى، كما يقول، طقوس الحداد على موته تعم البلاد. ووصف مشاهد من تلك الطقوس كتقديم الأضاحي، وإقبال الفتيات البالغات على جزّ شعرهن. أو تقديم أنفسهن حيث ينالهن الغرباء. وبذلك تعتبر تضحية المرأة بباكورة أنوثتها، كتضحيتها بشعرها، مشاركة للسيدة افروديت ـ عشتروت في أحزانها. وأشار لوسيان أيضاً الى اعتقادهم بقيامة «أدون» من الموت في اليوم الثاني أو الثالث. وصعوده الى السماء. يقول «ولقد رأيت في جبيل هيكلاً ضخماً أُقيم باسم أفروديت (عشتروت) يُحيون فيه طقوساً على شرف أدونيس. فيزعم أهل جبيل أن الحادث الذي جرى لأدونيس مع الخنزير البري وقع في بلادهم. ولذلك فهم يحتفلون بذكرى هذا الحادث كل عام في جو من الحزن يعمّ البلاد كلها. فتراهم يعمدون الى ضرب أجسادهم على اعتبار أن شعورهم بالأوجاع من جراء الضرب هو مشاركة لأدون في أوجاعه، ولعشتروت في أحزانها. ومن ثم ينصرفون الى جزّ شعر رؤوسهم. أما النساء اللواتي لا يرغبن في جزّ شعر رؤوسهن فكان عليهن أن يستسلمن للغرباء. وحين كانوا يكفّون عن البكاء وعن ضرب أجسادهم يقدمون الأضاحي. وفي اليوم التالي يعلنون أن أدون بعث من الموت وصعد الى السماء»[٤٩].

اقتبس الاغريق معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية من جملة ما اقتبسوه عنهم من علوم وآداب وفنون. ويبدو أن عقيدة الخصب الغنية بطقوسها وشعائرها كانت من أكثر المعتقدات السورية انتشاراً وأبلغها تأثيراً في

بلدان حوض المتوسط. ففي الأساطير الاغريقية أن أدونيس شاب جميل أولعت افروديت به حباً. ولما كان الفتى مولعاً بالصيد، حاولت افروديت كثيراً كي تصرفه عن هوايته المحفوفة بالأخطار، ولكنها لم تفلح. وفي أحد الأيام قتله خنزير بري. ولما نزل الى العالم السفلي أبت برسفوني سيدة ذلك العالم أن تعيده الى افروديت، مع أن سيدة الحب نزلت بنفسها الى العالم السفلي لتفدي حبيبها من سلطان الموت. ولم يحسم النزاع بين سيدة الموت وبين سيدة الحب إلاّ زيوس، إذ حكم بأن يبقى أدونيس مع برسفوني تحت الأرض شطراً من السنة. ومع افروديت في العالم العلوي شطراً آخر.

وقد انتشرت طقوس أدون وعشتروت في انحاء الامبراطورية الرومانية كافة. وكان الناس في جزيرة قبرص يمارسون طقوسهما أيضاً، خاصة في بلدة أماثوس على الساحل الجنوبي، وبلدة بافوس في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة. ويذكر هيرودتس أن معبد كيثارا في بافوس كان لعشتروت السماوية، بناه فينيقيون من أشقل اون (اشقلون ـ عسقلان). وعشتروت السماوية هذه عرفها بنو اسرائيل باسم «ملكة السماوات» كما يقول نبيهم ارميا ٧: ١٨ و٤٤: ١٧. وعرفها الاغريق باسم افروديت أورانيا أي السماوية، كما يقول هيرودتس.

وتتضح جهالة صاحبنا المؤرخ أكثر ما تتضح في مسألة اعتباره جبيل كلمة مجردة (أي غير مركبة): «جبل أو قبل أو القابل». والحقيقة أن جبيل من الاسماء المركبة المعبّرة، فهذا الاسم مخفّف من جبئيل التي تعني بيت ايل (بيت الله). ولا تزال كلمة «جب» عند اللبنانيين تعني البيت أو الأصل أو العائلة. فكثيراً ما نسمع في القرى اللبنانية، خاصة القرى ذوات الأصل الارامي، قولهم: فلان من جب فلان. وبفعل طبيعة البيئة واللسان كانت جب ايل على ألسنة الاغريق باب ايل. ثم أضافوا اليها اللاحقة الاغريقية س S فصارت باب ايلوس.

جبيل العريقة في التاريخ والحضارة. اقتلعها المؤرخ كمال الصليبي من على الساحل اللبناني، وأحالها، في عملية جبرية قاهرة، الى «القابل» في اقليم نجران من غرب شبه الجزيرة العربية، وكأنه يحسب عيون قرائه حفراً تسقط فيها تفاهاته دون أن يستطيعوا رؤيتها. أو يحسب عقولهم الغافلة أو المعطّلة تستطيع أن تزدرد كل ما تضمّنه كتابه من سخافات وتفاهات. أو يحسب أن المثقف في هذا المجتمع أصبح وعاء تتجمّع فيه أجهل الغباوات في التاريخ. وعاء يتسع

لكل بصاق المصابين بأمراض الجهل المتعفّن والثقافة المشوهة.

لبنان: الاسم المشع عراقة وحضارة، مسخه البروفسور المؤرخ كمال الصليبي الى لُبينان وأراد له أن يكون اسماً لجبلين، الأول في الحجاز والآخر في اليمن. وهو يرى «أن أرز لبنان كان أشجار عرعر عملاقة في أرض لُبينان باليمن». ويضيف باسلوبه التوكيدي المعروف «ولا شك (كذا ولا شك) في أن ثلوج لبنان هي ثلوج محلية في المنطقة ذاتها». ص ٣٥

لن أتحدث عن لبنان التاريخ والحضارة، فهناك عشرات المجلدات ومئات الابحاث (طبعاً باللغات الغربية) التي تناولت تاريخ هذا الجبل وحضارته. ولكني أود أن أوضح لحضرة البروفسور المؤرخ كمال الصليبي أن هذه الصيغة (لبنان أو لبنون) هي اسم لمسمى واحد هو هذا الجبل الراسخ على الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط الذي كان الثلج يكسوه طوال أيام السنة في الزمن القديم. وقد ذكرنا في أكثر من موضع في هذا البحث وفي أبحاثنا السابقة أن مفهوم «ان» ـ (السيد) السومري الأصل الذي ساد في هذا الجبل منذ عصور مبكرة تسبق التاريخ المدوّن، كان على ألسن المجتمعات في سوريا الغربية بامالة مضمومة «أون». ومن المفروض على حضرة البروفسور صليبي المختص باللغات السامية كما يزعم أن يعرف أن الفعل لبن 𐤋𐤁𐤍 يعني باللسان الكنعاني: يبيّض. وعليه يكون مدلول لبنان أو لبنون: الله يبيّض أو يبيّض الله.

أما مسألة تحويل الصيغة الى لُبينان وجعلها اسماً لجبل في الحجاز وأرض باليمن. وتحويل الارز الى عرعر، فهي مسألة تشويه أو تزوير أو تزييف أو تلفيق أو تدجيل، سمّها ما شئت، خاصة بالبروفسور المؤرخ كمال الصليبي.

والمدهش أن حضرة المؤرخ تغافل عن الحضارة الكنعانية التي تدفّقت مع خطوط التجارة من مراكز الانطلاق: صور، صيدون، جبيل، أوغاريت وغيرها من منائر الشرق، ومن المستعمرات التي أنشأها الكنعانيون في الغرب: القرية «العتيقة»، «القرية الحديثة» ـ قرطاجة، «مرسى ايل» ـ مرسيليا، جزيرة «القرية» ـ كريت، «قادش» وغيرها، أخذت تشق طرق اتجاهها في الغرب المتوسطي منذ الألف الثاني ق.م. فتتوزّع على المدن اليونانية وتتغلغل في أماكن متفرقة من أوروبا الغربية. وقد أدّت دوراً مهماً وأساسياً في تكوين وتطوير حضارة البحر المتوسط. أو بالأحرى مجموعة مدنيات هذا البحر. وبذلك وجدت المنجزات

الحضارية العظيمة التي قام بها الانسان القديم في الشرق المتوسطي، سبيلها الى مجتمعات حوض المتوسط، وأصبحت نواة للحضارة الكلاسيكية التي نشأت في بلاد اليونان. وتركت أعمق الأثر وأوسع المدى في تكوين الفكر الأوروبي القديم. قال سترابو الاغريقي الذي عاش في القرن الأول ق.م. «إن الفضل في معارفنا عائد الى الفنيقيين»[٥١]. وحديثاً يقول المؤرخ فكتور بيرار في مقدمة كتابه «الفينيقيون والأوديسة»[٥٢] «لقد حلّ الفينيقيون (كنعانيو الساحل السوري) المكان الأول في المتوسط قبل العصر الهليني. ويرقى أثرهم الى الألف الرابع ق.م. وقد أصبحوا أسياداً دون منازع في الألف الثالث ق.م. فجعلوا من المتوسط ميداناً حضارياً عالمياً. ومن الصعب أن نفهم شيئاً من عادات اليونانيين وصناعاتهم وعلومهم ولغتهم ومعتقداتهم ونظرياتهم الفكرية والفلسفية، ومن الأناشيد الهوميرية أيضاً، إلاّ اذا فهمنا دور هؤلاء المعلمين (الكنعانيين) وتعاليمهم في الحقول جميعها».

ويقدّم غيره من المؤرخين دراسات مفصّلة للصِلات الحضارية بين بلدان الشرق المتوسطي واليونان في القرن السابع ق.م. فيتحدث دونبابن مثلاً عن أثر الحضارة السورية القديمة في بلاد الاغريق قبل القرن الثامن ق.م. وعن مدى اسهام المشرقيين في الحضارة اليونانية. وباختصار، يؤكد نظرية الأصل السوري للحضارة اليونانية[٥٣].

فأوروبا والغرب بشكل عام مرتبطان بالشرق المتوسطي حضارياً ارتباط الأبناء بالاباء. قد يختلف الابن بصفاته وبروحه عن الأب، ولكن لا بد للابن من أن يحتفظ بالكثير من صفات الأب[٥٤].

ويضيف بيرار «لقد كان الفينيقيون لليونان ما كان اليونانيون بدورهم للرومان، وما كان الرومان للغرب، والغربيون أخيراً للانسانية جمعاء.

ويؤكد بيرار على الدور الذي قام به «هؤلاء المعلمون» في حملهم انتاجهم الحضاري الأول ـ خميرة الحضارة العالمية، بقوله «عندما بدأ اليونانيون يتلمّسون المعارف العلمية والمعتقدات الميثولوجية الأسيوية (السورية)، كان قد تجمّع في مناثر الشرق بعد ثلاثين قرناً من التطور تراث عظيم من الآداب والمعتقدات. وكانت العلوم قد توصلت الى انجازات ضخمة في حقول الحساب والهندسة والفلك والطب والكيمياء. بينما لم يكن لدى اليونانيين قبل ذلك أية افكار

ميثولوجية أو علمية خاصة بهم. وهكذا حصدوا دفعة واحدة ومن دون جهد ثمار ثلاثة آلاف سنة من الحضارة».

فبيرار، في وعيه حقيقة التطور الحضاري، خلص الى نتيجة مفادها أن الذين ينظرون الى الظاهرة الحضارية اليونانية على أنها انبجاس مفاجىء لطاقات بشرية محلية، سطحيون في تفكيرهم ساذجون في أحكامهم. فليس في الوجود الحضاري للانسان ملمح واحد أو خط واحد لا يرتد الى أصل قديم نشأ النشأة الهادئة البطيئة، وتطور التطور العميق في خلال التجربة الحضارية المستمرة والمتصلة حقباً وآماداً من الدهر طويلة.

وبيرار، في وعيه هذه الحقيقة، أدرك أن اليونانيين لم يشيدوا صرح الحضارة، أو قل لم ينشئوا الحضارة إنشاء. لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه. وكانوا الوارث المدلّل المتلاف لذخيرة من الأفكار والفنون والعلوم والآداب مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف سنة، جاءت الى مدنهم مع قوافل التجارة أو بغيرها من وسائل الاتصال.

وأندريه بارو يؤكد كبيرار أيضاً على دور الكنعانيين في حمل ميراث سوريا الحضاري العريق الى الشعوب الأوروبية، بقوله «يوم كانت أوروبا ما تزال تعاني آلام معرفة الأصول المجردة للحياة الاجتماعية والفنية والسياسية، كان الشرق الأدنى قد تجاوز منذ زمن طويل عتبة المدنية. وقطع انسانه مراحل عديدة حقق فيها تقدماً وطيداً على طريق الحضارة». ويضيف بارو «ومن يستطيع أن ينكر أن المعرفة جاءت من هذا الشرق؟»[٥٥].

لقد كانت المجتمعات الكنعانية غنية بالخلق والعطاء. ولشد ما كان عطاؤها عظيماً في مجالات العلوم والآداب والمعتقدات الطافحة بالقيم والفضائل والمفاهيم الانسانية السامية. يقول المؤرخ غوردون تشايلد «إن الكنعانيين في انتشارهم التجاري كانوا ينشرون في العالم القديم معطياتهم الفكرية والعلمية واللغوية ومعتقداتهم الميثولوجية»[٥٦]. ويرى أن حضارة أوروبا لم تكن لمدة طويلة غير انعكاس ضئيل لحضارة الشرق المتوسطي القديمة. ويتحدث المؤرخ ساباتينو موسكاتي، وفي أكثر من مجال، عن الخصائص التي تميّزت بها الحضارة الكنعانية. أعني الخصائص المميّزة لثقافتهم وللوقائع التاريخية والسياسية والفنية والأدبية التي تسم هذه الحضارة. ويشير أيضاً الى تنوع

خصائصهم الحضارية والى تطورها واستمرارها في المستعمرات والمراكز التي أنشأها الكنعانيون في الغرب المتوسطي[٥٧].

أما المفكر الالماني ف. موفرز[٥٨] (أواسط القرن التاسع عشر) فقد وضع كتاباً عن الفينيقيين يدور في مجمله حول تأكيد نظرية الأصل الفينيقي للحضارة اليونانية. ويتحدث عن صعوبة الوقوف على هذا الأصل، أو على الأقل إحصاء العناصر الحضارية التي اقتبستها الشعوب الأوروبية القديمة عن الكنعانيين، والتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الأوروبية.

والكنعانيون الذين كانوا «رسل المدنية الى العالم»[٥٩]، كما يقول المؤرخ جورج بوتسفورد، يلخّصون في ما قدّموه الى اليونان ميراثاً حضارياً ضخماً لشعوب الشرق المتوسطي التي أعطت البشرية، في مضمار الحضارة، خير ما يعطى من تشريع ومعتقدات وعلوم وفنون وآداب، أرست أُسس الحضارة في العالم القديم، «وكان لها أثرها الباهر في تكوين وارتقاء الحضارة الغربية»[٦٠]. يقول المؤرخ رالف لنتون «لقد أثّرت المدنية السورية القديمة على المدنية الأوروبية أكثر من أي مركز آخر من مراكز المدنيات المبكرة. وقد بدأنا منذ وقت قريب ندرك مدى الدين الكبير الذي تدين به الحضارة الاغريقية القديمة لهذه المنطقة. كما أن دين الحضارة الهيلينستية أكثر وأعظم، لأن النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تضمّنتها هذه الحضارات قد أخذت مباشرة من هذا المنطقة، ثم انتقلت هذه النظم عن طريق الحضارة الهيلينستية الى الامبراطورية الرومانية، ومنها الى غرب أوروبا»[٦١].

ويُضيف لنتون مفصّلاً القول في ما رفد به الكنعانيون مجرى الحضارة «ولعل أهم ما قدّمه الكنعانيون وساهموا به في المدنية كان في ميداني العلوم الرياضية والفلك من ناحية. وفي ميدان المعتقدات الميثولوجية من ناحية أخرى».

وإذا كان المؤرخ جيمس برستد قد أجمل هذا الأثر بقوله «في حوض المتوسط الشرقي تطورت الحضارة التي ورثتها الآن شعوب أوروبا وبالتالي أميركا»[٦٢]. فإن علماء اليونانيات يفصّلون القول في هذا الأثر وأهميته ومداه في مختلف النواحي. فبولسن مثلاً فصّل في مؤلفه «الشرق والفن اليوناني القديم»[٦٣] كل الحقائق الأركيولوجية المتوافرة في عصره عن الفن الكنعاني في

التعدين والنحت، وخصوصاً النحت في العاج الذي كان الكنعانيون وحدهم تقريباً يتخصّصون به. وقد تمكن بولسن من تثبيت الأثر الكنعاني إثر اكتشاف عدد من الأوعية المعدنية والعاديات العاجية في نمرود وقبرص وكريت وفي أولمبيا وأترووريا وإيطاليا، يدل نوعها وشكلها وأسلوبها الفني على أنها كنعانية الصنعة، أو أنها صنعت مباشرة تحت تأثير الفن الكنعاني.

ودرويفلد في كتابه «أولمبيا القديمة»(٦٤) يُرجع أصول الفن المعروف لدى العلماء بالنزعة الهندسية (حوالي القرن التاسع ق.م.) الى أصول كنعانية، نشرها الكنعانيون الذين قطنوا بلاد اليونان في أواخر الألف الثاني ق.م.

ولا ننسى أن المعتقدات الكنعانية الميثولوجية تركت أثراً عميقاً في الفكر الاغريقي القديم. يقول المؤرخ انطون مورتغات «تعتبر بلدان الشرق المتوسطي مركز الديانات (يقصد المعتقدات). مركز الاشعاع العقائدي الذي أنار شعوب الأرض. وسيبقى تأثير الشرق الروحي في ديننا وفننا ظاهراً الى الأبد»(٦٥). ومن جهتي لا أرمي في هذه العجالة الى الحكم على مستوى فعل الكنعانيين الحضاري من خلال إسهامهم في خلق وتطوير حضارة البحر الأبيض المتوسط. أو من خلال الأفكار والمعتقدات التي انبثقت عنهم وعمّت مجموعات متعددة من الشعوب القديمة، ودامت أكثر من غيرها في مساحب التاريخ. وإنما أود الاشارة الى بعض الأسماء والصفات (القوى العالية) التي اقتبسها الاغريق من تراث كنعان العريق، وأخذوا بها أو تبنوّها. ومن الطبيعي أن وراء الاسماء والصفات تراثاً من المفاهيم والمعتقدات كان له أثره في مفاهيم الاغريق ومعتقداتهم أيضاً. (وهذا الموضوع يحتاج الى دراسة خاصة).

فمن باب الصفات نشير أولاً الى الصفة «ايل» ـ (العالي) ـ (الله) الذي حمله الكنعانيون في صدورهم وليس في كتب تبشير. ويبدو أن الاغريق آمنوا بهذا المفهوم فتسمّوا به على عادة المجتمعات التي عرفوها أو احتكوا بها في سوريا الطبيعية. غير أنهم أساؤا الفهم بتحويلهم الصفات الى اسماء. فقد جعلوا من الصفة «ايل» اسماً، وأضافوا اليه اللاحقة اليونانية «س» وأطلقوه على أشخاص ومدن ومظاهر طبيعية. من ذلك مثلاً ايلوس Elos الذي أطلقوه على مدينة مجاورة لطروادة. وأضافوا اللاحقة «س» الى ايلي فصار ايلياس Elias. وكذلك فعلوا بالصفة «أدون» ـ (السيد). نظروا اليها كاسم علم وأضافوا اليها

اللاحقة «س» فصارت أدونيس. والصفة هدد ـ أدادوس Adados والصفة بعل ـ بيلوس Belos.

وقد توصل الأستاذ فونترز، بعد دراسة طويلة ومعمقة للمعتقدات السورية واليونانية القديمة الى القول بأن الإلٰهة البيضاء اليونانية هي الإلٰهة السورية عشتروت Atargatis التي انتشرت عبادتها في سوريا الطبيعية وفي آسيا الصغرى، والتي كتب لوسيان السمياطي كتابه المشهور عنها(٦٦). وأن «أساطير الإلٰهة البيضاء التي وصلت إلينا هي من أصل سوري خالص»(٦٧).

ومن باب الاسماء نشير الى اسم اشيل (اش ايل) ـ (يعطي ايل) بطل ملحمة الالياذة لشاعر الاغريق هوميروس. واسم فرجيل (فرج ايل) ـ (يفرج الله) شاعر الرومان المشهور.

قلنا إن الكنعانيين حملوا إلٰههم «ايل» في صدورهم وليس في كتب تبشير، فكانوا يطلقون على كثير من الأمكنة التي يصلون إليها أو يحلّون فيها، اسماء يدخل «ايل» في تركيبها. فعندما أرست سفنهم مثلاً في مكان ما على شواطىء أوروبا الغربية، سمّوا المكان «مرسى ايل». ومع الزمن قامت في هذا المرسى (المرفأ) مدينة كبيرة (مرسيليا). وعندما عبروا المضيق الواصل بين المتوسط وبين الأطلسي أطلقوا عليه اسم «هرق ايل».

ويبدو أن «هرق ايل» كان بطلاً أو تجسيداً أسطورياً لبطل قومي. خلع عليه الناس نعوتاً خارقة، وأضفوا عليه صفات الأولياء والقديسين. وحين تعاظم قدره في نفوسهم انثنوا يطلبون شفاعته ورعايته لبعض الأمور الحياتية الغامضة، ولدرء الأخطار والمصاعب. وتيمّنوا باسمه. يقول هيرودتس إن في صور معبداً لهرقل عظيم القداسة. وقد انتشرت معابد هرق ايل في المستعمرات الكنعانية في غربي المتوسط، ففي قادش (على الأطلسي) مثلاً كان له معبد مشهور. وفي بلاد الاغريق بلغ هرق ايل مرتبة الألوهة. ذكره هوميروس في الالياذة.

لا مجال هنا لالقاء الضوء على الحضارة الكنعانية التي انطلقت من مدن الساحل الكنعاني: صور، صيدون، جبيل، أوغاريت، وغيرها من المنائر، وعمت أوربا. والسؤال الذي يمكن أن يوجّه الى حضرة البروفسور المؤرخ هو: الكنعانيون الذين أطلقوا على إحدى الجزر المتوسطية اسم كريت (القرية). وعلى المستعمرتين اللتين انشأوهما في افريقيا الشمالية: اسم القرية «العتيقة»

واسم القرية الحديثة (قرطاجة). وعلى المضيق الواصل بين المتوسط والأطلسي اسم هرق ايل. وعلى المستعمرة التي انشأوها على ساحل الأطلسي اسم قادش (القدس). وعلى المستعمرة التي انشأوها على شواطىء أوربا الغربية اسم مرسى ايل (مرسيليا). هؤلاء الكنعانيون هل خرجوا من واحة زور الوادعة وقرية آل زيدان والقابل ولُبينان في غرب شبه الجزيرة العربية؟ أم انطلقوا من منائر كنعان على ساحل المتوسط الشرقي: صور وصيدون وجبيل وأوغاريت وغيرها؟.

وميثولوجيا هرق ايل، هل انطلقت من واحة زور الوادعة أم من صور الكنعانية على ساحل المتوسط؟. وكذلك ميثولوجيا أدون (أدونيس) التي عمت بلاد الاغريق، هل اقتبسها الاغريق من قرية القابل في غرب شبه الجزيرة العربية، أم من جبيل الكنعانية على ساحل المتوسط الشرقي؟.

الواقع ان تلفيقات وتدجيلات البروفسور المؤرخ كمال الصليبي سياط تجلدنا من داخلنا. تجلد عقولنا وأخلاقنا ومشاعرنا وكل شيء فينا. والسؤال: كيف يكون الانسان أحياناً صغيراً وتافهاً الى حد يبصق عيوبه على الآخرين. ويستفرغ تفاهاته وجهله عليهم. كيف يستطيع ذلك؟. وكيف يجرؤ عليه؟ وكيف يجرؤ على مواجهة الآخرين به؟.

وبالعودة الى الحواضر الكنعانية نرى الصليبي يستخدم في مسخها كل موسّعات العربية: القلب والابدال والتصحيف والتحريف والنحت والاحتباء والدواخل والكواسع. وهكذا أصبحت صور العريقة في التاريخ والحضارة، وبالجبر التاريخي الذي برع فيه الصليبي، أصبحت واحة زور الوادعة. وتحولت صيدون الى قرية آل زيدان. وجبيل مسخت الى القابل، ولبنان الى لُبينان. والسؤال: لماذا صاغ هذا البروفسور المؤرخ تفكيره وفهمه وايمانه في مثل هذه الحماقات والاكاذيب والتلفيقات؟. لماذا أصر على الجمع بكل حماسة بين اقتناعه بتلك النظرية الشوهاء، بكل تعصّب وتصميم، وبين خضوعه للواقع المخالف لها بكل افتضاح؟.

وكيف أطاق أولئك المثقّفون المعجبون بكتاب الصليبي أن يبتلعوا كل هذه السخافات والتفاهات التي عرضها المؤرخ في كتابه؟. وكيف استطاعت عقولهم أن تبتلع كل هذا التضليل؟. وأن يبتلع ذكاؤهم كل هذه الغباوات؟.

إن منطقي لا يستطيع أن يفهم موقف مؤرخ عربي تمثّل همّه في البحث عن

أعلى مستويات التلفيق والتدجيل لتدوينها في كتاب، يلقي به الى السوق العربية قاصداً الايحاء للعقل العربي أن بإمكانه الدخول في هذه الحلبة واحراز قصب السبق. أو الدخول في عملية تلويث واذلال هائلة لذكاء الانسان ولكبريائه العقلية.

وان أخلاقي لا تستطيع أن تغفر لقطعان من الخصيان ذهنياً، الفاقدين للفحولة العقلية والأخلاقية، الذين يكنّون لكتاب الصليبي كل مشاعر الرضا. ولدى سؤالهم يحاولون أن يعبّروا عن رضاهم بكل لغات الرضا. الذين هيأوا لمؤيرخ أن يقرأ تفاهاته وعاهاته ونقائصه بأعلى صوت، وفي جميع الاسواق والنوادي والجامعات. وأن يقرأها قراءة عالمية.

أرثي لهم لأن وجوههم تحوّلت الى مباصق للجهل والتدجيل. وبهم أو برضاهم وسكوتهم المعبّر عن اقتناعهم، أصبحت تشوّهات المؤرخ وعاهاته وبذاءاته لامعة مدوّية ومقروءة بلغات كثيرة، ومطروحة في جميع الاسواق.

إمارات وممالك أرام

قلنا إن الصليبي حين عمد الى زرع اليهود، تاريخاً وديناً، في غرب شبه الجزيرة العربية، كان من المفروض عليه أن يزرع في المكان عينه بعض أقوام سوريا الطبيعية، مثل الفلسطينيين والكنعانيين والأراميين، نظراً لتداخل تاريخ بني اسرائيل بتاريخ الأقوام التي احتكّوا بها في هذه الأرض.

وقبل أن نعرض ما قاله في الأراميين، نرى من الضروري القاء بقعة من الضوء على حضارة الأراميين التي كانت أروع الحضارات التي سبقت الاسلام، وأطولها عمراً.

قلنا في ما تقدم إن الأراميين كانوا في بداية ظهورهم على مسرح التاريخ قبائل رحّلاً، توزّعوا بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر ق.م. في أقاليم الهلال الخصيب. ولكن وجودهم السياسي لم يتضح إلا بعد ضعف أو تفكك الامبراطوية الامورية، أو بعد تقلّص نفوذها حوالي ١٥٠٠ ق.م. في هذا الوقت بدأت الممالك والامارات الأرامية تأخذ دورها السياسي. والجدير بالذكر في هذا المجال أن الأراميين كانوا يطلقون على مدنهم أو اماراتهم أو ممالكهم اسماء تقترن بـ «ارام» في مركب اسنادي أو اضافي، من مثل:

ارام النهرين
فدّان أرام (لا يزال مصطلح فدان في اللغة المحكية السورية الى اليوم)
أرام بيت عديني (في تل برسيب على الفرات الأعلى)
أرام بيت بخياني (في تل حلف في وادي النهرين)
أرام بيت يكيني (في جنوب بلاد النهرين)
أرام بيت رحوب (في وادي الليطاني الأوسط)

أرام معكة (في الجولان السوري)
أرام جشور (بين اليرموك ودمشق)
أرام دمشق

والمعروف أن الأراميين وصلوا الى ذروة مجدهم وعظمتهم أواخر القرن العاشر ق.م. فكان نفوذهم يشمل الهلال الخصيب من رأس الخليج الى فلسطين، باستثناء مدن الساحل الكنعانية التي ظلت محتفظة باستقلالها الذاتي. ولكن قوّة توسّع الأراميين لم تصحبها القدرة على تنظيم فتوحاتهم أو تنظيم دولهم. فلم يتوصّلوا الى تكوين مملكة قوية أو انشاء وحدة سياسية فاعلة. والأهمية التاريخية للدول الأرامية قد تكون طفيفة اذا ما قيست بالدور الحضاري الفريد الذي قدّر للاراميين أن يؤدوه في الشرق المتوسطي، فقد تفوّق اللسان الأرامي والثقافة الأرامية وطبعا الشرق المتوسطي بطابع أرامي واضح وعميق الأثر بقي يتجلّى ويتسع حتى مجيء العرب المسلمين.

وهكذا كانت نهاية السيادة السياسية للأراميين بداية لعصر توسّع من نوع جديد. والطاقة التي كبحت بسرعة في الميدان السياسي تحوّلت الى الميدان الحضاري. يضاف الى ذلك أن الأراميين وحّدوا مصادر حضارة سوريا الطبيعية، فألفوا بين العناصر البابلية والكنعانية، ونقلوها الى المسيحية، ومنها الى الغرب. (ومن المعروف أنهم نقلوا في عصور متأخرة الثقافة اليونانية من الغرب الى الشرق).

كانت اللغة الصورة الأساسية بين الصور المختلفة للحضارة الأرامية. ولكن اللغة ليست فكرة أو منحى ثقافياً، وإنما هي وسيلة لاكتساب الثقافة والتعبير عنها ونشرها. والواقع أن ما أسهم به الأراميون في مضمار الحضارة كان كبيراً. فقد كانت بلادهم ملتقى النتاج الثقافي للدول القوية المحيطة بهم. وكانت لغتهم، وبالحرى لسانهم، أداة لاستيعاب الثقافة ونقلها. وقد تجاوزت حدود تاريخهم، وصارت عنصراً في حضارة المتوسط[٦٨] فاستطاع الأراميون توحيد مصادر حضارة الشرق المتوسطي ودفقها في مجرى واحد، كان له أثر كبير في إخصاب العالم القديم بمقومات الحضارة على اختلافها.

كان الأراميون على صلة وثيقة بالكنعانيين في سوريا الغربية. وكانت قوافلهم تنقل من صور وصيدون وجبيل وأوغاريت الى الداخل السوري ما كان

يجلبه البحارة الكنعانيون من مدن حوض المتوسط، أو ما تنتجه الحواضر الكنعانية.

وحوالي القرن العاشر ق.م. أو قبل ذلك بقليل تبنّى الأراميون أبجدية الكنعانيين في كتابتهم، فانكفأت أمام هذا الاسلوب الكتابي الجديد أساليب الكتابة المسمارية القديمة جميعها. وكان من الطبيعي أن يتغلّب الخط الأرامي بسهولته ووضوحه على الخط المسماري البالغ الصعوبة والتعقيد. وأن يتغلّب اللسان الأرامي على الالسن المحلّية التي كانت منتشرة في بلاد النهرين وفي الشمال السوري.

وهكذا انتشر اللسان الأرامي والخط الأرامي في بلدان الشرق المتوسطي منذ القرن العاشر ق.م. فالاشوريون مثلاً أقبلوا على تعلّم الأرامية منذ القرن التاسع ق.م. وعندما سقطت دولة أرام دمشق بين أيديهم (٧٣٢ ق.م) استعملوا الكتّاب الأراميين في دواوينهم وأعمالهم. ثم عملوا على تبنّي اللغة الأرامية. وأخيراً اعتمدوها لغة رسمية. وبعد سقوط نينوى (٦١٢ ق.م.) ظلّت بلاد أشور أرامية اللغة والثقافة. وعندما سقطت بابل بأيدي الفرس (٥٣٩ ق.م.) اعتمد كورش الأرامية لغة رسمية للامبراطورية الفارسية. وفي عهد داريوس الأول (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق.م.) امتدت الدولة الفارسية من النيل الى الهندوس، فانتشرت الأرامية انتشاراً واسعاً واذا بها لغة العالم القديم: سوريا الطبيعية ومصر وفارس وبعض آسيا الصغرى. والواقع أن النصوص والنقوش الأرامية المكتشفة في بابل وأشور وأوروك ونيبّور ولارسا، لا تقع تحت حصر. وقد عثر المنقّبون على كتابات بالأرامية في أقاصي آسيا الصغرى واليونان وافغانستان ومنغوليا ومنشوريا والهند، وكذلك في بلاد فارس وبلاد العرب (تيماء والحجر وايلات). وبلغة فيليب حتي[٦٩] إن الآثار المكتوبة بالأرامية منتشرة من أقاصي الصين شرقاً الى ضفاف الدردنيل غرباً. ومن شواطىء البحر الأسود شمالاً الى أطراف الهند والنيل جنوباً. وهو شأو لم تبلغه لغة أخرى من اللغات القديمة». وبتعبير توينبي[٧٠] إن مجال الأرامية كان واسعاً جداً، فقد امتد شمالاً الى جبال الأمانوس وشرقاً الى جبال زاغروس وغرباً الى وادي النيل. ويقول رينان[٧١] «لقد طمست الأرامية في القرن السادس ق.م. كل اللغات التي سبقتها، وأصبحت اللغة الأولى خلال أحد عشر قرناً». وقد استطاعت الأرامية أن تحل

محلّ الكنعانية في فلسطين منذ القرن الثامن ق.م. وفي أيام السيد المسيح كانت الأرامية هي اللسان المحلّي الوحيد، فتكلم بها المسيح ورسله.

وربما استطعنا أن نعزو هذا الانتشار الواسع الى توزّع الأراميين إمارات وممالك في أقاليم سوريا الطبيعية على اختلافها. والى انتشارهم تجّاراً ومزارعين في أرجاء البلدان جميعها. والى قوة الأرامية التي تكمن في كثرة مفرداتها، وقابليتها الواسعة للاشتقاق، وبساطة أبجديتها، وسهولة نحوها وصرفها. والنصوص الأرامية التي تعود الى القرن الثامن ق.م. تبيّن أن الأرامية تطوّرت من حيث اللهجة، واستعارت بعض التعابير الكنعانية، وتركّزت على قواعد نحوية وصرفية تثير الاعجاب. والواقع أنه لم يكن بين الألسن السورية العربية لسان يضاهي الأرامية من حيث الغنى اللفظي وسعة الانتشار وشدّة النفوذ. يقول أبو الخير الطائي (توفي ٢٢٦ هـ) بعد اختلاطه بالأراميين في سوريا، «وقد وفّقت الى تلقّفه (اللسان الأرامي) بسرعة لسهولته وعذوبته وسلاسة ألفاظه. وهذا اللسان هو اللغة المعروفة باسم السوريانية، وهي أول لغات الخلق»[٧٢].

هذه المجتمعات الأرامية التي توزّعت في أقاليم سوريا الطبيعية ممالك وإمارات، والتي حملت مشعل الحضارة في العالم القديم على مدى خمسة عشر قرناً (القرن العاشر ق.م. حتى ظهور الاسلام ٦٢٢ م)، اقتعلها البروفسور المؤرخ كمال الصليبي من الأرض التي تجذرت فيها (سوريا الطبيعية)، وأرست فيها أعظم حضارة في العالم القديم، وزرعها في غرب شبه الجزيرة العربية. فـ «أرام النهرين مثلاً لم تكن في بلاد ما بين النهرين، بل كانت قرية النهارين، وهي اليوم من منطقة الطائف في جنوب الحجاز. وفدان أرام كانت قرية الدفينة في جنوب الحجاز، وليست مكاناً في بلاد ما بين النهرين». ودمشق العريقة في التاريخ والحضارة، مسخها الصليبي الى «ذامسك في منطقة جيزان في غرب شبه الجزيرة العربية. . وأرام بيت رحوب وارام صوبة، هما اليوم إما رحاب في منطقة الطائف، والصابة على مقربة منها في وادي أضم، أو هي رحاب المسماة رحاب المعتمة، والصوبة في منطقة رجال ألمع. ومن المؤكد (كذا من المؤكد) أن أرام كانت تضم الاجزاء الجنوبية من الحجاز». ص ٣٠

هذا ما أراده الصليبي. وهذا ما أملاه عليه منطقه الجبري. وليخرس المؤرخون، ولينفلق ذوو النظر الثاقب والمنطق السليم والتفكير المنهجي

القويم. وليستسلم القراء خاصتهم وعامتهم في الغرب والشرق لـ (الحقائق) المذهلة التي أعلنها الصليبي، استسلاماً مطلقاً.

صحيح ان الدجل المكتوب والمقروء كان مفقوداً من سوق الكتابة العربية. ولكنه لم يكن مرفوضاً أو محرّماً. حتى مارسه الصليبي على اعتبار أنه موهبة أو مزيّة أو حضارة.

وبغياب الانسان المفكر كان افتقارنا الشديد الى معاناة الرفض والغضب والاحتجاج والانكار المتمثلة في النقد، على اعتبار أن التفكير مستوى انساني. والذين لا يفكرون لا يعرفون النقد احتجاجاً أو انكاراً.

ولما كان مجتمعنا مصاباً بأدواء مذهلة من ضحالة الثقافة وطفولة الوعي وبداوة النفس وتعطيل العقل وعهر الأخلاق، كان القراء في هذا المجتمع بأكثريتهم أجهزة استقبال، لا ترفض ولا تناقش أو تنقد أو تفهم ما يقدّم إليها.

ولما كان القارىء في هذا المجتمع لا يفكّر في ما يقرأ، ولا ينقده، ولا يتخاصم أبداً مع عقله، صار ينعت اسخف الكتابات بالصدق والواقعية والموضوعية. وصرت تراه في سلام وتوافق عقلي تام مع كل الكتابات التي تفقأ الحصرم في عينيه. وصار ذهنه وعاء يلقي فيه الوغّاظ الجهّال والمخادعون، والكتّاب الدجّالون، كل ذنوبهم وهمومهم ومتاعبهم العقلية والأخلاقية. صار وعاء تتجمع فيه أبشع ضروب التلفيق وأندر أنواع الغباوات وأشنع أشكال الجهالة. وبالتالي صار الدجل الفكري، باعتباره كما هو باعتبار الصليبي، موهبة أو مزية أو حضارة.

الفلسطينيون ومدنهم

أكرّر القول حين عمد الصليبي الى زرع اليهود، تاريخاً وديناً، في غرب شبه الجزيرة العربية، كان من المفروض عليه أن يزرع في المكان عينه بعض أقوام سوريا الطبيعية، مثل الفلسطينيين والكنعانيين والأراميين، نظراً لتداخل تاريخ بني اسرائيل بتاريخ الأقوام التي احتكّوا بها في هذه الأرض.

يقول الصليبي «لم يكن اليهود أول من استوطن فلسطين قادماً من غرب شبه الجزيرة العربية، بل هناك الفلسطينيون الذين وصلوا ولا شك من غرب شبه الجزيرة العربية قبلهم. وهناك أيضاً الكنعانيون الذين نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية ليعطوا اسمهم لأرض كنعان على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين» ص ٣٣

درج المؤرخون بغالبيتهم تقريباً على القول أو الظن بأن الفلسطينيين يعودون في أصلهم الى جزيرة كريت، اعتماداً على ما ذكره محرّر التوراة في سفر سموئيل الأول ٣٠: ١٤ «فاننا (الكلام لأحد مرتزقة العماليق) قد غزونا على جنوبي الكريتيين، وعلى ما ليهوذا، وعلى جنوبي كالب. وأحرقنا صقلغ بالنار». وعلى ما ذكره في سفر حزقئيل ٢٥: ١٦ «هكذا قال السيد يهوه: هانذا أمدّ يدي على الفلسطينيين، واستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر». وعلى ما ذكره في سفر صفنيا ٢: ٥ «ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين. كلمة يهوه عليكم. يا كنعان أرض الفلسطينيين، إني أخربك بلا ساكن».

الملاحظ أن المرتزق العماليقي ذكر الكريتيين من غير أن يقرنهم بالفلسطينيين. ويبدو من كلام النبي حزقئيل أن الفلسطينيين غير الكريتيين، فهو يقول أمدّ يدي على الفلسطينيين، واستأصل الكريتيين. وكذلك يفعل النبي

صفنيا، فهو يذكر كلاً من القومين على حدة: سكان ساحل البحر أمة الكريتيين. ويا كنعان أرض الفلسطينيين.

وعلى كل حال لا يعنينا التعليق على هذه الاشارات الغامضة أو غير المفهومة، الى الكريتيين لدى كل من سموئيل وحزقئيل وصفنيا. ولا يعنينا البحث في أصل الفلسطينيين، سواء أقدموا من جزيرة كريت في احدى موجات البحر، أم هاجروا الى ساحل فلسطين من مكان آخر، أم كانوا من سكان هذا الساحل قبل التاريخ المدون. وإنما يعنينا أنهم أعطوا اسمهم لهذه الأرض، وهذا خير دليل على الارتباط العميق والقوي والقديم الذي كان لهم بهذه الأرض. ويعنينا أيضاً أن نوضح للبروفسور المؤرخ كمال الصليبي وللمغفّلين الذين يأخذون بمقولته أو يتبنّون نظريته، أن جزيرة كريت (القرية) هي جزيرة كنعانية، أو قل إن الكنعانيين هم الذين أطلقوا عليها الاسم ونشروا فيها حضارتهم في زمن مبكر من الألف الثاني ق.م. ويبدو أن هذا الاسم أو الصفة (القرية) كان شائعاً لدى الكنعانيين ولذلك كانوا يطلقونه على كثير من الأماكن التي يحلّون فيها. ففي شمال فلسطين مثلاً كان لهم «قرية شمون» ـ (كريات شمون). وفي شمال افريقيا كان لهم أقدم مستعمرة كنعانية هي القرية «العتيقة». وحين وضعوا أسس المستعمرة الثانية أطلقوا عليها اسم «القرية الحديثة» Qart-hadašt (قرطاجة) تمييزاً لها عن الأولى «العتيقة».

المهم أن جزيرة كريت (القرية) الكنعانية اقتلعها المؤرخ كمال الصليبي من قلب البحر الأبيض المتوسط، وزرعها في عسير. قال «كانت وادي كَريث (كرث)، وهو رافد لوادي تَيّه في مرتفعات رجال ألمع. وهناك واحة تسمى الكَراث (كرث) في وادي بيشة. وهناك أيضاً قرية تسمّى الفَلْسَة (قارن مع العبرية فلشت، التي يكون جمع النسبة إليها فلشتيم، أي فلستيين. وهناك كرات أخرى قرب غُمَيْقة في منطقة الليث، وثالثة في وادي أضم من منطقة الليث، حيث توجد أيضاً قرية اسمها الفصيلة (ربما الاسم تحوير عن فلشت بقلب الأحرف، وقد تحوّلت فيه الشين في اللفظ المحلّي الى الصاد وليس الى السين المعتادة)».

* * *

وفي محاولة المؤرخ كمال الصليبي «تحديد الهوية التاريخية للفلسطينيين» يعود الى ما دوّنه محرّر التوراة من اسماء ميثولوجية في سفر التكوين التوراتي.

فحين عزم اليهود القدماء على كتابة قصة أصولهم الميثولوجية، كان لا بدّ لهم في ذلك من الرجوع الى أزمنة البدء، بسرد قصة التكوين بشكل مقتضب، كمقدمة لاثبات السلاسل البشرية التي اعتبروا أنفسهم متحدّرين منها. فمن آدم الى قايين وهبئيل وشيث. ومن هذا الأخير الى نوح، ومن نوج الى سام وحام فيافث.

وبما أن المحرر التوراتي يصنّف الفلسطينيين في سلسلة أنساب حام. يعمد الصليبي الى زرع أجداد الأجيال الميثولوجية من حام الى فلشتيم في غرب شبه الجزيرة العربية. يقول محرّر التوراة «وهذا مواليد نوح.. سام وحام ويافث. سفر التكوين ٦ : ٩». «وبنو حام كوش ومِصْرايم وفوط وكنعان. تكوين ١٠ : ٦».

يتغافل الصليبي عن الأقوام التي تحدّرت من كوش وفوط وكنعان، ويذكر مصرايم فقط، يقول «ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوخيم وفتروسيم وكفتوريم وكسلوحيم، ومن هذا الأخير ولد فلشتيم» ص ٢٤٦

ويقول الصليبي «إن الاسماء الواردة في هذه اللائحة يمكن أن تعرّف من خلال جغرافيا غرب شبه الجزيرة العربية». وعلى هذا الاعتبار يجد المؤرخ صليبي:

حام: في قرية الحمّ في منطقة القنفذة. أو الحم في منطقة قنا والبحر.

ويجد **كوش** في الكوثة في جوار خميس مشيط.

ويجد **مصرايم** في قرية مضروم في سراة غامد. والمرجح أنها إما المصرمة في جوار أبها، أو مصر في وادي بيشة، أو آل المصري في منطقة الطائف.

ويجد **فوط** في الفاتية في منطقة القنفذة، أو الفوايط في رجال ألمع. وربما قلب الاسم أيضاً الى الطائف.

ويجد **كنعان** في آل كنعان أي إله كنعان في وادي بيشة. وتوجد أيضاً قبيلة تحمل اسم القنعان.

ويجد **لوديم** في لوذان في رجال ألمع، ولوذان في منطقة القصيم بنجد، ولِدّان في منطقة الطائف، واللدّة في منطقة الليث.

ويجد **عناميم** في الغنامين ـ اسم لقريتين في منطقة الطائف. وهناك قريتان تسميان الغُنمّ، والأخرى الغَنَمَة.

ويجد لهابيم في بني لهب، قبيلة من الأزد في اليمن. وهناك أيضاً قرية تسمّى اللوهابي في منطقة نجران، وأخرى تسمى أبي لهب في منطقة جيزان.

ويجد نفتوحيم في المفاتيح في منطقة الطائف. وهناك قرية تسمى مفتاح في منطقة الليث. ويظهر الاسم مستمراً في الوجود كاسم لقبيلة الفطاحين في منطقة الليث.

ويجد فتروسيم في قبيلة الفرسات في شمال الحجاز.

ويرى في كسلوحيم جمعاً من النسبة الى كسلح، باتباع التحريف، وذلك باستخراج اللام الداخلية لتصبح أداة التعريف العربية، فإن كسح يمكن أن تكون اليوم الحُسَكة في شمال شبه الجزيرة العربية، أو القصح في وادي أضم. وهناك قبيلة في منطقة الطائف تسمى اليوم الحُسْكان.

ويجد كفتوريم في الفَقَرات، وهي تحوير بنقل الأحرف عن كفتر، في وادي بيشة. أو الرَّفَقَات في منطقة جيزان.

ويجد فلشتيم في الفَلْسَة في وادي بيشة، وفي شلفى قرب أبها، وفصلة في منطقة القنفذة، وأربع قرى تسمى الفصيلة.

وهكذا يعمد الصليبي الى اسماء الآباء الميثولوجيين في سلسلة أنساب نوح، فيزرعهم في غرب شبه الجزيرة العربية قرى ومناطق ـ حقائق تبهر وجه الشمس. فحام أراد له أن يكون قرية الحمّ. وأراد لكوش أن يكون الكوثة. ولمصرايم أن يكون مضروم أو المصرمة أو آل المصري. ولفوط أن يكون الفاتية أو الفوايط. ولكنعان أن يكون القنعان. وللوديم أن يكون لوذن أو لذّان أو اللذّ أو اللذّة. ولعناميم أن يكون قرية الغنامين أو قرية الغُنم. وللهابيم أن يكون أبي لهب. ولنفتوحيم أن يكون قرية المفتاح أو قبيلة الفطاحين. ولكسلوحيم أن يكون قرية الحُسَكة أو القصح أو قبيلة الحسكان. ولكفتوريم أن يكون الفَقَرات أو الرَّفَقَات. ولفلشيتم أن يكون قرية الفُلْسة أو فصلة أو الفصيلة أو. . . أو. .

فتأمل أيها القارىء المستنير كيف أجبر حضرة المؤرخ اللوذعي هذه الاسماء الميثولوجية على أن تكون اسماء قرى ومناطق في غرب شبه الجزيرة العربية، متجاوزاً موسّعات العربية: القلب والابدال والتصحيف والتحريف والاحتباء والنحت والدواخل والكواسع، الى المسخ والتشويه، وابتكار الاسماء

التي يجعلها بالمنطق الجبري توافق الاسماء التي يعرضها أو يتناولها.

وما يدهشك في هذا المؤرخ اللوذعي هو تماديه في رصف التلفيقات البالغة الغرابة، واجتراؤه على العقل والحقيقة، وتقديمه التفسيرات التي تتميّز بالبله والقصور الى درجة بعيدة، وجمعه من الأوهام أغربها ومن السخافات أوهنها.

والسؤال: اذا كانت جزيرة كريت (القرية)، باعتبار الصليبي طبعاً، هي كرت ـ رافد لوادي تيّه في مرتفعات رجال ألمع في غرب شبه الجزيرة العربية. وكانت الاسماء الميثولوجية: حام وكوش ومصرايم وفوط ولوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم وكفتوريم وفلشتيم هي قرى ومناطق الحمّ والكوثة ومضروم أو آل مصري، والفوايط ولوذان أو اللد، والغنامين أو الغُنمّ، وأبي لهب والمفتاح أو الفطاحين، والفرسات، والحسكة أو الحسكان، والفقرات أو القفرات، والفلسة أو الفصلة أو الفصيلة أو.. أو.. هل تؤدي هذه التلفيقات القميئة والتمحّلات البذيئة الى اطلاق الحكم الجازم: «من الواضح (كذا من الواضح) أن الفلسطينيين كانوا من شعوب غرب شبه الجزيرة العربية الذين جاوروا بني اسرائيل، ليس فقط على امتداد ساحل البحر الأحمر بل أيضاً في مرتفعات السراة وفي حوض وادي بيشة في الداخل»؟. ص ٢٥١

مدهش هذا المؤرخ الذي يصرّ على الاختلاق والتلفيق والتدجيل. ويتمادى في رصف التلفيقات البالغة الغرابة والمنافية لأبسط أحكام العقل. وهو، بالحاحه المكثّف على ترديد التلفيقات، يستفرغ تفاهاته وجهله على الآخرين.

ومدهش هذا المجتمع الذي تحوّل القرّاء فيه الى قطعان من المخصيين ذهنياً، الفاقدين للفحولة العقلية والاخلاقية. أو تحولوا الى أجهزة استقبال، لا ترفض ولا تناقش أو تنقد أو تفهم ما يقدّم إليها.

يبدو أن هذا المؤرخ (كمال الصليبي) قد اكتشف أن العرب لا يحتاجون الى شيء مثل احتياجهم الى جراب من التلفيق والتدجيل، يُدوّن في كتاب ويُدرّس في الجامعات. ولعلّه رأى أن يهزّ وقار العرب الفكري وجدهم العقلي، على اعتبار أن رصانة العقل العربي لا يمكن تحطيمها إلا بأشد أشكال التلفيق والتدجيل تطرّفاً. ولعلّه أراد لنا، نحن القراء المستنيرين، أن نبتلع شكّنا وغيظنا. وأن نحتبسهما في حلوقنا وأفواهنا. وأن نختزن مشاعر الغضب والاحتجاج.

والمؤسف أن اختزان المشاعر المحتجّة يؤذي أصحاب هذه المشاعر كاختزان القيح.

* * *

وعن مدن فلسطين يقول البروفسور المؤرخ «يبدو أن الفلسطينيين أطلقوا على عدد من مستوطناتهم في فلسطين اسماء هي في الأصل اسماء لأماكن في غرب شبه الجزيرة العربية جاؤا منها» ص ٣٤ فـ «غزة»، باعتبار الصليبي، هي «العَزّة في وادي أضم. وفي الجوار نفسه توجد قرية دغما (دغم المحولة عن دغن أي دجن مع لاحقة أداة التعريف الأرامية)، ناهيك عن دغونة الواقعة عبر الشق المائي من وادي أضم. وهناك دغونة أخرى في منطقة عفيف بنجد. وفي وادي أضم أيضاً قرية الدقم (دقم، قارن مع دجن) وأربع قرى أخرى اسمها الدقم في مناطق مختلفة من الحجاز. وهناك (غزّات) أخريات في عسير الساحلية، هي العَزّة في منطقة المجاردة، وآل عزة في منطقة بلّسمر، وعزّ قرب البرك». ص ٢٥٢ .

فواحدةٌ من هذه القرى والمناطق التي يعدّدها الصليبي. العَزّة، دغما، دغونة، الدقم، آل عزة، عز. أو أي واحدة أخرى من «الغزّات» الكثيرات، لا بد أن تكون هي غزة الفلسطينية. (كذا، شئت أم أبيت).

وأشدود، بقلم الصليبي أيضاً هي «السدود في رجال ألمع، حيث توجد أيضاً قرية تسمّى ذروة آل دَغْمة («قمة» الاله دغم، أي داجون)». وهناك «أشدودات» أخريات في غرب شبه الجزيرة العربية، ومنها قريتا السِداد في منطقة جيزان، والشديد في منطقة مكة المكرمة. وهناك أيضاً قرية اسمها السُّداد في منطقة الطائف».

ومن الطبيعي أن واحدة من قرى: السدود، ذروة آل دغمة، السداد، الشديد، أو غيرها من «الاشدودات» هي، باعتبار الصليبي طبعاً، مدينة اشدود الفلسطينية.

واشقلون، بقلم الصليبي أيضاً، «هي إما شقلة بدون لاحقة التعريف السامية القديمة، في جوار القنفذة، أو ثقالة في الجوار نفسه، وربما الاثنتين».

وجت، بقلم الصليبي، هي «الغاط في منطقة جيزان. وبين أكثر من جت

في غرب شبه الجزيرة العربية، هنالك الغطي في بلاد زهران».

وعقرون، باعتبار الصليبي، «هي عِرقَين (بقلب الأحرف) في منطقة رجال ألمع. إلا اذا كانت الجرعان (بنقل الاحرف) في رجال ألمع أيضاً».

اذا كان المؤرخ الذي لا يشقّ له غبار، كمال الصليبي، قد أجبر (لأن التاريخ جبر باعتباره طبعاً) غزة الفلسطينية على أن تكون واحدة من هذه «الغزّات» الكثيرات. وأجبر اشدود على أن تكون واحدة من الاشدودات. وأجبر جت على أن تكون الغاط أو الغطي، فلا يمكنه، ولو تسلّح بكل ما في العربية من موسّعات. ولو اعتلى أعلى منابر التدجيل في هذه المجتمعات. ولو ظلّ يتحدث بارهاق وديمومة عن مزايا اعتباره أن مدن فلسطين كانت في عسير، لا يمكنه أن يشوّه اشقلون وعقرون صيغة ومضموناً. فقد ذكرنا في ما تقدم أن مفهوم «ان» ـ (السيد) السومري الأصل، تسرّب الى سوريا الغربية بإمالة مضمومة «أُون». واسماء المدن والمظاهر الطبيعية في فلسطين التي يدخل «أُون» ـ (السيد) في تركيبها كثيرة، خذ مثلاً منها: بيرون. جبعون. عدلون. قطمون. بيت حورون. شمرون. يانون. شارون. بيت أون. حرج أون. شمعون. حبرون. صهيون. جيحون. حشبون. حرمون. حنّون. يمانون. جلّون. عبدون. عيلبون. لجون. داجون. شرتون. درعون..

فمدلول الاسم المركب اشقل ون (اشقلون) هو «أُون ـ السيّد ـ الله يأخذ بأيدينا، ينظر الينا بعين الرضى». ومدلول عقرون هو «بذرة، ذرية، نسل أُون». ولا يمكن للصليبي، ولو كان أكبر موهوب في تفسير التاريخ أو في تشويهه وتزييفه، أن يجعل اشقلون شقلة أو ثقالة، أو أن يعتبر «أُون» ـ (السيد ـ الله) لاحقة تعريف سامية قديمة. ولا يمكنه أن يشوّه عقرون ـ الاسم المركب من عقر ومن «أُون» ـ (السيد ـ الله) الى عرقين أو الجرعان.

والسؤال: لماذا يتحدّى الصليبي المنطق والتاريخ؟. لماذا يبصق تلفيقاته وعيوبه في وجوه الآخرين؟. لماذا يمارس على قرّائه عملية تلويث وتذليل مهينة لذكائهم ولكبريائهم العقلية؟. لماذا يريد للقارىء ألاّ يفهم بغير لغته وغير تفاسيره؟. ولماذا هذا الاصرار على تأديب ومعاقبة الذهن العربي الذي لم يصب في كل تاريخه بأي مستوى من مستويات الغفل أو التغافل مثلما هو اليوم في نهاية القرن العشرين بعد يسوع الناصري. لماذا؟.. أليحقّق شهوة العرض

والتعرّي؟. أم لأن الدجل الفكري موهبة أو مزية أو حضارة؟.

* * *

رأينا أن الصليبي، في محاولته اقناع القارىء بأن «مركز الفلسطينيين الأساسي كان في الأراضي المحاذية لساحل تهامة» ص ٢٥٣ وبأن «مدنهم الخمس الرئيسية. غزة وأشدود واشقلون وجت وعقرون، كانت بلا شك (تأمل بلا شك) في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز» ص ٢٥٣ رأينا أنه عمل على اقتلاع جزيرة كريت (القرية) من قلب البحر الأبيض المتوسط، وأجبرها على أن تكون «وادي كرث، وهو رافد لوادي تيّة في مرتفعات رجال ألمع في غرب شبه الجزيرة العربية». وأجبر اسماء الأجداد الميثولوجيين: حام وكوش ومصرايم وفوط ولوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم وكفتوريم وفلشتيم، على أن تكون اسماء قرى ومناطق في غرب شبه الجزيرة العربية. واقتلع مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية من شاطىء المتوسط الشرقي، ونقلها في عملية جبرية قاهرة الى ساحل البحر الأحمر الشرقي.

«ولتبيان مدى قرب التعايش جنباً الى جنب بين الفلسطينيين وبني اسرائيل في المناطق نفسها من الحجاز وعسير» يدرج «تحليلاً طوبوغرافيا لقصة شمشون التي جرت أحداثها كلها تقريباً في بلاد زهران في جنوب الحجاز» ص ٢٥٤ كما يزعم.

ولكي نلقي الضوء على ما فعله الصليبي بهذه القصة الاسطورية، وعلى محاولته جعلها قصة حقيقية تبهر وجه الشمس بحقيقتها وواقعيتها، نوجز الاسطورة كما وردت في التوراة اليهودية:

١ ـ «كان رجل من صرعة من عشيرة دان (أحد اسباط اسرائيل)، اسمه منوح، وامرأته عاقر لم تلد. فتراءى ملاك يهوه (الرب) لها وقال: ها أنت عاقر لم تلدي، ولكنك تحبلين وتلدين ابناً. سفر القضاة ١٣ : ٢». «فولدت المرأة ابناً ودعت اسمه شمشون. . وابتدأ روح يهوه يحرّكه في محلة دان بين صرعة واشتأول. قضاة ١٣ : ٢٤».

«ونزل شمشون الى تمنة، ورأى امرأة في تمنة من بنات الفلسطينيين. قضاة ١٤ : ١».

٢ ـ ولما تخاصم شمشون مع الفلسطينيين «نزل الى اشقلون وقتل منهم

ثلاثين رجلاً. قضاة ١٤ : ١٩». «ثم نزل وأقام في شق صخرة عيطم. قضاة ١٥ : ٨». «فصعد الفلسطينيون ونزلوا في يهوذا وتفرقوا في لحي.. فحلّ روح يهوه على شمشون، ووجد لَحْي حمار طرياً، فمد يده وأخذه وضرب به ألف رجل.. ثم رمى اللحي من يده.. فشقّ يهوه (الرب) الكِفّة (الفك)، فخرج منها ماء، فشرب.. لذلك دعا اسم المكان عين هقّوري. قضاة ١٥».

«وكان بعد ذلك أنه أحب امرأة في وادي سورق، اسمها دليلة».

٣ ـ ومن قصص شمشون الاسطورية أنه التقى مرة «بشبل أسد.. فحلّ عليه روح يهوه (الرب)، فشقّه كشقّ الجدي وليس في يده شيء.. ولما رجع بعد أيام ليرى رمّة الأسد، واذا دَبْرٌ من النحل في جوف الأسد مع عسل. فاشتار منه وأكل.. وأعطى أباه وأمه فأكلا، ولم يخبرهما أنه من جوف الأسد اشتار العسل. قضاة ١٤».

٤ ـ ويضيف سفر القضاة (وصيغة الكلام للصليبي) أن شمشون صنع وليمة لأصحابه بعد أن استخرج العسل من جوف الأسد، وطرح عليهم أحجية تشير الى صنعته العجيبة. والأحجية هي «من الآكل خرج أُكُل، ومن الجافي خرجت حلاوة. قضاة ١٤ : ١٤».

وحين فشلوا في حلّ الأحجية تملّقوا زوجته، فأظهرتها لهم. «فقال لهم شمشون: لو لم تحرثوا على عجلتي لما وجدتم أحجيتي. قضاة ١٤ : ١٨».

فماذا فعل الصليبي بهذه القصة الاسطورية؟.

استعمل الاسلوب الجبري الذي انتهجه:

ـ صرعة أراد لها أن تكون قرية الزرعة في هضاب تهامة.

ـ عشيرة دان ـ اسم أحد اسباط اسرائيل، أجبره الصليبي على أن يكون قرية الدنادنة في الجوار نفسه.

ـ محلّة دان أجبرها على أن تكون قرية المحنى.

ـ اشتأول أجبرها على أن تكون قرية الاشتاء.

ـ تمنة أجبرها على أن تكون قرية المَثَنَة.

المقطع الثاني:

ـ اشقلون أراد لها أن تكون شقلة أو ثقالة في منطقة القنفذة.

ـ عيطم (الصخرة) أجبرها على أن تكون غطمة في وادي أضم

ـ لحي أجبرها على أن تكون قرية لَخْية في وادي أضم
ـ لحي الحمار (فك الحمار) أجبره على أن يكون لَخْية حميرة
ـ رمى اللحي (فعل وفاعل) أجبره على أن يكون قرية رامة لخية
ـ عين هقّوري جعلها قرية القَرى في وادي أضم
ـ وادي سورق أجبره على أن يكون «شُروج في وادي أضم، إلا اذا كانت الشارقة أو الشَرْك في منطقة القنفذة» كما يقول.

المقطع الثالث: عبارة «من جوف الأسد اشتار العسل» أجبرها الصليبي على أن تكون اسماء ثلاثة اماكن:

ـ جوف جعلها قرية جويه
ـ أسد: أعاد الكلمة الى اللسان الكنعاني (العبري برأيه) أريه، وجعله قرية وريه في الجوار نفسه.
ـ العسل: أعاد الكلمة الى اللسان الكنعاني (العبري برأيه) ـ دِبش وجعله قرية الدبش في منطقة قنفذة.

المقطع الرابع: الأحجية «من الآكل خرج أكل، ومن الجافي حلاوة»، قال الصليبي: «هذه الأحجية تعالج مجموعة مؤلفة من مجتمعين أصليين ومستعمراتهما» (كذا):

ـ «من الآكل: اسم المكان الأصلي» (تأمل من الآكل اسم مكان)
ـ «خرج أكل: اسم المستعمرة» (تأمل الفعل والفاعل اسم مستعمرة)
ـ الجافي: أعادها الى اللسان الكنعاني (العبري برأيه) ـ عز وجعلها «اسم المكان الأصلي».
ـ حلاوة: اعادها الى اللسان الكنعاني (العبري برأيه) ـ متوق، وجعلها «اسم المستعمرة».

والمثل ـ اللغز «لو لم تحرثوا على عجلتي لما وجدتم أحجيتي» قلبه الصليبي في عملية جبرية قاهرة الى اسماء أمكنة:

عجلتي: أراد لها أن تكون قرية العَجْلات من قرى تهامة.
أحجيتي: أعادها الى اللسان الكنعاني (العبري برأيه) ـ حيده وأراد لها أن تكون قرية الحَيْد من تهامة.

وبعد، قد لا نؤخذ بعمليات المسخ والتشويه والتحريف والقلب والابدال

و. . التي مارسها المؤرخ صليبي، في تحويل صرعة الى زرعة، وعشيرة دان الى قرية الدنادنة، ومحلة دان الى قرية المحنى، واشتأول الى قرية الاشتاء، واشقلون الى شقلة أو ثقالة، ووادي سورق الى شروج أو الشارقة أو الشَرْك. ولكننا نؤخذ بتحويل صخرة عيطم الى قرية غطمة. وتنتابنا الدهشة الساخرة لتحويل لحي الحمار (فك الحمار) الى قريتين «لخية الواقعة بالقرب من ذي الحميرة» ص ٢٥٥ ويرهقنا التفيهق الصفيق باجبار الفعل والفاعل (رمى اللحي) على أن يكون «قرية رامة لخية في ذلك الجوار».

وفي تعليقنا على المقطعين الثالث والرابع، لا يفيدنا استخدام عبارات من مثل «قد لا نؤخذ، أو نؤخذ، وتنتابنا الدهشة، ويرهقنا التفيهق الصفيق»، لأن تلفيقات المؤرخ وتدجيلاته في تفسير الكلمات أو التاريخ، سياط تجلدنا من داخلنا. تجلد عقولنا ومشاعرنا. أو قل إن العفن التفسيري والتأويلي الذي قدّمه المؤرخ، وُضع في صيغ من التشوّهات والعاهات والبذاءات لا يمكن أن توازيها صيغ أخرى في كتاب آخر. فهو لم يكتفِ بالتلفيقات القميئة والتمحّلات البذيئة والتعاليل المريضة، بل زاد على ذلك ضغثاً على ابالة، فجاءنا بتفسيرات لا تخطر على بال ولا تجول في خاطر انسان. تفسيرات تستهين بالعقل، أو قل إن العقل المستنير يضجّ احتجاجاً ويتمزّق أسفاً وألماً. ومن الطبيعي أن أبشع أشكال الأسى أن يوهَب الناقد عقلاً محتجّاً لا يغفر للدكتور في التاريخ، أو لأستاذ الجامعة، أو للبروفسور، أو للمؤرخ، أو لمن يزيّن اسمه بكل هذه الألقاب، أن يغفر له الاغلاط الفاضحة، والسقطات الهائلات المدوّيات.

فصاحبنا الدكتور، الأستاذ الجامعي، البرفسور، المؤرخ، يحوّل، بمنطقه الجبري طبعاً، عبارة «من جوف الأسد اشتار العسل» الى اسماء أمكنة. ف «جوف» وجد لها قرية جويه. ولما لم يعثر على كلمات تقترب في صيغها من «أسد» و «عسل» أعاد الكلمتين الى اللسان الكنعاني، فتأمل. وكذلك فعل بالاحجية: «من الآكل» جعلها اسم مكان (تأمل). «وخرج أكل» جعلها اسم مستعمرة (تأمل). ولما لم يعثر على كلمات تقترب في صيغها من الجافي وحلاوة، أعاد الكلمتين الى اللسان الكنعاني. وكذلك فعل بالمثل ـ اللغز. فتأمّل ثانية في تخريجاته وتلفيقاته.

والسؤال: لماذا اعتمد حضرة المؤرخ الضليع واللغوي البارع كل هذه

التلفيقات القميئة والتفسيرات الغريبة والمدهشة؟. ولماذا كل هذا الالحاح المكثف على ترديد التدجيل بمستوى هائل من الغفلة أو من الخبث أو من الجهل؟. ولماذا كل هذا الاصرار على الاختلاق الذي يفقأ عيني العقل، والتمادي في الصفاقة الذي يهزم العقل؟. هل تعمّد التدجيل والتلفيق لشهرة تطلّبها؟. والتدجيل والتلفيق إن استُحِلّ يسيرهما ارتُكِب كبيرهما. أم انه ساق كل هذه السخافات والتفاهات ليصل الى الهدف الذي يرمي إليه من وضع كتابه؟.

يبدو ذلك. ودليلنا على ذلك متعدّد البنود والشواهد:

أولاً: أنه ما «أدرج هذا التحليل الطوبوغرافي لقصة شمشون» إلا «التبيان مدى قرب التعايش جنباً الى جنب بين الفلسطينيين وبين اسرائيل في المناطق نفسها من الحجاز وعسير». (تأمل أنه شوّه وصحّف وحرّف ومسخ ونسخ وخبط وخلط و.. وجمع من الأوهام أغربها ومن السخافات أوهنها. وجاءنا بهذا البحث الطافح بالعجائب والغرائب، «لتبيان مدى التعايش (كذا التعايش) بين الفلسطينيين وبني اسرائيل». وأين؟. في الحجاز وعسير طبعاً. وليفهم الفاهمون).

البند الثاني: أو الشاهد الثاني على الهدف الذي يرمي إليه من وضع كتابه، هو ما يؤكده في أكثر من مكان، ومفاده أن واضعي قصة شمشون رموا من «وضعها الى تفسير أصول الأمكنة» ص ٢٥٥ في غرب شبه الجزيرة العربية. (تأمل أنهم ما وضعوها إلا لتفسير أصول الأمكنة. والصحيح أن الصليبي ما استشهد بها إلا لتفسير أصول الأمكنة). فرواية «لحي الحمار» الذي قتل به شمشون ألفاً من الفلسطينيين «وضعت لتفسير اسمي المكانين: لخية وحميرة» ص ٢٥٥ في وادي أضم. واللغز «من جوف الأسد اشتار العسل، وضع لتفسير أصول ثلاثة اسماء لثلاثة أمكنة هي جويه ووريه والدبش.

وفي **البند الثالث** أو الشاهد الثالث يتجلّى تعبير الصليبي عن الهدف الذي يرمي إليه، بلغة صريحة لا موارية فيها. فهو يقول «قرية الدبش في منطقة القنفذة كانت في وقت ما مستعمرة لأناس (يهود) هاجروا إليها من الجَوّة المنسوبة الى ورية في وادي أضم. وفي ربط هذا القول بقصة شمشون تلميح خفي بأن استعمار أهالي الجوّة (يهود) لقرية الدبش حدث في زمان شمشون وتحت

رعايته» ص ٢٥٦ (كذا: استعمار أهالي الجوّة (يهود) لقرية الدبش حدث في زمان شمشون وتحت رعايته. وليفهم الفاهمون).

والأحجية «من الآكل خرج أكل، ومن الجافي حلاوة». يرى الصليبي أنها ما وضعت إلا «لتعالج مجموعة مؤلفة من مجتمعين أصليين ومستعمراتهما. (كذا: مجتمعين أصليين ومستعمراتهما. والمجتمعان طبعاً هما الفلسطيني واليهودي). والمعنى برأي الصليبي طبعاً:

- من الآكل: اسم المكان الأصلي
- أكل: اسم المستعمرة
- الجافي: باللسان العربي يهملها، ويأخذها باللسان الكنعاني (العبري برأيه) عز، ويرى فيها اسم المكان الأصلي
- حلاوة: اسم المستعمرة

ولم يكتف بذلك حضرة الباحث الضليع، بل أضاف قائلاً إن «للأحجية هذه حلاً آخر لم يتوصّل إليه أصحاب شمشون، ولا يفصح عنه سفر القضاة، وهو أنه «من الكولة (في منطقة القنفذة) خرجت مكيلة (في منطقة قنا والبحر). ومن العز (في جوار البرك) خرجت المثقة (في منطقة القنفذة). وفي ذلك ما يشير الى حدثين تاريخيين منسيّين، وهما استعمار أهالي الكولة (يهود) في وقت ما لمكيلة، واستعمار أهالي العزّ (يهود) للمثقة. وفي الأحجية هذه أيضاً، كما في القول السابق، تلميح خفي بأن الاستعمار ربما حدث في أيام شمشون وتحت رعايته». ص ٢٥٧

والطريف في ما عرضه المؤرخ صليبي من قصة شمشون هو الوضوح السافر لتأكيده على مسألة استعمار اليهود القدماء لغرب شبه الجزيرة العربية. وأعتقد أن القارىء النبيه أو اللبيب أو المستنير قد لاحظ الحاح المؤرخ على التلفيقات الشاذة والتمحّلات المنكرة والتعاليل الوقحة، المعروضة على صفحات كتابه بكل مجد وكبرياء. ولاحظ أن المؤرخ وضع كتابه الحافل بالتشوهات والعاهات والبذاءات المعبرة وغير المعبرة، في صيغة من الصلف والقبح والتطاول والادعاء. غير آبه بالقراء الذين هم باعتباره أجهزة استقبال، لا ترفض ولا تناقش أو تنقد أو تفهم ما يقدم إليها. أو هم قطعان من المهزومين نفسياً والمستلبين ذهنياً. وعيونهم، باعتباره طبعاً، حفر تسقط فيها تفاهاته من دون أن

يستطيعوا رؤيتها. وضع كتابه ليقول للجميع، الجميع، وبصريح العبارة أو وقاحتها، «إن قرية الدبش في منطقة القنفذة كانت في وقت ما مستعمرة لأناس (يهود) هاجروا إليها من الجوّة». وإن «استعمار أهالي الجوّة (يهود) لقرية الدبش حدث في زمان شمشون وتحت رعايته» ص ٢٥٦ وليشير الى «حدثين تاريخيين منسيين. وهما استعمار أهالي الكولة (يهود) في وقت ما لمكيلة. واستعمار أهالي العز (يهود) للمثقة. وان هذا الاستعمار حدث في أيام شمشون وتحت رعايته» ص ٢٥٧

يقول ذلك طامساً الحقائق، وحاقناً قراءه بالأضاليل، لأنه يدرك أن الذهن العام في المجتمع الذي يكتب إليه، خامل قانع مستسلم. متعبّد للهوان والضعف. مستعبد ينصاع للتلفيقات بكل رضى وقناعة. مستغرق في الهرب من التفكير ومن فهم أي شيء.

يقول ذلك مستنداً بظهره الى جدار راسخ صلد، شاده الايمان بالكتب المقدسة في رؤوس جماهير تربو على نصف البشرية، لا تعرف شيئاً مما تنطوي عليه دفتا كتابها المقدس. واذا حدث مرة وصدفة أن أحدهم فتح كتابه المقدس ليقرأ، فهو يقرأ بوعي مستلب أو مهزوم أو غافل أو مدجّن.

ولذلك فحين يكتب الصليبي وغيره عن شمشون الذي «حدث الاستعمار في أيامه وتحت رعايته» يصدّق القارىء تجاوباً مع صورة شمشون المجيدة التي ترسّخت في ذهنه بالسماع والنقل. ولا يعرف ما تغافل عنه المؤرخ صليبي، خبثاً أو جهالة، ومفاده أن شمشون كان واحداً من صعاليك بني اسرائيل الذين حكموا جماعتهم في عهد القضاة. ولعلّ سيرة هذا الصعلوك هي من أندر السير في تاريخ هؤلاء الصعاليك، القوّاد، الابطال، الرؤساء، الملوك، الانبياء، الذين تسلّطوا على بني اسرائيل أو قضوا لهم. فشمشون أحب امرأة «من بنات الفلسطينيين» لأن «الفلسطينيين في ذلك الوقت كانوا متسلّطين على اسرائيل. سفر القضاة ١٤ : ١». (من المؤكد أن ما يناهز الألف والخمسمائة مليون من المؤمنين بهذا الكتاب المقدس، لم يروا هذه الجملة ولم يسمعوا بها. واذا ذكرتها لهم فهم لا يصدّقون أن الفلسطينيين تسلّطوا على بني اسرائيل، وأن بني اسرائيل استُعْبِدوا للفلسطينيين فترات طويلة قد تزيد على نصف المدة التي قضوها مستوطنين في بعض مرتفعات فلسطين. وقد ألمحنا الى ذلك في ما

تقدم. واذا حدث مرة وفتحتَ الكتاب المقدس وأشرت الى هذه الآية والى آيات كثيرات مثلها، فهم يستغربون وقد لا يصدقون).

وحدث مرة أن أقام شمشون وليمة في بيت المرأة. «فأحضروا له ثلاثين من الأصحاب». طرح عليهم شمشون أحجية مشروطة: فإن أظهروها يعطيهم «ثلاثين قميصاً وثلاثين حلّة ثياب». وإن لم يقدروا أعطوه مثل ذلك. وعندما أظهروا له الأحجية نزل الصعلوك شمشون وقد «حلّ عليه روح الرب، الى اشقلون فقتل منهم ثلاثين رجلاً وأخذ سلبهم وأعطى الحلل لمظهري الأحجية. سفر القضاة ١٤».

«وشمشون أمسك ثلاث مئة ابن آوى، وأخذ مشاعل، وجعل ذنباً الى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين. ثم أضرم المشاعل ناراً، وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزروع وكروم الزيتون». ثم هرب الصعلوك شمشون «وأقام في شق صخرة عيطم».

«فصعد الفلسطينيون ونزلوا في يهوذا. فقال رجال يهوذا: لماذا صعدتم علينا؟. فقالوا: لكي نوثق شمشون. فنزل ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى شق صخرة عيطم، وقالوا لشمشون: أما علمت أن الفلسطينيين متسلّطون علينا؟. فأوثقوه بحبلين وأصعدوه من الصخرة. فحلّ عليه روح الرب، فكان الحبلان اللذان على ذراعيه ككتان أحرق بالنار.. ووجد لحي حمار طريّاً، فأخذه وضرب به ألف رجل.. ثم رمى اللحي من يده.. فشق الرب اللحي وخرج منه ماء، فشرب. سفر القضاة ١٥».

وشمشون هذا «قضى لاسرائيل عشرين سنة. قضاة ١٥: ٢٠».

(تأمل: شمشون حلّ عليه روح الرب، فاستطاع أن يقتل ثلاثين رجلاً وأخذ سلبهم واعطى حللهم لمظهري الأحجية. وتأمل، ولا يجوز لك أن تسأل: كيف استطاع شمشون أن يمسك ثلاث مئة ابن آوى؟. وكيف وقفوا أمامه حتى استطاع أن يربط مشعلاً بين كل ذنبين؟. طبعاً حلّ عليه روح الرب. ولكن المحرر نسي أن يقول ذلك. وحين كبّل ثلاثة آلاف رجل (كذا) شمشون، وأصعدوه من صخرة عيطم، لم ينس المحرر أن يقول إن روح الرب حلّ عليه، فكان الحبلان اللذان على ذراعيه ككتان أحرق. وتأمل بشمشون يقتل بلحي حمار ألف رجل. وحين جف حلقه من كثرة التقتيل، شقّ الرب اللحي وخرج

منه ماء، فشرب شمشون).

هذا موجز لسيرة شمشون كما قصّها تاريخ بني اسرائيل المقدس ـ كتاب التوراة ـ العهد القديم. وليس في التاريخ أي وثيقة أخرى تناولت سيرة شمشون. والسؤال: أي تاريخ أو وثيقة أو مستند أو نقش أو.. اعتمد حضرة المؤرخ الضليع كمال الصليبي؟. ومن أي مصدر استقى معلوماته التي دونها بكل ثقة واعتزاز، ومفادها أن «شمشون ولد في هضاب تهامة زهران» ص ٢٥٤ وأن «استعمار أهالي الجوّة (يهود) لقرية الدبش حدث في زمانه وتحت رعايته؟. وأن «استعمار أهالي العزّ (يهود) للمثقة حدث في أيامه أيضاً وتحت رعايته» ص ٢٥٧؟.

وهكذا هجم حضرة المؤرخ الموهوب جداً في تفسير التاريخ، على الاسماء التراثية الخالدة مثل كريت (القرية) ـ الاسم الذي وسم به الكنعانيون هذه الجزيرة في زمن يسبق الألف الثاني ق.م. فمسخه الى وادي كريث في غرب شبه الجزيرة العربية. ومثل اشقلون الاسم المعبّر الذي يعني الله يأخذ بأيدينا، فمسخه الى شقلة وثقالة في جوار القنفذة. وأب ملك الذي يعني الله ينضّر، يخضّر الأرض، فمسخه الى الملكية والامتلاك أو الملك. وهجم على الاسماء الميثولوجية فجعلها اسماء قرى ومناطق طبيعية خالدة في غرب شبه الجزيرة العربية. فالاسماء الاسطورية مثل حام وفوط ولوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم، والى آخر هذه السلسلة الغريبة العجيبة. والاسماء الميثولوجية في قصة شمشون، نفث فيها حضرة المؤرخ من روحه التاريخية ما جعلها قرى في غرب شبه الجزيرة العربية، تتحدّى التاريخ برسوخها وخلودها.

أقول هجم على الاسماء التراثية والميثولوجية بسيف التقطيع والتمزيق والتوليد والاشتقاق. واستغل كل ما لديه من عوامل النحت والتحريف وقواعد القلب والتصحيف. وما لديه من طاقة في التوسّع في الاستعمال والاطلاق، ليصل الى الهدف الذي يرمي إليه، وخلاصته «أن الفلسطينيين كانوا مجاورين لبني اسرائيل في غرب شبه الجزيرة العربية» ص ٢٥١ «وأنه لم تكن هناك حدود جغرافية بين أراضي الاسرائيليين وأراضي الفلسطينيين في غرب شبه الجزيرة العربية. وأن هذه الأراضي كانت تمتد في كامل المسافة بين حدود اليمن في الجنوب وحتى وادي أضم في الشمال» ص ٢٥٨ (وليفهم الفاهمون).

ونحن نقول له: لا بارك الله في تلك الاسماء التي أوردها حضرة البروفسور المبدع، وبنى عليها نظريته المصابة بشهوة افتراسية لتعرية المثقفين العرب وفضحهم. ولا بارك في تلك التبريرات التي تفتق ذهنه عنها، ونفثتها يراعته المرضوضة.

وتباً لمثل هذه الشنائع والقبائح من التعمية والتمويه والفساد الظاهر لكل ذي بصيرة. والتمحّل الطافح بالعجائب والغرائب.

ويبدو أن حضرة المؤرخ لا يدري أن ما كتبه كتبه بأقبح صورة وأشنع تصحيف. ولا يدري أن زمان هذا التصحيف القبيح قد ولّى.

واذا كان صاحب هذه الكتابة يبدو كالجاهل الذي لا يدري ما يكتب. أو كانت كتابته تدل على جهل غريب مطبق. فعذره أنه ما أخضع الاسماء لأشكال مدهشة من الزيادة والنقصان، والابدال والتغيير، والتقديم والتأخير، والتصحيف والتحريف، والقلب والحذف، إلا لتوافق الغرض الذي يرمي إليه.

المملكة الاسرائيلية
في غرب شبه الجزيرة العربية

تحت هذا العنوان يسجّل البروفسور المؤرخ كمال الصليبي، الموهوب جداً في تفسير التاريخ، وفي مداواته من المحن والرزايا التي لحقت به، يسجّل اكتشافات مذهلة، لم يهتدِ إليها مؤرخ قبله حتى اليوم، أو قل إنها لم تخطر على بال مؤرخ. والواقع اننا كلما تصفّحنا صفحة مما دوّنه في كتابه، رأينا فيها اكتشافاً جديداً خاصاً به دون غيره، مما يدل على أن المؤرخ يتفانى في البحث عن الحقائق، والاخلاص للنضال في سبيلها. لا يعنيه أن يخاصمه أو يعاديه المؤرخون الآخرون الذين يعانون، باعتباره طبعاً، من التخلّف في جميع مستوياته الفكرية والثقافية، وفي جميع معانيه الانسانية والحضارية.

أول الاكتشافات التي يسجلها الصليبي في كتابه ويمهرها باسمه وألقابه، أن «المملكة الاسرئيلية أسست في غرب شبه الجزيرة العربية بين أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن العاشر ق.م.». ص ٣٤

ويضيف «ولعل أولى الهجرات اليهودية الواسعة النطاق الى خارج شبه الجزيرة العربية، وخصوصاً الى فلسطين، كان مردّها الى الحروب التي نشبت بين ملوك يهوذا وملوك اسرائيل ابتداء بذلك الوقت. ولا بد أن مثل هذه الهجرات تعزّز بالغزوات المتوالية التي شنّها ملوك اشور ثم ملوك بابل على غرب شبه الجزيرة العربية بين القرن التاسع والسادس ق.م.». ص ٣٩

«وعندما بدأ اسرئيليو غرب شبه الجزيرة العربية بالهجرة باتجاه الشمال للاستيطان في فلسطين، أطلقوا اسماء من غرب شبه الجزيرة العربية على بعض مستوطناتهم الفلسطينية». ص ٣٥ والاسماء التي يطرحها المؤرخ هي: يهودا،

يروشليم، بيت لحم، حبرون، شمرون، الكرمل، الجليل، حرمون، والاردن.

يهودا في عسير

ولما كانت «المملكة الاسرائيلية قد أسّست في غرب شبه الجزيرة العربية»، باعتبار الصليبي، كان من الطبيعي، وباعتباره أيضاً، أن «تشمل أرض يهوذا في الأزمنة التوراتية الجانب البحري من عسير الجغرافية، من الشق المائي لامتداد السراة وحتى صحراء تهامة الساحلية». ص ١٥٥

والدليل الذي يقدّمه الصليبي ليدعم قوله الجازم «أن يهوذا كان اسماً جغرافياً قبل أن يصبح اسماً لقبيلة من بني اسرائيل» ص ١٥٥ والملاحظ أنه يسوق دليله بلغة التأكيد: «الواضح أن يهوذا كان اسماً جغرافياً..». ثم يأخذ بطرح الأدلّة ليوضح «وضوحه» المزعوم:

ـ أن «صيغة يهوده العبرية هي اشتقاق من يهد المماثلة للعربية وهد. وهو جذر يفيد معنى الانخفاض». وزيادة في التأكيد يسوق دليله باسلوب آخر، يقول «الوَهْد والوَهْدة من الجذر وهد بالعربية. ويهود ويهوده من العبرية يهد». وهذا التأكيد، باعتباره طبعاً، واقعي، وليس وهماً أو تلفيقاً. وهذا «الواقع» التأكيدي يطرحه بالصيغة، ويؤكّده بنفي الشك، ويشير إليه في الطبيعة. فيقول «الواقع أن الأرض الهضبية الممتدة على الجانب البحري من عسير الجغرافية.. تحتوي على وهاد منخفضة تتعرّج بين القمم والسلاسل. ولا شك أن هذا هو ما أعطى يهوذا القديمة اسمها».

ولاصراره على غرس هذا الزعم في أذهان القراء عمد الى تكراره بصيغة أخرى، قال «ويمكن للباحث أن يدرس أمثلة كثيرة من النص التوراتي لكي يبرهن أن أرض يهوذا التوراتية، كموطن لبني اسرائيل على وجه العموم، وليس لقبيلة يهوذا وحدها، كانت تضم المنحدرات البحرية لعسير وجنوب الحجاز حتى مرتفعات الطائف». ص ١٥٦

وفي الهامش أيضاً عمد الصليبي الى تكرار الفكرة ـ الزعم، بقوله «ولعل قبيلة يهوذا الاسرائيلية كانت تحمل في زمانها اسم أرض 'الوهد' من تهامة جنوب الحجاز وعسير، من وادي أضم شمالاً حتى مشارف منطقة جيزان جنوباً. فتسمّت على اسم الأرض، ولم تتسمّ الأرض باسمها». ص ١٥٦

وباختصار، إن صيغة يهودا، باعتبار الصليبي طبعاً، من وهاد ـ الأرض الهضبية الممتدة على الجانب البحري من عسير. وعليه فان «قبيلة يهوذا الاسرائيلية كانت تحمل في زمانها اسم أرض الوهد من تهامة جنوب الحجاز وعسير، من وادي أضم شمالاً حتى مشارف منطقة جيزان جنوباً».

هذا ما يكتشفه الصليبي ويقرّره في كتابه الذي يدرّس في الجامعات. ولينفلق المستنيرون أو ليضربوا رؤوسهم بالحائط غيظاً أو أسفاً، لا فرق.

وثالث الاكتشافات الذي يدمغه الصليبي في جبين التاريخ، ويعتبره «أحد الأمثلة الواضحة» التي يقدّمها دعماً لنظريته، هو أن اسماء المجموعات الاسرائيلية التي عادت من السبي البابلي بعد الغزو الفارسي لبلاد بابل (٥٣٨ ق.م.) ليست اسماء آباء وأسر وفئات اجتماعية كما تنص التوراة وبالتالي يعرف ويعتقد المؤمنون بالديانات التاريخية الذين يربو عددهم على نصف البشرية. وإنما هي اسماء المناطق والبلدان في عسير وجنوب الحجاز، التي عاد إليها المسبيون.

وعلى هذا الاعتبار يجهد الصليبي في تحويل اسماء الآباء والأسر والفئات الاجتماعية العائدة، الى اسماء قرى ومناطق في غرب شبه الجزيرة العربية، مستعيناً بموسّعات العربية: القلب والابدال والتحريف والتصحيف والنحت والتقديم والتأخير والمسخ والنسخ والدواخل والكواسع الى آخر ما هنالك من أساليب صياغة تشوه الكلمة أو تمسخها، مضيفاً إليها صيغاً أخرى لا تخطر على بال، يوفرها له التلفيق والتدجيل والاختلاق ـ الأثافي التي يقوم عليها منهجه. والى القارىء شواهد مما فعله حضرة المؤرخ:

يسرد عزرا في الفصل الثاني من سفره اسماء الفئات والأسر العائدة من السبي، فيقول «وهؤلاء هم الصاعدون من سبي بابل.. ورجعوا الى يهوذا.. بنو فرعوش. بنو شفطيا. بنو آرح. بنو فحث. بنو عيلام. بنو زتّو. بنو زكاي. بنو عزجد. بنو عادين. بنو بيصاي. بنو حشوم. بنو جبّار. بنو بيت لحم. بنو عناثوث. بنو عزموت. بنو الرامة. بنو مخماس. بنو حاريم. بنو مغبيش. بنو لود. بنو.. بنو.. بنو...

هذه الاسماء التي يسردها عزرا ونحميا يعتبرها الصليبي في عملية صياغة جديدة، جبرية وقاهرة، يعتبرها اسماء أمكنة ومناطق وبلدان في عسير وجنوب

الحجاز. من أمثلة ذلك:

فئة الكهنة جعلهم الصليبي قرية قهوان

بنو يدعيا جعلهم الصليبي قرية وادعة في وادي نجران

بنو إمّير جعلهم الصليبي واحة الأمار في منطقة اليمامة

بنو فشحور جعلهم الصليبي قرية الحرشف في وادي نجران

بنو حاريم جعلهم الصليبي وادي حرم في منطقة اليمامة

فئة اللاويين جعلهم الصليبي قرية لاوة في وادي أضم

بنو آساف جعلهم الصليبي قرية آل يوسف في منطقة بلّسمر

بنو شلوم جعلهم الصليبي قرية الشمول في منطقة الطائف

بنو آطير جعلهم الصليبي قرية وترة في منطقة الطائف

بنو طلمون جعلهم الصليبي قرية المَنْطَلَة في منطقة الطائف

بنو صيحا جعلهم الصليبي قرية الصخية في رجال ألمع

بنو حسوفا جعلهم الصليبي قرية الحُشَيْفَة في منطقة جيزان

بنو طباعوت جعلهم الصليبي قرية ثعابة في رجال ألمع أو عَثَبَة في منطقة جيزان أو قرية العثابيات في منطقة القنفذة. (ولك حرية الاختيار).

بنو قيروس جعلهم الصليبي قرية كرس أو كروس

بنو سيعها جعلهم الصليبي قرية السعي في منطقة جيزان

بنو فادون جعلهم الصليبي قرية الفَدْنة في منطقة جيزان

بنو حجابة جعلهم الصليبي قرية الحُقْبة في رجال ألمع

بنو عقّوب جعلهم الصليبي قرية العقبية في منطقة جيزان

بنو رصين جعلهم الصليبي قرية الرازنة في رجال ألمع

بنو نقودا جعلهم الصليبي قرية ناجد في منطقة جيزان

بنو عزا جعلهم الصليبي قرية الغَزَوَة في منطقة جيزان

بنو فاسيح جعلهم الصليبي قرية الصافح في منطقة جيزان

بنو بيساي جعلهم الصليبي قرية بصوة في منطقة جيزان

ويمضي الصليبي في تلفيق اسماء الامكنة والبلدان لعشرات الاسماء من المسبيين. ولكن الملاحظ أنه تغافل عن اسماء آباء وأسر كثيرة، لم يزرعها أمكنة وبلداناً ومناطق في غرب شبه الجزيرة العربية. ربما لأنه لم يجد اسماء

أمكنة ومناطق تتشابه حروفها أو بعضها مع حروف هذه الأسماء.

ولما لم تسعفه الأمكنة والمناطق والبلدان في غرب شبه الجزيرة العربية، باسماء تتشابه في حروفها أو بعضها مع اسماء الفئات العائدة، أعاد هذه الاسماء الى أصلها التوراتي لأنه رأى، على ما يبدو، في غرب شبه الجزيرة العربية، اسماء أمكنة ومناطق تتشابه حروفها أو بعضها مع اسماء هذه الفئات، ولكن بأصولها التوراتية. ففئة «المغنون» مثلاً أعادها الصليبي الى أصلها التوراتي «مشرريم» وجعلها تمثّل قرية مَسَرَّة في منطقة بارق من عسير. وفئة «البوابون» أعادها الى أصلها التوراتي «شعريم»، وجعلها تتمثل في قرية الشعارية في منطقة الطائف. وفئة خدام المعبد أيضاً أعادها الى أصلها التوراتي «نتينيم» وجعلها تتمثّل في قرية طناطن في منطقة جيزان.

واذا كان الصليبي قد استطاع أن يقنع بنظريته الشوهاء أدعياء الثقافة الزائفة الذين يفتقرون الى معاناة الوعي، ويعجزون بالتالي عن استبصار ما في كتاب الصليبي من حماقات وأكاذيب وتلفيقات. فتقبّلتها أذهانهم على اعتبار أنها حقائق تزري بالشك والتساؤل. وأُخذت وجداناتهم بروعة اكتشافه أن اسماء الآباء والأسر والفئات التي يسردها عزرا ونحميا كـ «مسبيين رجعوا الى يهوذا. عزرا ٢: ١»، هي اسماء مواقع وبلدان ومناطق في غرب شبه الجزيرة العربية.

واذا استطاع الصليبي أن يوهم القُراء الذين تمثل أذهانهم أجهزة استقبال، لا ترفض ولا تناقش أو تنقد أو تفهم ما يقدّم إليها. يوهمهم بأن بني معونيم من المسبيين هم وادي المعاين في منطقة جيزان. وأن بني نفوسيم هم قرية نصيفان في وادي أضم. وأن بني بقبوق هم قرية جبجب في منطقة جيزان. وأن بني حقوفا هم قرية الحجفة في منطقة جيزان. وأن بني برقوس هم قرية الكرباس أو الكربوس في منطقة جيزان. وأن بني سيسرا هم وادي شرس في شمال اليمن. وأن بني فرعوش هم قرية الجعافر في منطقة القنفذة، أو عجرفة في منطقة قنا والبحر، أو العرافجة في مرتفعات غامد. وأن.. وأن..

واذا استطاع الصليبي أن يعبث باسماء المسبيين العائدين، مسخاً وتشويهاً، على اعتبار أنها اسماء اسطورية لا تاريخ لها ولا مدلول، فانه لا يستطيع أن يقنع أو يوهم المستنيرين الذين يصقل التفكير أذهانهم كما تصقل أمواج البحر حصى الشاطئ. ولا أن يعبث بالاسماء المفردة والمركبة المعبّرة، لأنها أولاً مقتبسة من

تراث سوريا الطبيعية، ولأنها ثانياً تحمل في مضمونها مدلولاً أخلاقياً واجتماعياً يعبّر عن جانب من المفاهيم السورية القديمة التي كانت المثل الأعلى، أخلاقياً واجتماعياً، لسائر المفاهيم الفكرية والدينية التي أبدعها أو وضعها الانسان في ما بعد.

من هذه الاسماء المفردة مثلاً اسما شفطيا ويشوع اللذان يمسخهما الصليبي الى قرية الشطيفية في منطقة جيزان، وقرية شعية في منطقة الليث. والصحيح أن هذين الاسمين من الاسماء المعبّرة التي راجت في سوريا الطبيعية. الأول (شفطيا) يعني الحاكم، القاضي. وهذا الاسم المعبّر وصلنا في تراث سوريا الطبيعية مفرداً، ومركباً مع صفة القوة العالية المطلقة، أو مع صفات القوى العالية القريبة. فقد كان القدماء في سوريا الطبيعية يعتقدون بأن القوة العالية (الله بمفهومنا) تحكم في قضاياهم، أو قل هي باعتبارهم سيدة الأحكام، وفي القضايا جميعها. وقد عبروا عن هذا المفهوم باسم شبط ايل (يقضي الله). ومن نماذج الاسماء التي وصلتنا من تراث سوريا الطبيعية: شبط ان، شبط بعل.

الاسم الثاني (يشوع) أو يشع يعني يخلّص. وهذا الاسم المعبّر وصلنا في تراث سوريا الطبيعية مفرداً، ومركباً مع صفة القوة العالية المطلقة، أو صفات القوى العالية القريبة. فقد كان القدماء في سوريا الطبيعية يعتقدون بأن القوة العالية (الله بمفهومنا) تخلّص الانسان من الخطايا ومن العثرات ومن الامراض ومن البلايا ومن. . وقد عبروا عن ايمانهم بهذا المفهوم باسم يشع ايل (الله يخلّص) يثع ان (ان ـ السيد ـ الله يخلّص). ومن الاسماء التي وصلتنا من تراث العربيتين: يثع اللات، يثع كرب، شيع الله. ومن الاسماء المفردة في التاريخ اسم يشوع بن نون الذي قاد بني اسرائيل بعد اختفاء موسى، الى غزو أرض كنعان. واسم يسوع الناصري مؤسس الديانة المسيحية.

فاسم شفطيا الذي يعني الحاكم، القاضي. واسم يشوع الذي يعني يخلّص. لا يمكن للصليبي أولغيره، ولو كان أكبر ملفق موهوب في تفسير التاريخ أو تزويره، أن يمسخهما الى قرية الشطيفية وقرية شعية.

ومن الاسماء المركبة اسم قدميئيل الذي يمسخه الصليبي إلى قرية القَدَمَة في منطقة الليث. والصحيح أن هذا الاسم مركب من قدم ومن صفة القوة العالية المطلقة (ايل). ومدلول هذا الاسم المركب المعبّر (قدميئيل) هو

«الله يُقدّمنا، يُسبقنا في طريق الخير».

ومنها اسم حانان الذي يمسخه الصليبي الى قرية الحنيني في منطقة جيزان. والصحيح أن هذا الاسم المعبّر مركب من حنّ (يرأف، يعطف) ومن «ان» ـ (السيد ـ الله). ومدلوله «ان ـ السيد ـ الله يحنّ». ومن الاسماء التي وصلتنا من تراث سوريا الطبيعية: حنّيئيل، يثع حن، عشترت حن، اشمون حن، عناة حن، ملقارت حن. ومن الاسماء الخالدة في تراثنا: حنّون ـ أمير البحر الذي خرج من قرطاجة في الربع الأول من القرن الخامس ق.م. على رأس اسطول كبير ينير بمصابيح سفنه ظلمات البحر ومجاهله. واسم حنّيبعل أمير قرطاجة الذي دوّخ الرومان في القرن الثالث ق.م.

بيت ايل (بيت الله) مسخه الصليبي الى «قرية البتيلة. وقد تكون بتول في منطقة جيزان، أو البتلة في ناحية تنومة بالسراة». (الواقع أن هذا المؤرخ يستحق الرثاء والاشفاق).

جبعون: مسخه الصليبي إلى آل جبعان. والصحيح أن هذا الاسم مركب من جبع التي تعني هضبة، أكمة، رابية. ومن «أون» ـ (السيد) ومدلوله: هضبة أون أو رابية أون.

درقون: مسخه الصليبي الى «الدرق في منطقة جيزان، أو قردان في منطقة الطائف. والصحيح أنه اسم مركب معبّر مثل جبعون.

وبعد هذه السلسلة الطويلة من اسماء المسبيين العائدين، الذين يزرعهم الصليبي أمكنة ومناطق وبلداناً في غرب شبه الجزيرة العربية، يخلص المؤرخ في نهاية الفصل الى النتيجة المتوخّاة والتي كان قد قرّرها في بداية الفصل، ومفادها أن أل «١٣٠ اسماً الواردة في لوائح عزرا ونحميا هي قرى في غرب شبه الجزيرة العربية» ص ١٧٤ (رغم أنف التاريخ والعقل والواقع). «وهذا وحده كاف كي يقود الى الاستنتاج بأن الأرض التي تسمّيها التوراة يهوذا، ليست في فلسطين. ويجب البحث عنها في غرب شبه الجزيرة العربية. والأراضي التي كانت أراضي يهوذا هذه تشمل المنحدرات البحرية لجنوب الحجاز وعسير، من منطقة الليث في الشمال الى منطقة جيزان في الجنوب. وكذلك منطقة الطائف عبر الشق المائي من منطقة الليث» ص ١٧٤ (كذا وليفهم الفاهمون).

أورشليم اللغز

ومن فظائع ما جاءنا به حضرة البروفسور المؤرخ في كتابه الذي جمع من الأوهام أغربها ومن السخافات أوهنها، أنه يجهل مدلول أورشليم ـ المدينة العريقة في التاريخ والحضارة. ومن الطبيعي أن هذا الجهل سخف في المدارك ما وراءه سخف، لأنه ليس من يجهل اليوم أن أورشليم اسم مركب من أور التي تعني مدينة بالألسن السورية العربية بغالبيتها. وسليم أو شليم التي تعني السلام بالألسن السورية العربية جميعها: الأكادي والبابلي ـ الاشوري والاموري والأرامي والكنعاني والعربي، (مدينة السلام). ثم زاد على ذلك سخفاً آخر وهو قوله «إن اسم أورشليم اعتبر حتى الآن لغزاً» ص ١٨٣ فكيف خفي على حضرة المؤرخ البروفسور في الجامعة الاميركية، والدكتور في الالغات السامية (كذا اللغات السامية) مدلول أورشليم؟. وكيف فاتته هذه الحقيقة وهو استاذ في اللغات السامية، وواقف على أخبار المنقرضين والعائشين؟ وكيف ينكر أو يريد أن ينكر أموراً تفقأ في العين حصرماً؟.

ولكي لا يتهمنا أحد بالمغالاة أو بالتحزّب على استاذنا المشهور، نأخذ مقاطع من صفحات كتابه ونعرضها على القراء. ففي الصفحة ١٨٣ قال حضرة اللغوي المتفيهق: «يمكن العثور على أورشليم فوراً على مسافة ٣٥ كيلو متراً الى الشمال من بلدة النماص في سراة عسير، شمال أبها. إنها القرية التي تسمّى اليوم آل شريم، التي يحتوي اسمها على بعض التحريف التعريبي عن الأصل يروشليم».

وفي الهامش يقول «لقد اعتبر اسم يروشليم حتى الآن لغزاً. والأرجح هو أنه يعني «مقر» أو «مسكن». (الاسم يرو، قارن مع مصدر الفعل بالعربية «ري»، أي «سكن» أو «أقام») شليم (قارن مع الاسم القبلي سُلَيم في مرتفعات عسير). واذا لم يكن الاسم شليم اسم قبيلة، فيحتمل أنه كان اسم إله محلّي، وربما تنويع في شلم. وبالتالي فان اسم المكان يروشليم يعني «مقر سُلَيم» أو «مقر شلم» (اسم الاله)».

مدهش هذا الخلط والخبط، وما فيه من المساوىء والمعايب والمغامز والاوهام والهنات:

ـ يروشليم لغز

ـ الاسم يرو يعني «مقر» أو «مسكن». (في أي معجم عربي وجد حضرة اللغوي «ري بمعنى سكن وأقام؟).

ـ شليم: إما أن يكون الاسم القبلي سُلَيم في مرتفعات عسير. وإما أن يكون اسم إله محلّي.

ـ وعلى هذا، فان اسم المكان يروشليم يعني «مقر سُلَيم» أو «مقر شلم» (اسم الاله).

مذهل هذا الجهل الغريب المطبق. ومذهل هذا المؤرخ الجاهل الذي لا يدري ما يكتب. تأمل: يروشليم لغز. والارجح أنه يعني مقر أو مسكن. شليم هو الاسم القبلي سُلَيم، أو اسم إله محلّي. وعلى هذا فان يروشليم يعني مقر سُلَيم أو مقر شلم (الاله). أو هي جمع لاسمي قريتين: أروى وآل سلام.

وأي واحدة من هذه «الاورشليمات» يريد المؤرخ أن نختار: مقر سُلَيم أم مقر شلم (الاله) أم قرية آل شريم؟ أم أن في اللغز شيئاً آخر؟.

ما هذه الحفاوة بكل هذه التفاهات والغباوات؟.

وكيف يحكم على عقل القارىء أن يكون وعاء تتجمّع فيه أجهل الغباوات في التاريخ؟.

لماذا هذا التمحّل المزري في تفسير أو تأويل أورشليم؟.

لماذا يصرّ المؤرخ على تجاهل التاريخ؟.

لماذا هذا التصحيف القبيح؟. ولماذا يعرض المؤرخ رأيه في معرض الارتياب أو الترجيح؟.

والسؤال الذي يوجّه الى مؤرخ هذه بضاعته من علم التاريخ: كيف يجرؤ على أن يكتب في هذا الموضوع مع قلّة بضاعته، بل فاقته فيه؟.

إن عقلي يمزّقني أسفاً وغيظاً كلما قابلت مثقفاً أو متثقفاً يكيل للصليبي وكتابه عبارات الاطراء والثناء. وإن أقبح موقف يشتم عقلي أن أصادف مثقفاً أو من يزعم أنه مثقف، لا يغضبه هذا الكتاب. أو يبارك ما جاء فيه. وإن عقلي لا يغفر للمجتمع الذي راج فيه الكتاب ونفذ بطبعاته الست (وغداً أو بعد قد تنفذ طبعاته العشر والعشرون). فهذا المجتمع مذهل بضحالة الثقافة وطفولة الوعي وبداوة النفس، ولذلك لم يقرأ كتاب الصليبي على اعتبار أنه محرّف. ولم

يتعامل معه على اعتبار أنه عملة زائفة. ولم يره كائناً مشوّهاً مزوّراً.

على أن الداهية الدهياء هي في الخلط والخبط الذي سطّره حضرة المؤرخ في الصفحة ٢٢٤، قال «ويسود الرأي اليوم بأن شلم، التي كان ملوكها كهنة يقدّسون ءل عليون (أي الاله عليون)، كانت بلدة كنعانية في فلسطين، اسمها «شاليم»، وقد حدّدت هذه البلدة أحياناً بأنها «أورشليم» بالذات، أي مدينة القدس. والصحيح أن شلم هي اليوم قرية آل سلامة في جوار النماص بسراة عسير. والدليل على ذلك وجود قرية أخرى في الجوار ذاته تحمل اليوم اسم الاله عليون، وهي آل عليان. وفي نفس الجوار أيضاً قرية ثانية تحمل الى اليوم الاله عولم، وهي آل الاعلم. واسم هذا الاله تحمله اليوم أيضاً قرية في جوار تنومة، جنوب النماص، تدعى آل العلم. ويلاحظ من تركيب اسم آل سلامة أن شلم التوراتية لم تكن فقط اسم مكان، بل أيضاً اسم إله (ءل شلم). ولعل الاله عليون، وهو إله ملوك شلم، كان يطلق عليه أيضاً اسم شلم».

ما معنى هذا الخلط والخبط؟. وما معنى هذه التلفيقات البالغة الغرابة؟. ولماذا كل هذا الاصرار على الاختلاق والتلفيق؟. والواقع ان في كلام المؤرخ من المساوىء ما يجعل قلم الناقد عاجزاً عن وصفها أو الاحاطة بها. فقوله «ءل عليون (أي الاله عليون)» يعني أن عليون إله. وهذا غلط لا يغتفر لمؤرخ يعتبر نفسه، أو يعتبره الآخرون، علماً يأتمّ به من يجيء بعده لكثرة ما أبدع في تفسير التاريخ، وفي اكتشاف الحقائق التاريخية.

لقد أوجزنا في ما تقدم خلاصة ما فصّلناه في كتابنا «تاريخ الله»، ومفاده أن الصفة «ايل» تحولت في النصف الثاني من الالف الأول ق.م. الى اسم. وعندما صارت الصفة «ايل» اسماً، أضافوا اليها صفة العالي، فقالوا ايل عليون أي الله العلي.

ومن العيب أن يقول حضرة المؤرخ إن قرية آل عليان تحمل اسم الاله عليون. وإن قرية آل الأعلم تحمل اسم الاله عولم.

أما خلطه بين «شلم وشاليم وءل شلم وآل سلامة» فهو مضحك الى حد القهقهة، أو مؤسف الى حدّ البكاء.

تأمّل، وتأمّل جيداً قول المؤرخ: «شلم كانت بلدة كنعانية اسمها شاليم. وقد حدّدت هذه البلدة أحياناً (كذا أحياناً) بأنها أورشليم. والصحيح أن شلم هي

اليوم قرية آل سلامة في عسير. ويلاحظ من تركيب اسم آل سلامة أن شلم التوراتية لم تكن فقط اسم مكان، بل أيضاً اسم إله (ءل شلم). ولعلّ الاله عليون، وهو إله ملوك شلم، كان يطلق عليه أيضاً اسم شلم». ص ٢٢٥

وباسلوب الجبر التاريخي الذي انتهجه الصليبي:

- شلم كانت بلدة كنعانية اسمها شاليم (تأمل شلم كان اسمها شاليم)
- وقد حدّدت أحياناً بأنها أورشليم
- والصحيح أن «شلم» هي قرية آل سلامة
- شلم اسم إله (ءل شلم)
- الاله عليون كان يطلق عليه اسم شلم

تأمل في هذا الخلط والخبط المدهشين. وتأمل في هذه التلفيقات الباصقة على العقل. ألا تعتقد أن القارىء المستنير يشعر بالتعب والغثيان من هول العرض التلفيقي لهذه الغباوات والتفاهات؟.

شلم وشاليم يا حضرة البروفسور اسم واحد (سلام) لهذه المدينة العريقة في أرض فلسطين. ثم أضافوا لها صفة المدينة «أور» فصارت أورشليم (مدينة السلام). وخلطك وخبطك لا يكتبه صبيان الكتاتيب.

ومن المفروض فيك أن تعرف، وأنت المؤرخ الضليع وأستاذ الاساتذة، أن الكنعانيين أطلقوا على مستعمرتهم الأولى في شمال افريقيا صفة «العتيقة». وعندما وضعوا أسس مستعمرة أخرى «حديثة» أضافوا لها صفة القرية، فصارت القرية الحديثة ـ قرت حدشت (قرطاجة). مثلما كانت المدينة العريقة في أرض فلسطين «سلام». ثم أضافوا اليها صفة المدينة «أور» فصارت أورشليم ـ مدينة السلام. و «شلم» يا حضرة المؤرخ ليس اسم إله. و «عليون» ليس إلهاً.

ويقول الصليبي «والصحيح (كذا والصحيح) أن شلم هي اليوم قرية آل سلامة في جوار النماص بسراة عسير. والدليل على ذلك وجود قرية أخرى في الجوار ذاته تحمل اليوم اسم الاله عليون، وهي آل عليان. وفي نفس الجوار أيضاً قرية ثانية تحمل الى اليوم اسم الاله عولم، وهي آل الأعلم».

ما هذا الكلام الجامع للسيئات على أغرب وجه وأعجبه؟. فـ «شلم أو شاليم أو أورشليم» ليست قرية آل سلامة يا حضرة البروفسور. وكلامك ليس «صحيحاً» كما تدعي، وإنما هو عكس ذلك (صفه بما شئت). و «الدليل» الذي

تطرحه ليس دليلاً، وإنما هو تدجيل وتلفيق أو خبط وخلط (صفه بما شئت). ألا تخجل من قولك إن قرية آل عليان هي الاله عليون. وقولك إن قرية آل الأعلم وقرية آل العلم هي الاله عولم؟. أهذا منطق يا حضرة الدكتور في التاريخ واللغات السامية، والاستاذ في الجامعة الاميركية؟. أهذه مقدرتك اللغوية التي يجاهر بها تلاميذك وأصحابك في الجامعة وخارجها؟.

فيا حضرة استاذي ودكتوري وعلاّمتي ونقادتي و.. تأنّ قليلاً قبل أن تحملك الألقاب الجوفاء على أمور تصمك وصمات، لا يمحوها مرّ الايام ولا كرّ الأعوام. وكان من واجبك ألاّ تقبل على الكتابة في تراث سوريا الطبيعية، وأنت لا تفهم فيه شيئاً على الاطلاق.

مسخ التراث

و «**بيت لحم**» - (بيت الخبز) مسخها البروفسور المؤرخ الى «أم لحم في وادي أضم، وليس في أي مكان آخر» ص ١٧٢ (تأمل التأكيد: وليس في أي مكان آخر). والطريف أن حضرة البروفسور رأى فيها «اسماً لاله المؤن» قال «أم لحم وتعني أم أي إلهة الخبز، الطعام، التموين». ص ١٧٢

تأمّل التلفيق الوقح: بيت لحم اسم لإله المؤن. وأم تعني إلهة. تأمل كيف تفقد الكلمة أخلاقيتها لدى بعض المؤلفين. وكيف تتحوّل الى نوع من المعصية البذيئة، الى مجلّد من الوقاحة والأكاذيب الغبية التي تهدّد أعصاب الانسان وذكاءه بالجنون.

* * *

وفي **حبرون** يقول الصليبي «ليست هنالك عملياً أية حبرون في فلسطين. وفي فلسطين أطلق اليهود والمسيحيون الاسم على بلدة الخليل الواقعة في الأراضي الهضبية جنوب أورشليم الفلسطينية، أي القدس.. وهناك خمسة أمكنة تسمى حبرون ما تزال موجودة تحت اسم خِربان على المنحدرات البحرية لعسير. ومن بين هذه الامكنة الخمسة يحتمل أن عاصمة داود الأولى كانت قرية الخربان الحالية في منطقة المجاردة، التي كانت ذات يوم حبرون ابرام». ص ١٧٥

مدهش هذا التلفيق. ومعيب هذا الضرب من التصحيف اللفظي والخداع

الفكري. ومؤسف هذا الاجتراء على العقل والحقيقة. ومذهل هذا الاسلوب من التمويه والتعمية الذي ينتهجه البروفسور المؤرخ كمال الصليبي.

حبرون مدينة فلسطينية، يا حضرة المؤرخ، عريقة في التاريخ والحضارة. وهذا الاسم مركّب من «اون» ـ (السيد) (الله بمفهومنا) ومن «حبر» التي تعني باللسان الكنعاني «صاحب، صديق، رفيق، خدين». وباللسان العربي تعني «الصالح من العلماء».

وليس صحيحاً ما يزعمه البروفسور المؤرخ من أن اليهود والمسيحيين هم الذين أطلقوا الاسم حبرون على بلدة الخليل. وعلى عكس ما يقوله حضرة البروفسور، فان اليهود والمسيحيين هم الذين أطلقوا على حبرون ـ المدينة الفلسطينية الكنعانية التي تسبق الالف الثاني ق.م. اسم الخليل على اعتبار أن ابراهيم الذي سكن في حبرون هو خليل الله.

ابرام سكن في حبرون من قبل أن يُعرف أو يُعرّف بـ «الخليل» أو «خليل الله». ففي سفر التكوين (١٣) يقول المحرر: عندما «صعد ابرام من مصر.. سار في رحلاته من الجنوب الى بيت ايل، الى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت ايل وعاي.. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي ابرام ورعاة مواشي لوط.. فقال ابرام للوط: لا تكن مخاصمة بيني وبينك.. فاختار لوط دائرة الاردن وارتحل شرقاً.. وسكن ابرام في أرض كنعان.. ثم نقل خيامه وأقام عند بلّوطات ممرا التي في حبرون».

«وماتت سارة في حبرون في أرض كنعان. تك ٢٣: ٢». «ودفن ابراهيم سارة امرأته في حقل المكفيلة في حبرون في أرض كنعان. تك ٢٣: ١٩».

وعندما صار لابرام (ابراهيم) هذه المكانة في التاريخ التوراتي الميثولوجي، أطلق عليه محرر سفر الاخبار الثاني (٢٠: ٧) لقب «ابراهيم خليلك الى الأبد». وأطلق عليه يهوه بلسان اشعيا (٤١: ٨) «ابراهيم خليلي». وقال عنه محرّر رسالة يعقوب (٢: ٢٣) في العهد الجديد «ودعي ابراهيم خليل الله».

واسم خليل يعني صديق، خدين، رفيق الله. وهذا الاسم أقدم من ابراهيم بآلاف السنين، وهو من الاسماء المعبّرة التي راجت في سوريا الطبيعية منذ زمن يسبق الالف الثالث ق.م[٧٣].

ومن الواضح أن حبرون وخليل يؤديان المعنى ذاته: صديق، خدين، أون

أو ايل ـ الله. ولكن ما غاب عن ذهن المؤرخ صليبي، وبغض النظر عن هذه القصص الميثولوجية، أن اسم حبرون أقدم من اسم خليل، لأن مفهوم «أون» ـ (السيد) ـ (الله بمفهومنا) ساد في سوريا الغربية قبل سيادة مفهوم «ايل ـ الله».

ومن أغلاط الصليبي الفظيعة والمعبرة عن جهله الغريب المطبق، قوله «اسم المكان 'الخليل' لا يعني الصديق، بل هو تعريب لاسم مكان سامي قديم هو حليل (من حلل في العبرية أي جوّف. قارن بالعربية خلل أي اخترق، نفذ الى. وتعني كهف أو مغارة. ولا بد أن البلدة الفلسطينية كانت قد أخذت اسمها في الأصل من الكهف المعروف المجاور لها». ص ١٧٥

ولو سألت الصليبي: أكان من الضروري أن تمسخ هذا الاسم المعبّر خليل (خل ايل) ـ (صديق، خدين الله) الى آخر ما في جعبتك من ألفاظ التلفيق اسماء وأفعالاً؟.

لأجابك: نعم كان من الضروري فعل ذلك لكي يتحقق الهدف: ايهام الجماهير المغفلة التي يربو عددها على نصف البشرية بأن خربان الحالية في منطقة المجاردة من غرب شبه الجزيرة العربية، كانت عاصمة داود الأولى. وليفهم الفاهمون. وليضرب المستنيرون رؤوسهم في عُرض الحائط.

* * *

شمرون مدينة ـ مملكة في فلسطين عريقة في التاريخ. ذكرها محرر التوراة في سفر يشوع (١١: ١) بقوله إن «ملك حاصور أرسل الى ملك مادون والى ملك شمرون والى ملك اكشاف..».

وحين قسم يشوع أرض فلسطين بالقرعة على أسباط اسرائيل «طلعت القرعة الثالثة لبني زبولون. وكان تخم نصيبهم الى ساريد. وصعد تخمهم نحو الغرب ووصل الى دبّاشة ووصل الى الوادي الذي مقابل يقنعام. ودار من ساريد شرقاً نحو شروق الشمس على تخم كسلوت تابور، وخرج الى الدبرة وصعد الى يافيع. ومن هناك عبر شرقاً نحو الشروق الى جت حافر الى عتّ قاصين وخرج الى رمّون وامتد الى نيعة. ودار بها التخم شمالاً الى حنّاتون، وكانت مخارجه عند وادي يفتحئيل وقطة ونهلال وشمرون ويدالة وبيت لحم. اثنتا عشرة مدينة مع ضياعها. سفر يشوع ١٩: ١٠ ـ ١٦».

هذه المدينة ـ المملكة اقتلعها الصليبي من أرض فلسطين، وغرسها في

غرب شبه الجزيرة العربية. قال «شمرون التوراة هي قبيلة شمران. وقد استمر وجود اسمها في غرب شبه الجزيرة العربية الى يومنا هذا. وتمتد بلاد شمران عبر الجرف والشق المائي الى وادي بيشة». ص ٢٠١

فظيع هذا المؤرخ ـ كمال الصليبي، وفظيع تاريخه الحافل بالعجائب والغرائب» والقائم على خلط العصور واختلاق الأصول. وفظيع هذا المجتمع الذي فتح القرّاء فيه أفواههم مبهوتين بعلم المؤرخ الغزير المتدفق كالسيل الجارف. ووصل الاعجاب ببعضهم الى حدّ الهوس.

ذكرنا أن مفهوم «ان» ـ (السيد) ظهر في التاريخ قبل الألف الرابع ق.م. في حوض النهرين الأدنى. وظلّ كصفة للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء (الله بمفهومنا) مترسّخاً في الذهنية الحضارية السورية لأكثر من ألفي سنة. وفي عصور متأخرة ساد هذا المفهوم أيضاً في العربيتين الشمالية والجنوبية.

وذكرنا في أكثر من مجال أن مفهوم لـ «ان» ـ (السيد) ـ (الله بمفهومنا) ارتدى طابعاً أخلاقياً. وقد أكّد الانسان القديم في سوريا الطبيعية منذ عهد مبكّر في تاريخ نضجه الروحي والفكري على العلاقة الوطيدة بين مفهوم «السيد» «العالي» ـ (الله) وبين القيم الأخلاقية. وكانت النظرة العامة الى حكم «السيد» (الاله) تقوم على أساس أن الاله يحمي ينقذ ينجّي يخلّص يرعى يصون يمنح يهب ينعم ينير يشفق يعطف يرأف يزوّد بوفرة يخصب يفيض يشفي يعيل يعضد يقي يضمن يعدل يصلح يقضي (بالعدل) يزيد ينمّي يؤازر يسند يدعم ينصر يؤيد يسامح يغفر يجمع يفضل يبارك.. وباختصار، يعنى بحماية العبد ورعايته.

وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الأخلاقي باطلاق الاسماء المعبّرة عنه على بنيهم أو على مظاهر الطبيعة حولهم. والاسماء المعبّرة باعتبارهم هي الاسماء المركبة من صفة القوة العالية (الله)، ومن الفعل المسند الى السيد (الله). ومن الاسماء المعبّرة التي أثرت عنهم: أوس ان (ينعم ان ـ الله) حن ان (الله يحن) عم ان (الله معي أو معك أو معنا) رفأ ان (يشفي الله) يشع ان (الله يخلّص) تيم ان (عبد ان ـ الله) سعد ان (الله يسند، يساعد) سلم ان (يسلّم الله) رضو ان (يرضى الله) رب ان (الله يزيد) سمع ان (يسمع الله) شبط ان (يقضي الله). عبد ان (عبد الله) رحم ان (يرحم الله) وهب ان (يعطي الله) حي ان

(الله يحيي) زيد ان (الله يزيد) نتن ان (يعطي الله) نعم ان (الله يُسرّ، يُرضي) شمر ان (يحمي الله) حمد ان (الله يجمّل يحسّن) رحم ان (يرحم الله) عزّ ان (الله يقوّي) عرم ان (الله يكدّس الخيرات في الحظائر والبيادر) يسر ان (الله ييسّر) صدق ان (يعدل الله). . .

لا أود أن أذكر مئات الاسماء التي وردت في النقوش التي اكتشفت في مناطق متفرقة من العربيتين الشمالية والجنوبية. ولكني أود أن أشير الى بعض اسماء المظاهر الطبيعية التي لا تزال حية الى اليوم، وستبقى خالدة الى نهاية الدهر، مثل: ظهران (منطقة ومدينة) نهل ان (جبل في نجد) سعد ان (٢٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من حايل) جيزان (منطقة) جِلذان (موضع قرب الطائف) ري ان (وادي) غمر ان (ماء بين نجد والحجاز). .

وفي سوريا الغربية لحق لفظ «ان» إمالة مضمومة بفعل البيئة واللسان، فصار «أُون». ومن الاسماء المعبّرة التي وردت في النقوش المكتشفة في الساحل الكنعاني: شلم ون (يسلّم الله) اشم ون (اسم الله) شمع ون (يسمع الله) رحم ون (يرحم الله) عبد ون (عبد الله) رام ون (يعلي الله) مار ون. هلّ ون. جدع ون. جبع ون. . .

ومن اسماء المظاهر الطبيعية التي لا تزال حية الى اليوم. وستبقى خالدة الى نهاية الدهر: كفرون. عرمون. صيدون. عذن ون. زين ون. فيطرون. بتل ون. بشم ون. ميد ون. كيف ون. بحمدون. بترون. بزع ون. حصرون. شمرون. عدل ون. شارون. عقرون. . .

وباختصار، إن صفة القوة العالية «ان» ـ (السيد) بلسان المجتمعات في سوريا الشرقية وفي العربية الشمالية. و «أُون» ـ (السيد) بلسان المجتمعات في سوريا الغربية، تدخل في تركيب الاسماء. وعليه فان «شمران» ـ (يحمي الله) في العربية الشمالية. و «شمرون» ـ (يحمي الله) في فلسطين. وليست هذه تلك. ولا يمكن للمؤرخ كمال الصليبي أن يجعل من هذه تلك ولو كان أبرع ملفق عرفه التاريخ.

* * *

كرمل، جبل في فلسطين، اسم مركب (كرم ايل) ـ كرم الله. اقتلعه المؤرخ كمال الصليبي من أرض فلسطين، وحرّفه الى كِرْمِل، وغرسه «بالقرب

من حمضة ما بين كنانة واليمن من بطن تهامة». ص ٣٥

* * *

وفي «**الجليل**» يقول الصليبي: «جليل تعني المنحدرات المتدرجة. وجليل العبرية شائعة الوجود في مرتفعات غرب شبه الجزيرة العربية. وهناك وادي جليل في جنوب الحجاز، جنوب شرق الطائف». ص ٣٦

جليل ليست عبرية يا حضرة المؤرخ. ومن العيب أن تسوّق مثل هذه التلفيقات. وجليل لا تعني المنحدرات المتدرجة. وقد كان من الواجب عليك كمؤرخ وبروفسور ورئيس دائرة التاريخ في جامعة محترمة، وكباحث في مثل هذه الموضوعات، أن تعرف أن «جليل» اسم مركب من جل التي تعني البستان، وخاصة البستان القريب من المنزل الذي يفسح فيه أصحابه مكاناً للبيدر ومكاناً آخر لكومات أو عرمات القمح. فـ «جليل» ـ (جل ايل) تعني بستان ايل. ويبدو أن صاحبنا المؤرخ، الاستاذ في الجامعة الاميركية في بيروت، لم يسمع بـ «جل الديب» ـ (بستان الديب) و «جل البحر» في ضواحي بيروت.

* * *

وفي **حرمون** يقول الصليبي: حرمون التوراتية استمرت في الوجود كاسم لما لا يقل عن خمسة أماكن في جنوب الحجاز وعسير، كلها تدعى حمران أو خمران». ص ٣٦

حرمون يا حضرة المؤرخ اسم مركب، فقد كان في اعتقاد القدماء في هذه الأرض (سوريا الطبيعية) أن المعبد مكان مقدس، مكرس، منذور، مخصّص لوجه الله، فهو حرم لا يحل انتهاكه. مكة البلد الحرام. والمسجد البيت الحرام. حرم ايل (حرم الله) مدينة الى الشرق من بغداد حوالي ستة أميال، عريقة في التاريخ والحضارة. حرمون (حرم الله) جبل في فلسطين.

ولا تنس يا حضرة البروفسور أن مثل هذه الاسماء التي يدخل في تركيبها «أُون» ـ (الله)، لا وجود له في العربية الشمالية. فهناك سادت الصفة «ان» ـ (السيد).

أما قول المؤرخ بأن «حرمون استمرت في الوجود في مرتفعات غرب شبه الجزيرة العربية»، فيرهق القارىء المستنير بمعاناة مشاعر الانكار والاحتجاج، ومعاناة الشعور بالتعب والغثيان من هول العرض التلفيقي الذي يتلاحق أمام

القارىء بصورة استفزازية، ناقلاً بأمانة صور الجهل وقصور العقل الذي يبصق تفاهاته على عقول الآخرين.

* * *

ومن المظاهر الطبيعية التي يعمد المؤرخ كمال الصليبي الى اقتلاعها من أرض فلسطين، وزرعها في غرب شبه الجزيرة العربية، نهر الاردن. فهو يرى أن «أردن التوراة ليس نهراً» ص ١٣٣ (كذا: الاردن ليس نهراً)، وإنما هو «تعبير طوبوغرافي يشير الى أجراف وقمم جبلية في جنوب الحجاز وعسير» ص ١٣٤. والبراهين التي يقدمها لدعم نظريته تنحصر في تفكيك اللفظة ومسخها وتشويهها. ومن ثم العمل على تركيبها، في عمليات جبرية قاهرة، في أشكال وصيغ تؤدي الى المعنى الذي يرمي اليه، والغاية التي يسعى الى بلوغها. فهو يقول «إن يردن التوراتية هي اسم مشتق من المصدر يرد (لم يذكر اللسان الذي يعود اليه هذا المصدر) الذي يعني 'انحدر، هبط، سقط'. ومن الجذور التي تقابل يرد بالعربية 'ردى' بمعنى 'سقط، تهوّر من جبل عال'. ومن هذا الجذر يشتق الاسم العربي 'رَيْد'، وصيغته المؤنثة 'رَيْدة'. والريد هو الحرف الناتىء من الجبل. وربما الريدة وهي غير قاموسية، هي النتوء الجبلي والقمة الجبلية. واستخدام التعبيرين بالعلاقة مع الأرض الجبلية ينحصر من الناحية العملية بغرب وجنوب شبه الجزيرة العربية، حيث ترد ريدة وريدان. ولعل لاحقة النون هي في الأصل أداة تعريف مماتة. وفي عسير وحدها هنالك خمس قرى جبلية على الاقل، في أقاليم مختلفة، تسمى ريدة أو ريدة كذا، وقريتان تسميان ريدان، ناهيك عن حصن ريدان التاريخي باليمن». ص ١٣٤

أول عملية جبرية قاهرة مارسها المؤرخ الجبري كمال الصليبي في البرهان الأول هي أن «يردن» النهر المعروف في فلسطين هو اسم مشتق من المصدر يرد (كذا شئت أم أبيت). والغاية التي يرمي إليها المؤرخ الجبري من برهانه المطروح في هذه العملية الجبرية، تتلخّص في محاولة اقناع القارىء بأن المصدر 'يرد' يقابله في العربية 'ردى'. ومن 'ردى' اشتق 'رَيْد' (كذا شئت أم أبيت). والريد هو الحرف الناتىء من الجبل، ومنه ريدان. وريدان تقارن بالعبرية 'يردن'. و «يردن تعبير طوبوغرافي يعني جرفاً أو قمة أو مرتفعاً. وبشكل أدق هو الجرف الرئيسي لسراة عسير الجغرافية الذي يمتد من الطائف في جنوب

الحجاز الى منطقة ظهران الجنوب قرب الحدود اليمنية». ص ١٣٤

لم يذكر لنا حضرة المؤرخ اسم القاموس أو المعجم أو المرجع اللغوي الذي وجد فيه أن 'رَيْد' مشتق من 'ردى'. يضاف الى ذلك أن النون في ريدان ليست لاحقة، وليست أداة تعريف، كما يزعم الصليبي. والكلمة ريدان اسم مركب من رَيْد (الحرف الناتىء من الجبل أو رأس الجبل) ومن «ان» - صفة القوة العالية المطلقة (الله) بمفهوم مجتمعات سوريا الطبيعية والعربيتين. ومدلول ريدان هو «منحدر ان» أو «جبل ان». وقد ذكرنا وأكدنا في أكثر من مجال أن النسبة الغالبة من المظاهر الطبيعية في العربيتين تحمل اسماء يدخل في تركيبها صفة القوة العالية «ان» - (السيد) - (الله بمفهومنا). من ذلك مثلاً: نجران (مجرى ان) ظهران (وميض، تلألؤ، اشراق ان) ري ان (يروي ان) غمران (ماء بين نجد والحجاز) نهل ان (جبل في نجد). وقد أشرنا الى اسماء المظاهر الطبيعية في العربية الجنوبية التي يدخل «ان» - (السيد) - (الله بمفهومنا) في تركيبها، نذكر منها: أوس ان. نجر ان. قتب ان. عمد ان. لحي ان. ريد ان. بيح ان. همد ان. وهر ان. نعم ان. ترب ان. غيل ان. شهر ان. ذبي ان. رام ان. نهل ان. ريع ان. خول ان. صفو ان. عبد ان. عذر ان. يفعان. وفي العربية الشمالية نذكر من مثل هذه الاسماء: سعد ان. جِلذ ان. جيزان. حيّان. شمران. اب ان. أوس ان..

والسؤال: كيف عرف حضرة المؤرخ أن «يردن هي تعبير طوبوغرافي يعني جرفاً أو قمة أو مرتفعاً»؟. وأي قاموس أو معجم لغوي قدّم له هذه الحقيقة الساطعة التي تبهر أعين العميان لغوياً؟.

وبناء على هذه التخريجات التلفيقية التي يعتمدها حضرة المؤرخ يجعل من 'اردن أريحا' 'جرف يرحو'. ويرحو، باعتباره، «تشير الى مرتفع في جبل عيسان من بلاد زهران حيث يبدأ وادي وراخ. وفيه أيضاً قرية اسمها وراخ». ص ١٣٥

والطريف أن المؤرخ صليبي يجد أكثر من 'يردن' واحدة في غرب شبه الجزيرة العربية. ولذلك فان عبارة «هذا الاردن» التوراتية التي تتكرّر هي، باعتبار الصليبي، «هذا الجرف أو هذا المرتفع، تفريقاً عن أجراف أو مرتفعات أو قمم أخرى». ص ١٣٥

ولما عمل حضرة المؤرخ صليبي من يردن «تعبيراً طوبوغرافياً يعني جرفاً أو

قمة أو مرتفعاً» صادفته مشكلة نعمان الارامي الذي كان يعاني من داء البرص، كما يقول الراوي التوراتي. وحين غطس، بناء على نصيحة النبي اليهودي ايليشع، في مياه الاردن سبع مرات «رجع لحمه كلحم صبي صغير، وطهر. سفر الملوك الثاني ٥: ١٤» على ذمة الراوي التوراتي.

ولكن هذه المشكلة سهلة الحلّ بقلم المؤرخ كمال الصليبي الذي استطاع (وحده طبعاً) أن يقتلع أرض فلسطين من ساحل المتوسط الشرقي، ويثبتها في ساحل البحر الأحمر الشرقي، في عملية تلفيقية رهيبة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها. فماذا فعل صاحبنا المؤرخ بمشكلة نعمان الارامي؟.

أراد لـ 'يردن' الذي عمل منه في الصفحات السابقة «تعبيراً طوبوغرافياً يعني جرفاً أو قمة أو مرتفعاً». أراد له أن يظهر، وبعملية جبرية قاهرة، بمعنى جدول ماء. واليك كلامه حرفياً «إن تعبير يردن يظهر في بعض الحالات في التوراة بمعنى جدول ماء أو بركة. وبهذا المعنى تكون الكلمة مشتقة من يرد (وبالعربية ورد) بمعنى ذهب الى الماء» ص ١٣٥ وهكذا فان يردن التي غطس فيها نعمان الارامي سبع مرات (سفر الملوك الثاني ٥: ١٤)، «ليعالج نفسه من الجذام، كانت بالتأكيد (تأمل بالتأكيد) بركة ماء أو نبعاً أو جدولاً». ص ١٣٥

وخلاصة القول كان لـ «يردن»، باعتبار الصليبي طبعاً، معنيان: الأول جرف أو قمة أو مرتفع، والثاني بركة ماء أو نبع أو جدول. وكان لـ «يرد» معنيان أيضاً، وباعتبار الصليبي طبعاً، الأول «يرد الذي يعني انحدر، هبط، سقط. ومن الجذور التي تقابل يرد بالعربية 'ردى' بمعنى سقط، تهوّر من جبل عال» ص ١٣٣ والثاني «يرد» بمعنى ذهب الى الماء. وبالعربية ورد». ص ١٣٥

وزيادة في البرهان على العملية الجبرية التي جعلت من الأردن الذي غطس فيه نعمان الارامي، «بركة ماء أو نبعاً أو جدولاً» يطرح الصليبي مسألة «قرب البركة من السامرة (شمرون) التي هي اليوم شمران في منطقة القنفذة. ويردن نعمان كانت بلا شك (تأمل التأكيد القاطع: بلا شك) تشير الى مجمع مياه في وادي نُعص الذي يجري هناك. وموطن نعمان المسمى آرام، يمكنه أن يكون اليوم وادي وَرَم في النهايات السفلى لرجال ألمع. و 'دمشق' التي تخصّه هناك هي اليوم ذات مسك». ص ١٣٥

مدهش هذا التلفيق الذي يجعل من الكتاب مباءة للخبط والتخليط.

ومدهش هذا الولوع الشديد بالاغراق في التفاهات، الذي يمسخ الأصول ويشتم العقول. شمرون فلسطين غير شمران العربية الشمالية، وقد ذكرنا ذلك من قبل وقلنا إن شمرون (يحمي الله) في فلسطين. وشمران (يحمي الله) في العربية الشمالية. وليست هذه تلك، ولا يمكن للصليبي أن يجعل من هذه تلك ولو كان أبرع ملفق عرفه التاريخ.

تبقى مسألة آرام دمشق التي جعل منها المؤرخ الالمعي كمال الصليبي، «وادي ورم في النهايات السفلى لرجال ألمع». فلا أود الردّ عليها أو التفنيد فيها. ومن العيب أن يصدر هذا الكلام عن مؤرخ يمسخ دمشق الى ذات مسك، ويقتلع هذه المدينة العريقة في التاريخ والحضارة من قلب بلاد الشام، ويزرعها في غرب شبه الجزيرة العربية. ويتغافل عن الحضارة الارامية التي عمّت سوريا الطبيعية والعربيتين، ووصل تأثيرها الى بلاد فارس شرقاً ومجتمعات حوض المتوسط غرباً، والتي عمرت ١٥٠٠ سنة، وكانت أروع الحضارات التي سبقت الاسلام.

ومن البراهين التي يطرحها المؤرخ كمال الصليبي ليثبت، وبلغته «لاثبات حقيقة أن أردن التوراة لم يكن نهراً، بل مجرد تعبير طوبوغرافي يشير الى أجراف أو قمم ومرتفعات جبلية في جنوب الحجاز وعسير» ص ١٣٦ يعمد الى اقتباس نصوص من التوراة يبيّن من خلالها «كيفية ورود الاسم (يردن) بالترابط مع مجموعات مختلفة من اسماء الاماكن في غرب شبه الجزيرة العربية». ص ١٣٦

النص الأول: «ثم ارتحل بنو اسرائيل من جبل هور ونزلوا في صلمونة. ثم ارتحلوا من صلمونة ونزلوا في فونون. ثم ارتحلوا من فونون ونزلوا في أوبوت. ثم ارتحلوا من أوبوت ونزلوا في عيّي عباريم في تخم مؤاب. ثم ارتحلوا من عيّيم ونزلوا في ديبون جاد. ثم ارتحلوا من ديبون جاد ونزلوا في علمون دبلاتايم. ثم ارتحلوا من علمون دبلاتايم ونزلوا في جبال عباريم أمام نبو. ثم ارتحلوا من جبال عباريم ونزلوا في عربات مؤاب على أردن أريحا. نزلوا على الاردن من بيت يشيموت الى آبل شطّيم في عربات مؤاب. سفر العدد ٣٣: ٤٠ ـ ٤٩».

هذه المدن والمظاهر الطبيعية (جبال، أنهار، مناطق) كانت بنظر المؤرخ

صليبي كالأغراس الغضّة، سرعان ما اقتلعها منْ الجنوب السوري وغرسها في غرب شبه الجزيرة العربية، بفعل جبري قاهر جداً، قائم على تشويه وتحريف وتزييف وتلفيق صفيق، لا تجد شبيهاً له في كتاب آخر في العالم.

جبل هور هو باعتبار الصليبي مرتفع هر في بلاد غامد وزهران

صلمونة هي باعتباره سلمن في بلاد غامد وزهران

فونون هي باعتباره جبل النوف في بلاد غامد وزهران

أويوت هي باعتباره وادي بات في بلاد غامد وزهران

عيّيم هي باعتباره عرباء في جبل شدا

ديبون هي باعتباره بَذْوَن قرية في بلاد غامد وزهران

جاد هي باعتباره غذ قرية في بلاد غامد وزهران

علمون هي باعتباره عمْلة قرية في بلاد غامد وزهران

دبلاتايم هي باعتباره البدلة قرية في بلاد غامد وزهران

نبو هي باعتباره نباه في مرتفعات جبل غارب في سراة زهران

عربات هي باعتباره غُرابة الواقعة الى الشرق من الشق المائي بين اقليمي زهران والطائف

مؤاب هي باعتباره أم الياب

يردن هي باعتباره الجرف

أريحا هي باعتباره وادي وراخ

بيت يشيموت هي باعتباره الاثمّة في إقليم زهران

شطيّم هي باعتباره جبل شتان المسمى اليوم وادي وَجّ في اقليم الطائف.

يمكن للصليبي، كرائد في أشهر عملية تلفيق عرفها التاريخ، أن يجعل من جبل هور مرتفع هر. ومن أويوت وادي بات. ومن جاد غذ. ومن دبلاتايم البدلة. ومن نبو نباه. ومن بيت يشيموت الاثمّة. ومن شطيّم جبل شتان و...

قلت يمكنه أن يمسخ هذه الاسماء التوراتية والتراثية الى ما شاء من اسماء في غرب شبه الجزيرة العربية. ولكن لا يمكنه ولو كان رائداً لاشهر عملية تلفيق عرفها التاريخ، أن يمسخ الاسماء المعبّرة من مثل صلمونة وفونون وديبون وعلمون. فـ «صلمونة» اسم مشوّه كمئات الاسماء المشوهة في التوراة. وهو في الأصل سلمون (يسلم الله) وقلب السين الى صاد مشهور ومعروف لدى الكاتب

التوراتي، ويكفي أن أشير الى اسم سموئيل (اسم الله) الذي شوّهه المحرر التوراتي الى صموئيل. فـ «سلمون وفونون وديبون وعلمون» اسماء معبّرة يدخل في تركيبها صفة القوة العالية المطلقة «أُون» ـ (السيد) (الله بمفهومنا). وقد ذكرنا وأكّدنا في أكثر من مجال أن صفة القوة العالية «أُون» كانت أصلاً باللسان الشرقي «ان». ومسخ مثل هذه الاسماء المعبّرة التي يدخل «أون» في تركيبها مخجل ومعيب لمن قام بعملية المسخ، ولمن قبلوا ورحبوا بهذه العملية.

أما أريحا التي تعتبر أقدم مدينة في العالم ما تزال قائمة الى اليوم، والتي مسخها الصليبي الى وادي وراخ، فأترك التعليق على عملية المسخ هذه الى المثقفين وأساتذة الجامعات الذين رحّبوا بكتاب الصليبي وصفقوا له.

تبقى الاشارة الى اسم المملكة العظيمة في جنوب سوريا (مؤاب) الذي مسخه الصليبي الى قرية ام الياب بين اقليمي زهران والطائف. فـ «الياب» من الاسماء المعبرة (ايل أب) يعني الله ينبت، يخضّر الأرض. والجدير بالذكر أن الفعل أب (يخضّر، ينضّر، يُنبت الكلأ) هجاء واحد (فتح فسكون)، وهو آخر ما تكون عليه اللفظة. وهذا يدل على قدمها كما يقول اللغوي الكبير الأب انستاس ماري الكرملي، مستشهداً بقول ثعلب «الأب كل ما أخرجت الأرض من النبات». ويعني أيضاً أنها من اللغة السورية العربية الأم، وهي شائعة في الالسن الأخرى من مثل الكنعاني والبابلي والارامي. وقد عبّر القدماء في سوريا الطبيعية عن ايمانهم بأن الله هو الذي يُنبت الكلأ وينضّر الأرض باسم أب ايل أو ايل أب (الله يخضّر، ينضّر الأرض).

واذا كانت الاسماء المركبة من الفعل المعبّر «أب» ومن صفة القوة العالية المطلقة «ايل»، قليلة، فان الاسماء المركبة من هذا الفعل ومن صفة القوة العالية المطلقة «ان» ـ (السيد) ـ (الله بمفهومنا) كثيرة، وقد ظلت شائعة حتى العصور الاسلامية مثل أب ان (الله ينضر، يخضّر الأرض). فهذا الاسم ذو المدلول المعبّر الرائع كان شائعاً ومشهوراً جداً في العصور الاسلامية. فمن الاسماء التي وردت في مصنف البخاري «التاريخ الكبير» نذكر: ابان بن سعيد بن العاص. ابان بن عثمان بن عفان. ابان الرقاشي. ابان بن صالح. ابان بن صمعة. ابان بن تغلب. ابان بن الوليد. ابان بن اسحق الأسدي. ابان بن بشير. ابان بن عبد الله. ابان بن جبلة. ابان بن يزيد. ابان بن خالد. ابان بن أبي عيّاش.

ابان بن عمر بن عثمان. ومن الاسماء الكثيرة التي يذكرها ابن دريد في مصنّفه «الاشتقاق» نذكر: ابان بن دارم. ابان بن مروان. ابان بن أبي عمرو.

وخلاصة القول إن مسخ اسم المملكة العظيمة (مؤاب) التي قامت في الجنوب السوري، الى اسم الياب (ايل أب) هو سقوط الى أعمق مهاوي الخسة والنفاق والضعف. وهو تعبير عن فساد الكلام والتفكير في هذا العصر (العقد الأخير من القرن العشرين). وتعبير عن جهالة أولئك القوم (المتثقفون المعجبون بكتاب الصليبي) الذين استطاعت عقولهم أن تزدرد وتهضم كل ما تضمّنه كتاب الضليبي من سخافات وتفاهات.

والحقيقة أن عمليات التلفيق التي مارسها الصليبي في هذا النص وفي النصوص اللاحقة، لزرع اسماء الأماكن التوراتية المذكورة في قصة العبور اليشوعي، في غرب شبه الجزيرة العربية، تشقي المستنير بمشاعر الانكار والاحتجاج، وتضنيه بمغالبة الشعور بالاختناق من شدة الاشمئزاز. ولذلك أهملت تفنيدها أو الردّ عليها حتى لا يصاب القارئ بمثل ما أصبت.

والمهم أن الصليبي سطّر، تلفيقاً وتدجيلاً، ٢٢ صفحة تحت عنوان «مسألة الأردن»، محاولاً اقناع القارئ البسيط أو الساذج أو الغافل «أن أردن التوراة لم يكن نهراً»، وإنما هو «تعبير طوبوغرافي يعني 'جرف' أو 'قمة' أو 'مرتفع'. ويشير الى الجرف الرئيسي لسراة عسير الجغرافية الذي يمتد من الطائف في جنوب الحجاز الى منطقة ظهران الجنوب قرب الحدود اليمنية» ص ١٣٤. ومحاولاً أيضاً شحن عقل القارئ عينه (أي البسيط أو الساذج أو الغافل) بالعبارات التي تعبّر عن الهدف الذي يرمي إليه، والغاية التي يسعى إليها. من ذلك مثلاً قوله «إن الاردن يشير الى أراضي عسير الداخلية تفريقاً لها عن عسير الساحلية التي كانت أرض يهوذا التوراتية» ص ١٣٤ (كذا: أرض عسير الساحلية كانت أرض يهوذا التوراتية). وحديثه عن «الرواية المفصّلة للعبور الاسرائيلي للـ 'أدرن' بقيادة يشوع» ص ١٣٦ وعن «تحديد المنطقة التي وصلها الاسرائيليون بقيادة موسى» ص ١٣٦ وعن «تتبّع العبور الاسرائيلي حتى في أدق تفاصيله في مسرح غرب شبه الجزيرة العربية» ص ١٣٦ وعن «نقطة العبور التي حدّدت في سفر يشوع بدقة مذهلة» ص ١٤٠ (كذا: تحديد المنطقة التي وصلها الاسرائيليون بقيادة موسى في غرب شبه الجزيرة العربية. وليفهم الفاهمون.

ولتنفلق رؤوس المستنيرين).

جرار

تحت عنوان «البحث عن جرار» عقد المؤرخ كمال الصليبي فصلاً كاملاً «للبرهان على مدى الدقة في مطابقة جغرافيا التوراة العبرية لجغرافيا غرب شبه الجزيرة العربية. وعلى مدى الضعف في مطابقة تلك الجغرافيا لجغرافيا فلسطين» ص ٨٥ (تأمل التعابير التأكيدية: السمة ـ النقيصة البارزة في اسلوب الصليبي: مدى الدقة في مطابقة.. مقارنة بمدى الضعف في مطابقة..).
وشاهده على هذه (الدقة) وما يقابلها من (ضعف) هو «جرار التوراتية التي يفترض أنها ازدهرت في القدم في جوار غزة بساحل فلسطين في موقع غير بعيد عن بئر السبع» ص ٨٥ والتي ورد ذكرها في أكثر من نصّ توراتي. ففي تحديده أرض كنعان يقول محرر سفر التكوين ١٠: ١٩» وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجئ نحو جرار الى غزة. وحينما تجئ نحو سدوم وعمورة وأدْمة وصَبُوييم الى لاشع». وفي حديثه عن تغرّب ابرام (ابراهيم) في أرض فلسطين يقول محرر السفر «وانتقل ابراهيم الى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور. وتغرّب في جرار. تك ٢٠: ١». وعن تغرّب اسحق في أرض الفلسطينيين، يقول المحرر «فذهب اسحق الى أبيمالك ملك الفلسطينيين، الى جرار. تك ٢٦: ١».

فالصليبي يؤكد «على عدم وجود أي مكان في فلسطين يحمل هذا الاسم» ص ٨٥ ودليله على هذا التأكيد ـ الزعم هو «أن موضع جرار التوراتية لم يحدّد بصورة مرضية في أرض فلسطين» ص ٩٣.

وبما أن موقع جرار الفلسطينية لم يكتشف حتى اليوم، يسارع المؤرخ كمال الصليبي الى البحث عنها في عسير، فيكتشف «ما لا يقل عن أربعة (جرارات) في مرتفعات عسير، بين آل زيدان (صيدون باعتباره) وآل عزّة (غزة باعتباره أيضاً)». «وأول جرار هناك الى الشمال من قرية آل زيدان (صيدون) هي غُرار في جبل بني مالك. والثانية تقع في مكان أبعد الى الشمال وهي الجرار في جبل هَروب. والثالثة أبعد أيضاً الى الشمال وهي غِرار عبر وادي عِثْود في رجال ألمع. والرابعة أبعد أيضاً وأيضاً الى الشمال وهي القرارة التي تقع في

مرتفعات السراة بالقرب من تنومة الى الجنوب من النماص. . مما يجعل الباحث يحتار في أي من هذه (الجرارات) الأربع كانت جرار التي يعنيها سفر التكوين ١٠» ص ١٠١.

ويضيف الصليبي «وهكذا أصبحت القضية واضحة، فليست (والصحيح ليس) هناك أية (والصحيح أي) جرار قرب غزة في فلسطين. وبين (الجرارات) الكثيرات الموجودات في عسير، فان واحدة (القرارة) قرب خميس مشيط هي جرار الفلسطينية. وأن قادش هو الكَدَس. وشور هي آل أبو ثور» ص ٩٨.

هكذا وبجرّة قلم بسيطة من يد المؤرخ النجيب والعبقري الداهية، أصبحت جرار الفلسطينية قرية القرارة في عسير. وتحولت قادش (القدس) الى الكَدَس. كما تحولت شور الى آل أبو ثور.

وبما أن سفر التكوين (٢٦) يحدّد موقع جرار بالنسبة الى «بئر سبع»، يسارع المؤرخ صليبي الى التأكيد بأن بئر سبع الفلسطينية هي قرية الشباعة في جوار خميس مشيط. «واليكم البرهان القاطع على ذلك» ص ٩٤ كما يقول: «بئر السبع بالعربية تعني 'بئر الوحش المفترس'. ويمكنها أيضاً أن تعني 'بئر السبع' بمعنى العدد ٧. وبهذا المعنى الأخير يمكن أن تؤخذ على أنها ترجمة عربية للتعبير العبري ب ءر شبع الذي يمكنه أن يعني بطريقة ملتوية 'بئر سبع' بمعنى العدد ٧ (وليس بئر السبع بالتعريف. وهذه بالعبرية ب ءر هـ ـ شبع وليس بئر شبع). لكن الأقرب الى العقل هو أن الاسمْ العبري يعني بئر امتلاء. والواضح أن الاسم البديل المعطى للمكان ذاته في سفر التكوين ٢٠، الذي هو شبعه بالتأنيث يعني امتلاء، شبع (امتلاء المعدة). ولكي يعني الاسم بئر امتلاء كان عليه أن يكون بالعربية بئر شبع أو بئر شباعة، وليس بئر السبع» ص ٨٨.

الحقيقة أن هذا «البرهان القاطع» الذي يقدّمه المؤرخ صليبي هو جملة تعابير تلفيقية أخرجت بقالب معادلة جبرية:

بئر السبع (العدد ٧) = بئر شبع

بئر شبع = بئر سبع (العدد ٧) بطريقة ملتوية

بئر سبع = بئر امتلاء

امتلاء = شبع (امتلاء المعدة)

بئر شبع = شباعة

الملاحظ أن هذا «البرهان القاطع» الذي عرضه الصليبي بهذه الطريقة الجبرية، جاء خالياً من أي مضمون. تأمل في هذه التعابير الجبرية:

«بئر السبع لا يجوز أن تعني «بئر الوحش المفترس».

وإنما يمكنها (تأمل في يمكنها) أن تعني بئر السبع (العدد ٧).

وبئر السبع يمكن (تأمل في يمكن) أن تؤخذ على أنها ترجمة عربية للتعبير العبري بئر شبع الذي يمكنه (تأمل في يمكنه) أن يعني بطريقة ملتوية (تأمل في ملتوية) بئر سبع (العدد ٧)».

«ولكي يعني الاسم «بئر امتلاء» كان عليه (تأمل في كان عليه) أن يكون بالعربية بئر شبع أو بئر شباعة، وليس بئر السبع».

وهكذا حوّل الصليبي بئر سبع الى بئر شباعة أو قرية الشباعة في جوار خميس مشيط (في غرب شبه الجزيرة العربية)، في عملية تلفيق جبرية، مذهلة بالشروح التافهة والتمحّلات السخيفة، ومؤذية لذوي البصائر القارئة والمفكّرة والمتسائلة.

منطق الصليبي أن موقع جرار لم يكتشف في أرض فلسطين. إذاً فلتكن واحدة من بين (الجرارات) الكثيرات الموجودات في عسير، هي جرار التوراتية. وهذه الواحدة التي تحوّلت الى جرار بعملية قلب وابدال ماسخة، هي القرارة.

والمدهش الى حدّ الانذهال هو الدليل الذي يسوقه المؤرخ ـ المؤلف كمال الصليبي، تأكيداً لمقولته إن جرار التوراتية، هي القرارة في غرب شبه الجزيرة العربية. يقول «وأكثر من ذلك (يعني تأكيداً لما قاله أو طرحه) فان هناك في اصحاحي سفر التكوين ٢٠ و٢٦ ذكر (والصحيح ذكراً) لملك لـ جرار يدعى أبيمالك. . .وهنا لا بد من ابداء ملاحظتين: الأولى هي أن كامل المنطقة التي تقع على جانبي الشق المائي شمال غرب خميس مشيط، بما فيه الجزء من وادي بيشة حيث توجد القرارة، يحمل الى اليوم الاسم القبلي (بني مالك). وهناك أيضاً قرية تسمى (بني مالك) في المنطقة نفسها. وهذا يمكنه أن يعني أن أبيمالك (التي تعني حرفياً والد مالك) الواردة في اصحاحي سفر التكوين ٢٠ و٢٦ لم تكن بالضرورة اسماً لشخص معيّن، بل ربما كانت لقباً أطلق قديماً في المنطقة على زعماء قبيلة مالك الذين كانوا أيضاً ملوك القرارة» ص ٩٨.

الواضح أن هذه التلفيقات القميئة والتمحّلات البذئية خير دليل على تقصير

المؤرخ في الاطلاع على تراث هذه الأرض، وعلى المؤلفات التي تناولت جوانب مختلفة من هذا التراث. وكلمة مقصّر أو تقصير قد لا تفي بالتعبير عن حال الصليبي المزرية في هذا الجانب من المعرفة الواعية. والحقيقة أن هذا المؤرخ يجهل تراث هذه الأرض جهلاً تاماً. ومع جهله المطلق يتناوله في البحث. والسؤال: ماذا تسمّي باحثاً يكتب في موضوع يجهله جهلاً مطلقاً؟.

إن (أب ملك) ملك الفلسطينيين في جرار لا علاقة له بالاسم القبلي (بني مالك) ولا بقرية (بني مالك)، لأن هذين الاسمين حديثان في غرب شبه الجزيرة العربية. وإذا كانا قديمين فلا يمكن أن يعودا الى القرن الثامن عشر ق.م ـ عصر (أب مالك) ملك جرار الفلسطيني. وإذا كان اسم (بني مالك) يعني حرفياً بني مالك، فان (أب ملك) لا يعني حرفياً والد مالك، كما يزعم الصليبي. والواقع أن اسم (أب ملك) مركب من أب (يخضّر، ينضّر الأرض) ومن صفة القوة العالية (ملك). ومدلول هذا الاسم هو «الله يخضّر، ينضّر الأرض». وقد ذكرنا في ما تقدم أن الفعل أب هجاء واحد (فتح فسكون)، وهو آخر ما تكون عليه اللفظة. وهذا يدل على قدمها كما يقول اللغوي الكبير الأب انستاس ماري الكرملي، مستشهداً بقول ثعلب «الأب كل ما أخرجت الأرض من النبات». ويعني أيضاً أنها من اللغة السورية العربية الأم، وهي شائعة في الألسن الأخرى من مثل الكنعاني والبابلي والأرامي. ومن الاسماء الأخرى المركبة من هذا الفعل ومن صفات القوة العالية: أب بعل، ماردوك أب. أب ان. أب ايل.

ولو كان الصليبي يعرف أن أب ملك اسم مركب ومدلوله «ملك (الله بمفهومنا) يخضّر، ينضّر الأرض» لأراح القارئ من هذه التلفيقات التي تشوّه تراث هذه الأرض، وتُفسد عقول الناشئة. وبالحري تُفسد عقول الخاصة في المجتمع من مؤرخين ومؤلفين وأساتذة جامعات وغيرهم ممن ينصّبون أنفسهم أعلاماً في التاريخ والحضارة و..

ويستمر الصليبي في «البحث عن جرار» ملفّقاً أقوالاً تشبه تلفيق الخنفشار. متحدثاً في عشرين صفحة من كتابه، بارهاق وديمومة، عن مزايا اعتباره «أن موقع جرار التوراتية في فلسطين لم يحدّد بصورة مرضية أو نهائية. وما من مكان في فلسطين استمر في حمل اسم مشابه» ص ٩٣ وهذا يعني أن حضرة المؤرخ البروفسور كمال الصليبي لم يفكر في مسألة جوهرية، من الضروري أن

يدركها كل مؤرخ يتناول تاريخ هذه الأرض، وهي أن مئات المدن التي كانت يوماً مشاعل أو منائر حضارية في هذه الأرض، لا تزال مدفونة تحت التراب في أرض سوريا الطبيعية. وقد تبقى آثار جرار راقدة تحت الأرض الى آخر الدهر. وقد تكتشف صدفة. ولم يفكر في أن أوغاريت اكتشفت صدفة. والنصوص التي اكتشفت فيها غيّرت مفاهيم المؤرخين وقلبت معارفهم رأساً على عقب. ولم يفكر أيضاً في أن ايبلا اكتشفت صدفة في تل مارديخ. والألواح التي اكتشفت فيها يقول علماء الآثار انها ستغيّر أيضاً الكثير الكثير من المفاهيم والمعارف السائدة أو المتعارف عليها حتى الآن.

تهامة وتهوم

وفي الفصل السادس يطرح الصليبي محاولة، وعلى مساحة عشر صفحات من كتابه، تتلخّص في اقناع القارئ بأن تهامة ـ الاسم الذي يطلق على الصحراء الساحلية في غرب شبه الجزيرة العربية، «هي في الواقع تهوم المشار اليها أكثر من ٣٠ مرة في النص التوراتي» ص ١٢٣.

أول ما فعله الصليبي برهاناً على المقولة التي يطرحها هو ابتكار الصيغ المختلفة لهذا الاسم: تهم، هيم، هام، الهُيام، هَيام، الهيماء، تهوموت، تهمت.. ليوهم القارئ بأن لفظ «تهامة هو استمرار في الوجود لمصطلح تهوم المثبت في التوراة» ص ١٢٤.

يقرر الصليبي أن «اسم تهامة ليس اسماً عربياً، لكنه مشتق من جذر عربي» ص ١٢٣ والسؤال: كيف يتمكن القارئ من الوقوف على مدلول هذا التعبير: ليس اسماً عربياً، ولكنه مشتق من جذر عربي؟.

«وهذا الجذر العربي هو هيم المصوّت هام بمعنى عطش، ومنه الهُيام وهو شدة العطش. ويشتق من هذا الجذر المصدر هَيام الذي يشير الى ما لا يتمالك من الرمل. ولذلك كان لاسم الصحراء الساحلية لغرب شبه الجزيرة العربية أن يكون الهيماء» ص ١٢٤ (كذا كان من الواجب أن يكون كما يريد المؤرخ صليبي).

ويقرّر أيضاً أن «اسم تهامة (الصحراء الساحلية في عسير) هو استمرار في الوجود لمصطلح تهوم المثبت في التوراة. وتهوم هي اسم الفعل أو المصدر

المؤنث من هوم (قابل بالعربية هيم). والتاء في بداية الاسم هي الضمير المتصل المؤنث المفرد للغائب» ص ١٢٤.

ويقرّر أيضاً وأيضاً أن «الشكل العربي الحالي لـ 'تهوم'، وهو تهامة، يشدّد على أن الاسم هو مؤنث باضافة لاحقة التأنيث، كما لو قيل تغلبة بدلاً من تغلب، أو تدمرة بدلاً من تدمر».

وأيضاً يقرر أن كلاً من تهامة وتهوم لا تُعرّف وهذا يعني أن اللفظ ليس اسمَ نكرة يمكنه أن يعرّف، بل هو اسم جغرافي.

وخلاصة هذه التقريرات التلفيقية المنكرة «أن تهوم تعطي معناها الأفضل حيث ترد في التوراة العبرية، بكونها الاسم السامي القديم للأراضي الساحلية لغرب شبه الجزيرة العربية التي تسمى اليوم تهامة» ص ١٢٥.

الواقع أن عقل القارئ المستنير يشقيه احتجاجاً على جهالة مؤرخ يحتفي بكل هذه التفاهات والغباوات، متوهماً أنه يستطيع أن يدفقها في ذهن القارئ البسيط أو صاحب الثقافة المشوهة، بمحاولات تبريرية ملفقة، على أنها (حقائق) علمية، من الضروري، أو قل من الواجب أن تتذوقها الأذهان وتزدردها العقول.

وللبرهان على هذه (الحقيقة) الساطعة التي يكتشفها حضرة المؤرخ، يعمد الى طرح المعادلات الجبرية التي تؤدي، وبالحلول التي يضعها طبعاً، الى تأكيد المقولة التي يطرحها والغاية التي يسعى إليها. فهو يرى أن تهوم التوراة لا تعني 'الغمر' أو 'اللجة'، كما شاع التعريف في الكتاب المقدس ولدى المؤرخين والمؤمنين. وإنما تعني اسماً جغرافياً. «وقد قرئت خطأ وترجمت خطأ» ص ١٢٦ ودليله على الخطأ في القراءة والترجمة هو الخطأ في ترجمة البركات التي أسبغها على سبط يوسف كل من يعقوب (اسرائيل) وموسى. فيعقوب يقول لابنه يوسف «من إله أبيك الذي يباركك تأتي بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت. بركات الثديين والرحم. تك ٤٩: ٢٦». وموسى «يقول ليوسف: مباركة من الرب أرضه بنفائس السماء بالندى وباللجة الرابضة تحت. تثنية ٣٣: ١٣». فهذه الترجمة خطأ، باعتبار الصليبي. وصحيحها، وباعتباره طبعاً، «أن قبيلة يوسف شغلت أرضاً تقع في وادي أضم وجواره، في المرتفعات المطلّة على صحراء تهامة الساحلية. وفي هذا المكان توجد الى اليوم

قرى تسمى ركّة، والربيضة، والثديين، والرحم، والبركة، والمقدة. وكذلك مجموعتان من القمم التوائم كل منهما تسمى السماين. فإذا أعيدت قراءة البركات التي أسبغت على قبيلة يوسف على ضوء اسماء الأمكنة هذه، يتبين انها لا تتعلق عملياً بـ "بركات" بل بتحديدات لأراضي القبيلة». وهذه القراءة، وباعتبار الصليبي طبعاً، هي: «سوف ينزلك (يبركك) في ركّة السماين من أعلى، في ركة تهامة الربيضة من أسفل. في ركّة الثديين والرحم» ص ١٢٧ «وفي البركة الثانية يشار الى حدود أراضي يوسف الداخلية بأنا قريتا البَرَكَة والمقدّة المجاورتان للسماين» ص ١٢٨.

وخلاصة القول «أن البركات الاثنتين المسبغتين على قبيلة يوسف، في سفر التكوين والتثنية، توردان اسماء أمكنة تتعلّق بتحديدات لأراضي القبيلة».

واذا أردنا أن نوجز العملية الجبرية التي استغرق حلّها في كتاب الصليبي فصلاً كاملاً من عشر صفحات، يتضح لنا ما يلي:

- أن تهوم التوراة ليست لجة أو غمراً، وإنما هي اسم جغرافي.

هذا الاسم الجغرافي هو تهامة - الصحراء الساحلية في غرب شبه الجزيرة العربية.

- والدليل على أن تهوم التوراة قرئت خطأ وترجمت خطأ، هو الخطأ في الترجمات للبركات التي أسبغها على سبط يوسف كل من يعقوب وموسى.

- فالبركات تتعلّق بتحديدات لأراضي القبيلة. وتهوم التوراة اسم جغرافي يتعلّق بأرض يهوذا التوراتية التي تضمّنت البلاد الهضبية في الجانب البحري من عسير.

وبلغة جبرية أشد تكثيفاً:

- تهوم - اللجة، الغمر، أجبرها المؤرخ على أن تكون اسماً جغرافياً.
- وهذا الاسم أجبره على أن يكون تهامة.
- وتهامة أجبرها على أن تكون أرض يهوذا التوراتية.

وفي بركات يعقوب:

- يباركك، أجبرها على أن تكون يبركك أي يُنزلك.
- بركات، أجبرها على أن تكون قرية ركّة.
- السماء، أجبرها على أن تكون السماين.

- الرابض، أجبرها على أن تكون قرية الربيضة.
- بركات الثدين والرحم، أجبرها على أن تكون قريتي الثديين والرحم.
وفي بركات موسى:
- مباركة، أجبرها على أن تكون قرية البَرَكَة.
- بنفائس أجبرها على أن تكون 'مجد'.
- و 'مجد' أجبرها على أن تكون قرية المقدّة.
وهكذا أجبر المؤرخ كمال الصليبي بركات يعقوب وموسى ليوسف على أن تصير اسماء «قرى تحدد الأراضي التي شغلتها قبيلة يوسف في وادي أضم وجواره في المرتفعات المطلّة على صحراء تهامة الساحلية» ص ١٢٧.
في هذا الفصل يتجلّى تعبير الصليبي عن نفسه بأنه الموهوب جداً في تفسير التاريخ، وفي مداواته من الأغلاط التي ألحقها به المؤرخون الآخرون، وفي تنقيته من الأخطاء التي لصقت به جراء الجهل المزمن في القراءات وفي الترجمات. فالمؤرخ العربي، باعتبار الصليبي، جاهل ومقصّر على المستويات كافة: الفكرية والنفسية والثقافية. وعلى هذا الاعتبار جاء الصليبي ليقوّم ما أفسده الآخرون، وليصحّح الأغلاط التي لحقت بالتاريخ. جاء ليحوّل مستويات الضعف والعجز والتفاهة والتقصير التي يرسف فيها المؤرخ العربي، الى مستويات واقعة وضاجة ومثيرة ونشيطة ومرئية ومقروءة، مما هيأ لـ «تهوم التوراة أن تكون اليوم ساحل تهامة على البحر الأحمر، من شبه الجزيرة العربية» ص ١٣٢ وهيّأ لقبيلة يوسف أن تشغل الأرض في وادي أضم وجواره في المرتفعات المطلة على صحراء تهامة الساحلية» ص ١٢٧ وبالتالي أراد لقرائه أن تكون عيونهم حفراً تسقط فيها تفاهاته دون أن يستطيعوا رؤيتها. وأن يكون فكرهم مستعبداً منصاعاً للتمويه والتعمية والتلفيق. وأن تنقاد عقولهم صاغرة لـ (الحقائق) التي يعرضها مستنداً بظهره الى جدار راسخ صلد من ضحالة الوعي وغيبة الفهم ومرض الجهل المتعفّن.

شواهد من عمليات
التشويه والتحريف، والمسخ والتصحيف

قلت في مؤلفيّ السابقين «تاريخ الله» و «محمد واليهودية» إن أهم الدواعي والضرورات التي اقتضت دراسة مفهوم الألوهة في الذهن المشرقي القديم هو أن جماعة بني اسرائيل الذين لم تُعرف لهم جذور في أرض معيّنة، تجمّعوا في وقت ما (هو باتفاق المؤرخين القرن العاشر ق.م.) في بعض مرتفعات فلسطين، وأقاموا نوعاً من الكيان المزعزع القلق المفكك المتنازع، ظلّ محصوراً في رقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة. ولم يعمّر أكثر من ثمانية وسبعين عاماً، وهي المدة التي حكم فيها داود وسليمان. ثم سباهم البابليون والاشوريون الى بلاد ما بين النهرين. وهناك وضع أحبارهم وكهّانهم تاريخهم (التوراة). وفي تدوينهم ذلك التاريخ وضعوا على لسان إلههم (يهوه) وعده لهم باعطائهم أرض فلسطين «ميراثاً أبدياً. سفر التكوين ١٧ : ٨» في ما عقد من عهد أو حلف مع آبائهم الأولين. وانتحلوا تراث بابل وكنعان وادّعوه تراثاً يهودياً. وأخذوا بلسان أو شفة كنعان وادّعوه لغة عبرية. وتبنّوا إله سوريا الطبيعية «ايل» ـ (الله)، ودمجوه بإلههم (يهوه) الذي صار إله الأقوام والأمم المؤمنة بما يسمّى الديانات السماوية، خاصة أمم نصف الكرة الغربي.

وبعبارة أبسط وأقرب وأكثر وقعاً في النفس، على أمل أن تكون في صدر القارئ كالشعر حفظاً، وفي ذهنه كذاته وعياً، وعلى لسانه كالبسملة والحمد اللة ترديداً: سرقوا إلهنا وادّعوه، وسرقوا أرضنا وادّعوها، وسرقوا تراثنا وادّعوه، وسرقوا لغتنا وادّعوها.

عالجت موضوع الأرض في مؤلفاتي «وثيقة الصهيونية في العهد القديم»

و «أمجاد اسرائيل في أرض فلسطين» و «سقوط الأمبراطورية الإسرائيلية» و «العنصرية اليهودية»، وفصّلت القول في «يهوه» إله بني إسرائيل الخاص في كتابيّ «تاريخ يهوه» و «الأصولية المسيحية». وعرضت مفهوم «العالي» ـ (ايل ـ إله ـ الله) في مؤلفي «تاريخ الله». وألمحت في مؤلفي الأخير «محمد واليهودية» الى بعض ما تمثّله بنو اسرائيل من طقوس كنعان. والى ما انتحلوه من اسماء كنعانية، والى ما ألحقوه بها من تشويه وتحريف. على أمل أن أبسط موضوعي اللغة والتراث في أبحاث قادمة.

ولعلّ ما يشير الى مدى تأثّر جماعة بني اسرائيل بتراث بابل وكنعان، هو ما تضمّنه كتابهم المقدس من اسماء كثيرة يدخل «ايل» في تركيبها. فالمعروف أن آباء بني إسرائيل (على افتراض صحة وجودهم) عرفوا «ايل» ـ (الله). وقد أعطانا الحبر المحرّر دلالات كثيرة على شيوع الصفة «ايل»، وبالتالي على الأثر الكبير الذي تركته في النفسية الاسرائيلية. منها مثلاً أنه أطلق على ابن آدم هابيل (هب ايل) ـ «يعطي الله». وأطلق على أحفاد آدم اسماء: محو يائيل، متوشائيل، ومهللئيل. وأطلق على بكر ابرام اسم اسمعيل (يسمع الله). وعلى ابن اسمعيل اسم أدبئيل. وأطلق على ابني ناحور، أخي ابرام، اسماء قموئيل وبتوئيل. وأطلق على ابني عيسو أخي يعقوب اسماء ايلي فاز ورعوئيل، وغيّر اسم حفيد ابرام من يعقوب الى اسرائيل (الله ييسّر). ولأحفاد يعقوب أعطى الاسماء: يموئيل، ياحلئيل، أريئيل، ملكيئيل، ياحصئيل. ومن الاسماء الأخرى التي وردت في سفر التكوين: ايليعازر، فنوئيل، شأو ايل، مهيطبئيل، مجديئيل.

وفي سفر الخروج أعطى الحبر المحرّر لكاهن مديان وحمي موسى اسم رعوئيل (الله يرعى، أو يرعى الله). وأعطى لزوجة هرون اسم ايلي شبع، ولابنها اسم ايليعازر (الله يعين). و «المشاهير الجماعة رؤساء أسباط. سفر العدد ١» الذين عيّنهم موسى رؤساء للعشائر، أعطى اسماء: ايلي صر، شلوميئيل، نثنائيل، ايلي أب، ايلي يشمع، جمليئيل، ايلي ساف، رعوئيل، فجعيئيل.

والجدير بالذكر أن «الاله» لم يكن في مفهومهم حقيقة مثالية، تحاول الذات الاسرائيلية وعيها أو التطلّع بتهجّد إليها. وإنما كان في أذهانهم حقيقة

شبه ذاتية، يمكن للذات الاسرائيلية إدراكها أوالاحاطة بها. ومن هنا حفلت التوراة بصفات شخصانية للاله، وهي صفات غامضة أو مبهمة في غالب الأحيان. من أمثلة ذلك قول صاحب المزمور ٨٢: ١ «الله قائم في مجمع الآلهة. في وسط الآلهة يقضي». ومن الأمثلة أيضاً ما رواه محرّر سفر التكوين، قال «أخذ يعقوب امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر، وعبر مخاضة يبوق.. ثم بقي وحده. فصارعه انسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له: ما اسمك؟. فقال: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب، بل اسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت.. وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه. سفر التكوين ٣٢: ٢٤ ـ ٣٠».

عندما نصل في القراءة الى عبارة «إن لم تباركني» نفهم أن «الانسان» الذي صارع يعقوب هو الله. فالله هو الذي يبارك العبد. وهنا نعود الى قراءة النص، فنعرف أن فاعل «قال» الأولى هو الله. وفاعل «قال» الثانية هو يعقوب. ويكون التعبير «وقال (الله): أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال (يعقوب): لا أطلقك إن لم تباركني. فقال (الله) له ما اسمك؟». (فالله باعتبار الحبر المحرّر لا يعرف اسم الشخص الذي يصارعه).

المهم أن الله، بعد جولة المصارعة مع يعقوب، أطلق على يعقوب اسم «اسرائيل»، على اعتبار أنه «جاهد مع الله والناس وقدر». وفسّر محرّر التوراة الاسم في الهامش بقوله: يسرائيل أي يجاهد الله. ومن الجلي أن المقصود بالفعل «جاهد» هو الفعل «صارع»، لأن كل ما في المشهد من حوار وأحداث وأشخاص يعبّر عن المصارعة. فيعقوب وحده، وصارعه انسان (الله) حتى طلوع الفجر.. ويبدو أن أحد طرفي المصارعة (الله) انتهك قواعد اللعبة، فضرب حق فخذ يعقوب، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه.

وكما ظلّ مفهوم «العالي» ـ (ايل ـ الله) مكتنفاً بالغموض والابهام في الذهن الاسرائيلي، كذلك ظلّت الاسماء التي تدخل في تركيبها صفة «ايل» غامضة مبهمة في أذهانهم أيضاً. فالاسم المركب «اسرائيل» ـ (ييسّر الله أو الله ييسّر) كان شائعاً في سوريا الجنوبية مثل هب ايل (يعطي الله). ولكن الحبر

المحرّر لم يقف، لضحالة وعيه وانغلاق فكره، على معنى الاسم، فأعطاه معنى يجاهد الله أي يصارعه.

أما اسم المكان الذي تمّت فيه جولة المصارعة، فدعاه يعقوب، على زعم المحرر، «فنيئيل، قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه». فـ «فنيئيل» باعتباره تعني وجه الله. بينما هو في الحقيقة يعني منعطف أو ركن أو مفترق ايل.

لا أود أن أتحدث هنا عن موضوع التشويه والتحريف والمسخ والتصحيف الذي ألحقوه بالاسماء حتى خرجت عن معانيها ومدلولاتها، ولكني أود أن ألقي بقعة من الضوء على ما ألحقه المؤرخ كمال الصليبي بما تناوله من اسماء، من تحريف وتصحيف ومسخ وتشويه. وقبل ذلك أودّ أن أوجز القول، مكرّراً، في مسألة الاسماء المعبّرة في تراث سوريا الطبيعية.

ذكرت في ما تقدم، وأكرّر ما ذكرت، فالتكرار مطلوب أولاً، وضروري ثانياً، ومقصود ثالثاً. ذكرت أن المؤرخين والباحثين في حضارة سوريا الطبيعية، أجمعوا على القول بالدور الريادي الذي كان لمجتمعاتها في تاريخ الحضارة الانسانية. ولعل الجانب الأهم في هذا الدور هو ما أثر أو ما وصلنا عنهم من مفاهيم وأفكار (معتقدات) كانت الأولى في ما بقي لنا من تراث ميثولوجي، التي أشارت الى تعرّف الانسان الى القوة العالية المطلقة (إله) في «زمن البدء». والى دور هذه القوة في عملية التكوين والخليقة، وتنظيم الحياة على الأرض. والى تقرّبها من الانسان والاعتناء به ومساعدته في التعرّف على وسائل الحضارة.

والرائع الرائع في هذا الجانب من دورهم الريادي أنهم عبّروا في نظرتهم الى «السيد» «العالي» ـ (الله) عن مفاهيم أخلاقية واجتماعية كانت المثل الأعلى لسائر المذاهب الفكرية والدينية التي أبدعها أو وضعها الإنسان في ما بعد. وقد شكّلت هذه «النظرة» و «المفاهيم» منحى اجتماعياً خلقياً واتجاهاً فكرياً انسانياً (معتقدات) كانا خلاصة القيم والمفاهيم الانسانية. وظلاّ طوال ثلاثة آلاف سنة يصونان مفاهيمهم الاجتماعية ويحميان قيمهم الخلقية. وبهما ظلّت سوريا وقتاً طويلاً (ثلاثة آلاف سنة) المعلم الاخلاقي للبشرية.

وذكرنا أن القدماء في سوريا الطبيعية أطلقوا على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، وعلى القوى العالية القريبة، صفة «السيّد» أو صيغة مرادفة لهذه الصفة. فالصفات «ان» «شار» «رب» «بعل» «أدون» «مار» «ذو» تعني

السيّد. ومن الصفات المرادفة لصفة السيد نذكر مثلاً: «ملك» «ملقارت» - (ملك القرية - المدينة) «ماردوك» - (السيد العظيم) «يشع» - (المخلّص) «شيع القوم» - (مُخلّص القوم) «عطر سم» - (مجد السماء) «العزيز» - (الجبّار) «نرجال» - (النور العظيم) و «ايل» - (العالي) التي تطورت صيغتها الى «الله»، وأصبحت في الألف الأول ق.م. اسماً للقوة العالية.

والملاحظة التي تستوقف الباحث في حضارة المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، وفي معتقداتها، أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية، وفي العربيتين الشمالية والجنوبية، أكّد منذ عهد مبكّر في تاريخ نضجه الروحي والفكري على العلاقة الوطيدة بين مفهوم «السيد» «العالي» - (الله) وبين القيم الأخلاقية. أو قل إن هذا المفهوم توضّع في ذهنه مقروناً بالمثالية الخيرية للوجود، وبمفاهيم الحق والعدل والرعاية والحماية. وكانت النظرة العامة الى حكم «السيد» (الاله) تقوم على أساس أن «السيد» (الاله) يحمي ينقذ ينجّي يخلّص يحفظ يرعى يصون يمنح يهب ينعم ينير يشفق يعطف يرأف يلطف يرحم يبهج يسعد يسرّ يرضي يقوّي يعزّز يطهّر ينقّي يزود بوفرة يخصّب يفيض يشفي يعيل يعضد يقي يضمن يعدل يصلح يقضي (بالعدل) يزيد ينمّي يؤازر يسند يدعم ينصر يؤيد يسامح يغفر يجمع يفضل يبارك.. وباختصار، يعنى بحماية العبد ورعايته.

وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الأخلاقي باطلاق الاسماء المعبّرة عنه على بنيهم وعلى مظاهر الطبيعة حولهم. والاسماء المعبّرة باعتبارهم هي الاسماء المركبة من صفة القوة العالية ومن الفعل الأخلاقي الذي أسندوه الى القوة العالية. فـ «السيد» «العالي» المطلق، أو السيد العالي القريب، بمفهومهم أو باعتقادهم، هو المنعم. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الأخلاقي باسماء مركبة من صفة القوة العالية ومن فعل العطاء أو الانعام. خذ مثلاً الفعل «اش» أو «اس» في اللغة السورية العربية الأم الذي يعني العطاء والانعام. ولا يزال في عربية اليوم «أس يؤسهم أوساً واياساً: اعطاهم. والاوس العطية». هذا الفعل ذو المدلول الأخلاقي الرائع (أعطى اعطاء وانعم انعاماً) أضافوه الى «ان» - (السيد) و «ايل» - (العالي) - (المطلق، الله بمفهومنا) فكان لهم من الاسماء: اش ايل (ينعم الله) أوس ان (ينعم السيد). ويبدو أن صيغة «اش ايل» أكادية قديمة

راجت في مجتمعات حوض النهرين، وعنهم اقتبسها الاغريق. فالمعروف أن بطل الياذة هوميروس هو «اش ايل» اشيل. أما صيغة «أوس ان» فقد راجت في سوريا الطبيعية، وخاصة في جنوبها الشرقي، وشعّت إلى العربية الشمالية فالجنوبية. واسم «أوس ان» مشهور ومتداول كثيراً في العربيتين.

وعندما لحق الصفة «ايل» تطوّر في المبنى والمعنى (الألف الأول ق.م.) بفعل الزمان والبيئة واللسان، فتحولت الى «إله» فـ «الله» وأصبحت اسماً، أضافوا اليها أوس فكان لهم اسم أوس الله.

وكان من الطبيعي بفعل طبعيتهم الأخلاقية أن يضيفوا هذا الفعل ذا المدلول الأخلاقي الرائع (أعطى وأنعم) الى القوى العالية الأخرى التي تقرّبت من الانسان، أو قل إن الانسان شعر بقربها منه. فكانت، وما فتئت، تتفق مع مشاعره وحاجاته الفردية والاجتماعية العامة. وترتبط بعواطفه وتطلّعاته. فكان لهم من الاسماء اش بعل، اش نن، اش عشترت، أوس رضى، أوس مناة، أوس اللات، أوس كرب، وما الى ذلك.

ومن الواضح أن مدلول «أوس ايل» و «أوس ان» في مفهومهم هو مدلول «ينعم الله» ذاته في مفهومنا، لأن «ان» و «ايل» في مفهومهم هو «الله» في مفهومنا. وقس على ذلك الاسماء جميعها المقترنة بـ «ان» أو «ايل» في مركب اسنادي أو اضافي. وكذلك الأمر في الاسماء المقترنة بالقوى العالية الأخرى.

و «السيد» «العالي» بمفهومهم أو باعتقادهم أيضاً هو المكافئ المعوّض. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الأخلاقي باطلاق الاسماء المعبّرة عنه على بنيهم أو على مظاهر الطبيعة حولهم. والاسماء المعبّرة باعتبارهم هي الاسماء المركبة من صفة القوة العالية (الله) ومن الفعل أرب الذي يعني يعوّض يكافئ. وهكذا شاع فيهم اسم «ارب ايل» ـ (يعوّض الله). ومدينة أرب ايل (اربيل) في حزون بلاد النهرين الشمالية، عريقة في التاريخ والحضارة. وقد أسندوا هذا الفعل الى القوى العالية الأخرى فكان لهم من الاسماء: ارب ان، انو ارب، نبو أرب، سن أرب، أرب ماردوك، وما الى ذلك. والجدير بالذكر أن عبارة «يعوّض الله» لا تزال على ألسنة العامة في سوريا الطبيعية.

وكان يعتقدون أيضاً بأن الله ينير ويضيء. وقد عبّروا عن ايمانهم هذا باطلاق اسماء مركبة من «ايل» ومن الفعل «أور» ـ يضيء، فكان لهم من الاسماء

أورايل (ايل يضيء أو ضياء الله).

وأن الله يحمي أو هو الحامي (أري ايل). وأن الله ينجّي أو هو المنجّي (بلط ايل). وأن الله يقوّي الانسان ويشدّد من عزائمه (جبر ايل). وأن الله يرأف ويعطف (حنّ ايل). وأن الله يصون (حصر ايل) وأن الله يقضي في كل شيء، وهو القاضي، وسيّد القضاء (دان ايل). وأن الله يشفي (رفأ ايل). وأن الله يسند ويساعد (سعد ايل) وأن الله يسلّم ويحفظ (سلم ايل). وأن الله يشدّ الأزر ويقوّي العزائم (شدّ ايل، شد ملقارات، ايل شدّاي). وأن الله يعين (عزر ايل) وأن الله يعطي أو هو المعطي (نتن ايل). وأن الله يهب أو هو الواهب (وهب ايل. وهب ان. وهب يثع. وهب الله). وأن الله ييسّر للانسان ويسهّل له (اسر ايل، ايلي سر). وايليسار الكنعانية اخت ملك صور ومؤسسة قرطاجة في ساحل المتوسط الجنوبي (٨١٤ ق.م.). ومن اسمائهم: شارون، سار ايلات، ماردوك شار. وأن الله هو الذي ينضح في صدورنا القوة والبأس (عزّ ايل، عزّ ان، عزّ ون، عزّ بعل، عزّ عشترت). وأن.. وأن..

كان هذا التكرار مطلوباً وضرورياً ومقصوداً لكي يعرف القارئ أن ما كتبه الصليبي في تفسير الاسماء يتميّز بالبله والقصور الى درجة بعيدة. وأن ما قدّمه من شروح وتأويلات جاء حافلاً بالأغلاط والأوهام التي ما كنا نظن أو نتصوّر أنها تصدر من قلم البروفسور لكثرة ما فيها من تشوّهات وعاهات وبذاءات، قد لا يرتكبها الطلبة، فكيف به وهو استاذ الاساتذة.

تحت عنوان «اسرائيل والسامرة» يقول الاستاذ المتبحّر العبقري:

> إذا كانت «يهوذا»، أو يهوده، أرض الشعاب والوهاد على امتداد الجانب البحري لجنوب الحجاز وعسير (انظر الفصل ٨)، فلا بدّ أن «اسرائيل» (يسرءل) كانت في الأصل مرتفعات السراة هناك. وقد كتب الكثير عن أصل الاسم، ولكن النتائج كانت مدعاة للتشويش أكثر منها مدعاة للتنوير. والقول في سفر التكوين ٣٢:٢٨ بأن الاسم يعني «يجاهد مع الله» أو «الله يجاهد» (يسره ءل) ما هو إلا تفسير ميثولوجي من نسج الخيال. إن كون الاسم يسرءل مركباً من يسره و ءل هو أمر مؤكد. ومع ذلك، فإن يسره هنا ليست المضارع من الفعل العبري سره بمعنى

«جاهد، ناضل، قاتل»، بل هي اسم قديم من الفعل نفسه بمعنى الكلمة العربية سرو أو سري، و «السرو» هو «ما ارتفع من الوادي وانحدر عن غلظ الجبل»، و «السراة» (من سري) «أعلى كلّ شيء». ويتضح من ذلك أن الجذر من الاسم، كما هو مشهود بالعربية، يفيد معنى العلو والارتفاع والشموخ. وبالتالي، فإن الجزء الأول من يسرءل، أي يسره، هو اسم على وزن «يفعل» مشتق من سره بمعنى «شمخ، ارتفع»، ويقابله بالعربية اسم «السرو» أو «السراة» من الجذر ذاته. ويتضح من ذلك أن الاسم بكامله هو يسره ءل، أي «سراة الله»، والاشارة هي ولا شك الى مرتفعات السراة بين الطائف واليمن.

وكتعبير يعني «سراة الله»، لا بد أن الاسم يسرءل، أو «اسرائيل»، كان اسماً جغرافياً قبل أن يصبح اسماً لشعب، وأخيراً لمملكة في غرب شبه الجزيرة العربية مختلفة عن مملكة «يهوذا». والظاهر أن «إله السراة»، أي إله المرتفعات في جنوب الحجاز وعسير في القدم، كان يدعى ءل يسره. وهذه لائحة لمواقع في الحجاز وعسير ما زالت تحمل اسم ءل يسره هذا، أي «إله السراة»، الى اليوم[1]:

١ ـ اليَسْر (ءل ـ يسر) في منطقة محايل.
٢ ـ اليَسْرى (ءل ـ يسر) في منطقة النماص.
٣ ـ اليَسْرى (ءل ـ يسر) في منطقة الطائف.
٤ ـ يَسْرَة (يسر) بجوار أبها.
٥ ـ آل يسير (ءل يسر) بجوار تنومة.
٦ ـ اليسيرة (ءل ـ يسر) في الحجاز، كاسم لقريتين.
٧ ـ يسير (يسير) في الحجاز.
٨ ـ آل ياسر (ءل يسر) في منطقة القنفذة.
٩ ـ آل سِرَة (ءل سره، محافظة على صيغة المصدر العبرية) في منطقة أبها.
١٠ ـ السَّرْيَة (ءل ـ سري) في جوار خميس مشيط، شرق أبها.
١١ ـ أبو سَرْيَة (سري) في منطقة الطائف.

١٢ ـ السَرِي (ءل ـ سري)، الموقع غير محدد في المعاجم الجغرافية.

وهناك أسماء أخرى يمكن أن تضاف إلى تلك أعلاه مشتقة من سرو كتنويع لـ سري بالمعنى ذاته. وما يكاد يماثل تماماً الكلمة العبرية يسرءل (مع ءل لاحقة وليس سابقة) هو الاسم سُرَيْويل (وهي في الظاهر تحريف لـ سري ءل)، وهو اسم قرية في أواسط نجد[٢].

وشعب « اسرائيل » لا بد أنه كان في الأصل مجموعة من قبائل بلاد السراة في غرب شبه الجزيرة العربية. وقد اتحدت هذه القبائل في زمن ما فأصبحت شعباً استوطن أرض « يهوذا »، وأقام لنفسه هناك مملكة في أواخر القرن الحادي عشر أو مطلع القرن العاشر قبل الميلاد.

الصفحات ١٩٥ و١٩٦ و١٩٧ من كتاب الصليبي

من الواضح أن الصليبي يقرّر بداية وبمنطق التوكيد الذي انتهجه في كتابه أن «أرض اسرائيل كانت في الأصل مرتفعات السراة في غرب شبه الجزيرة العربية». وهذا التقرير يسوقه باسلوب الشرط الايجابي: «اذا كانت يهوذا أو يهوده هي أرض الوهاد في عسير، فلا بد أن اسرائيل كانت في الأصل مرتفعات السراة هناك». وهذا الشرط الايجابي يجعله الصليبي قائماً ومحققاً بصيغتي التشبيه والتركيب. ففي الأولى على أساس التشابه بين أحرف يهوذا أو يهوده والوهاد. وبين أحرف اسرائيل والسراة. وباعتبار الصليبي طبعاً. وفي الثانية على أساس ربط جواب الشرط بالفاء، وجعل ما بعد الفاء حقيقة قاطعة باستخدام اسلوب التوكيد القاطع «لا بد».

ومن الواضح أيضاً (طبعاً للمختصّين أو المستنيرين) أن ما تفتق عنه ذهن المؤرخ كمال الصليبي من تبريرات لتثبيت ما قرر، جاء طافحاً بالعجائب والغرائب، ومعبّراً في الوقت ذاته عن جهل المؤرخ المطبق في الموضوع الذي يتناوله. ولعل السؤال الذي يتبادر الى الذهن: في أي قاموس وجد حضرة المؤرخ (المتخصّص باللغات السامية) أن الفعل «سره يعني جاهد وناضل وقاتل». وأن «يسره اسم قديم من الفعل نفسه بمعنى الكلمة العربية سرو أو سري». وأن «يسره اسم على وزن يفعل مشتق من سره بمعنى شمخ وارتفع»؟. أعتقد أنه لا يجد شيئاً مما لفّق وتمحّل في غير قاموسه الذهني الخاص. والواقع أن ما أقامه المؤرخ من علاقات بين يسره وسره وسرو أو سري والسراة، هو نوع من التمحّل البذيء والتلفيق القميء الذي يستهين بالعقل ويتعدّى على حصانة الفكر. ثم زاد على ذلك سخافات أخرى تتمثّل في قوله «إن اسم اسرائيل هو اسم جغرافي». وإن «إله السراة كان يدعى ءل يسره». وإن اثني عشر موقعاً «في الحجاز وعسير ما زالت تحمل اسم ءل يسره». منها مثلاً منطقة اليسر ومنطقة اليسرى وقبيلة آل يسير وقرية اليسيرة وقبيلة آل ياسر وقبيلة آل سرة وقرية السرية وموقع السري، جميعها تحمل اسم ءل يسره كما يزعم الصليبي. وإن سريويل (اسم قرية في أوسط نجد) هو تحريف لـ «سري ءل». وإن «الاله المصري القديم أوزيريس هو هذا الاله بالذات» وإن.. وإن..

وكأن حضرة المؤرخ كان يدرك، وهو يعطي لهذه السخافات البذيئة والتلفيقات القميئة، صفة التقرير والتأكيد، يدرك أن رصانة العقد العربي لا يمكن تحطيمها إلا بأشد أشكال التلفيق تطرفاً. وأن العرب لا يحتاجون الى شيء مثل احتياجهم الى جراب من الخداع الفكري والتلفيق التاريخي.

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال آخر: أكان من الضروري أن يهجم المؤرخ كمال الصليبي على الاسم التراثي (اسرائيل) بسيف التقطيع والتمزيق والاشتقاق والتوليد؟. وأن يستغل كل ما لديه من طاقة في التوسع في الاستعمال والاطلاق؟. وأن يستخدم كل عوامل النحت والتحريف وفواعل القلب والتصحيف الى حدّ يتشتت ذهن القارئ بين الصيغ الكثيرة التي ينحتها أو يحرّفها أو يولّدها أو.. أو.. لاسم اسرائيل، من مثل يسره، سره، سرو، سري، السرو، السراة، سريويل، يسر ءل، ءل يسره و..؟.

ولماذا كان هذا الاصرار الشديد على طرح الصيغ الكثيرة والمبهمة لاسم بسيط ومعبّر هو واحد من اسمائنا التراثية الخالدة؟. فقد كان في مفهوم القدماء في سوريا الطبيعية أن الله هو الذي ييسّر السبل للانسان ويسهّل له المصاعب. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم باسماء من مثل اسرائيل (الله ييسّر).

الواضح أن الصليبي كان مضطراً أن يفعل ما فعل ليحقق الغاية التي يرمي اليها، والهدف الذي يسعى إليه. ويبدو للمستنير أو لصاحب البصيرة النافذة أن الصليبي ما سطّر كل هذه التلفيقات التاريخية إلا ليقول للقارئ «إن الجزء الأول من يسر ءل هو اسم، يقابله بالعربية السراة من الجذر ذاته. وإن الاسم بكامله يسره ءل أي سراة الله. والإشارة هي ولا شك الى مرتفعات السراة بين الطائف واليمن» ص ١٩٥ و «إن اسرائيل كان اسماً جغرافياً قبل أن يصبح اسماً لشعب، وأخيراً لمملكة في غرب شبه الجزيرة العربية» ص ١٩٦ و «إن شعب اسرائيل لا بد أنه كان في الأصل مجموعة من قبائل بلاد السراة في غرب شبه الجزيرة العربية. وقد اتحدت هذه القبائل في زمن ما فأصبحت شعباً استوطن أرض يهوذا، وأقام لنفسه هناك مملكة في أواخر القرن الحادي عشر أو مطلع القرن العاشر قبل الميلاد» ص ١٩٧.

ويتفرّع عن السؤال الأخير سؤال: أكان من الضروري أن يعمد المؤرخ كمال الصليبي الى شحن أعصاب القارئ (المستنير طبعاً) بمشاعر الاشمئزاز والغثيان من هول العرض التلفيقي الذي يتلاحق أمامه ناقلاً بأمانة مشاهد التدجيل والتضليل، ومعبّراً بصدق عن بشاعة الجهل وقصور العقل، ليقول لنا ما كان قد قرّره في بداية الفصل: «لا بد أن اسرائيل كانت في الأصل مرتفعات السراة في غرب شبه الجزيرة العربية»؟.

* * *

ذكرنا أن المكان الذي تمّت فيه جولة المصارعة بين الله ويعقوب يدعى فنوئيل الذي يعني «منعطف، ركن، مفترق ايل». أما الصليبي فاقتلع هذه البلدة ذات الاسم العريق والمعبّر من أرض فلسطين، وزرعها في غرب شبه الجزيرة العربية على اعتبار أنها «النفلة في منطقة الطائف أو النُّوف - جبل في بلاد زهران». وللقارئ أن يختار واحدة منهما على اعتبار أنها فنوئيل برأي الصليبي

الجازم والقاطع والذي لا يقبل شكّاً أو ردّاً.

* * *

والمدينة ذات الاسم المعبّر والمجد العريق - يزرعيل - يزرع ايل - يزرع الله، اقتلعها الصليبي أيضاً من أرض فلسطين، وزرعها في غرب شبه الجزيرة العربية، على اعتبار أنها «بالتأكيد آل الزرعي في أسفل وادي الغيل، الى الجنوب الشرقي من القنفذة، ويزرعيل هو ولا شك الاسم القديم لوادي الغيل» ص ٢٠١ (تأمل منهج الصليبي القائم على تأكيد مزاعم لا يقبلها عقل طفل: «يزرعيل بالتأكيد آل الزرعي» و «يزرعيل ولا شك الاسم القديم لوادي الغيل».

من الضروري أن يدرك حضرة المؤرخ صليبي أنه لو جمع أدوات التوكيد كلها من العربية ومن غيرها من اللغات، فلن يتمكن من مسخ يزرعيل العريقة في التاريخ والحضارة، الى آل الزرعي. أو نقلها من أرض فلسطين الى غرب شبه الجزيرة العربية.

* * *

ذكرنا في ما تقدم ومن الضروري تكرار ما ذكرنا. أن مفهوم «ان» - (السيد ظهر في التاريخ قبل الألف الرابع ق.م. في حوض النهرين الأدنى. وظلّ كصفة للقوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء (الله بمفهومنا) مترسّخاً في الذهنية الحضارية السورية لأكثر من ألفي سنة. وفي سوريا الغربية لحق لفظ «ان» إمالة مضمومة بفعل البيئة واللسان، فصار «أُون». والدلالة الوحيدة التي بقيت لنا سليمة، الى حدّ ما، من هذا المفهوم، هي الاسماء المقترنة بالصفة «ان» أو «أُون» في مركب اسنادي أو اضافي. فمن اسماء المدن والمظاهر الطبيعية في اقليم فلسطين، نذكر: بيرون. جبع ون. عدل ون. قطم ون. شمر ون. بيت حورون. يان ون. عقر ون. شار ون. بيت أون. مرج اون. شمع ون. حبر ون. صهي ون. جيح ون. حشب ون. حرم ون. شلع ون. حنّ ون. يمان ون. جلّ ون. عبد ون. لج ون. داج ون. شرت ون. درع ون.

ومن الاسماء المشهورة في أرض فلسطين التي يدخل «أُون» - (السيد) في تركيبها، نذكر: شمع ون. هلّ ون. رحم ون. عبد ون. جدع ون. رام ون.

فـ «صهيون» اسم كنعاني يعني «برج أو تلة أو هضبة أو رابية أو جبل أُون» - (السيد) - الله. ولا تزال منطقتان في سوريا الجنوبية والشمالية تحملان هذا

الاسم. الأولى الجبل المشرف على القدس في فلسطين. والثانية الجبل المرتفع الى الشرق من اللاذقية. وقد ورد اسم الجبل المشرف على القدس لأول مرة في التوراة في سفر سموئيل الثاني ٥ : ٦ ـ ٩ «وذهب داود ورجاله الى أورشليم، الى اليبوسيين سكان الأرض. فكلموا داود قائلين لا تدخل الى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. أي لا يدخل داود الى هنا. فأخذ داود حصن صهيون. . وأقام داود في الحصن وسمّاه مدينة داود».

فماذا فعل الصليبي بهذا الاسم التراثي؟. قال «صهيون لم يكن على الاطلاق اسم حصن أورشليم». (تأمل النفي القاطع: لم يكن على الاطلاق). والسؤال: على أي وثيقة أو مستند اعتمد حضرة المؤرخ العبقري في تبنّيه هذا النفي القاطع؟. فليس هناك من أثر يذكر صهيون الفلسطينية غير التوراة. وما دامت التوراة تقول إن «حصن صهيون» قريب من أورشليم، فلماذا يصرّ حضرة المؤرخ على القول إنه «كان اسماً لمكان بعيد عن أورشليم»؟. أليكون قريباً من آل شريم التي يزعم أنها أورشليم الفلسطينية؟. ربما.

ثم يعمد الصليبي الى اعادة صهيون الى «الاصل العبري ـ مصدت صيون» ـ (حصن صهيون). ويزعم أن المضاف إليه (صيون) «تعرف في عدة مقاطع من التوراة على أنها هرصيون أي هضبة صيون. والهضبة في كلام أهل عسير 'قعوة'، وهي موجودة الى اليوم في مرتفعات رجال ألمع، غرب أبها». أما المضاف (مصدت) فيرى فيها «قرية اسمها الصّمد في جوار قعوة الصيان، وأخرى اسمها أم صمدة. ولعل أم صمدة هذه، وليس الصمد، كانت هي مصدت أو حصن الصيان». ص ١٧٨

وهكذا يهجم الصليبي على هذا الاسم التراثي (صهيون) بسيف التقطيع والتمزيق، والفصل والتركيب، والتصحيف والتحريف والمسخ والتشويه، فيتدرج به من صهيون الى مصدت صيون فالى هرصيون ومنها الى قعوة صيون فالى قعوة الصيان. وقعوة الصيان هي صهيون باعتبار الصليبي، وهي «موجودة الى اليوم في مرتفعات رجال ألمع، غرب أبها».

المهم أن صهيون الفلسطينية صارت بفعل غباء أو تغابي، غفلة أو تغافل، جهالة أو تجاهل ما يزيد على نصف البشرية، صارت مدينة داود واسماً لمنظمة

يهودية عالمية. والأهم أن الصليبي اقتلعها من أرض فلسطين ومسخها الى قعوة الصيان وزرعها في مرتفعات رجال ألمع، غرب أبها. وليفهم الفاهمون، ولتنفلق رؤوس المستنيرين.

* * *

بيت حورون: ذكرنا أن مفهوم «ان» ـ (السيد) ساد في سوريا الشرقية. وأن هذه الصيغة كانت على ألسن المجتمعات في سوريا الغربية «أُون». ومن الاسماء التي تدخل هذه الصفة في تركيبها في سوريا الشرقية «حوران» ـ اسم منطقة في الجنوب الشرقي من سوريا. ومدلول الاسم «يبيّض ان» وبمفهومنا يبيّض الله (تعبيراً عن لهفتهم الى بياض الثلج). وفي فلسطين كان بيت حورون (يبيض الله).

أما الصليبي فاقتلع الاسم من أرض فلسطين، ومسخه الى «الروحان في منطقة القنفذة، أو خيران في وادي أضم». وللقارىء أن يختار واحدة منهما على اعتبار أنها هي بيت حورون الفلسطينية.

* * *

وقلنا إن من بين الاسماء التي شاعت في سوريا الغربية اسم زبولون، ومدلول هذا الاسم «يمجّد الله أو يقدم قرباناً الى الله».

أما الصليبي فاقتلع هذا الاسم من أرض فلسطين، ومسخه الى «الزَبّالة ـ احدى قبائل غرب شبه الجزيرة العربية» أو الى قبيلة الزُبَالة في وادي حجر بجنوب الحجاز.

والطريف أنه يعبّر عن جهله المدقع في الموضوع الذي يعالج، حين يمسخ الاسم الى «زبل». ويعتبر «أون» ـ (السيد) «أداة تعريف قديمة مضافة كلاحقة».

* * *

ولعل أهم الاسماء التي يدخل «ان» ـ (السيد) في تركيبها، والتي شاعت في سوريا الشرقية، اسم سمع ان (السيد يسمع). و «السيد» بمفهومهم هو الله بمفهومنا. ومدلول «يسمع أن» بمفهومهم هو مدلول «يسمع الله» بمفهومنا. وهذا الاسم شاع في سوريا الغربية بصيغة «شمع ون» بفعل البيئة واللسان.

واسم زبولون وشمعون من بين الاسماء الكنعانية التي اقتبسها بنو اسرائيل. وقد أطلق محرّر التوراة هذين الاسمين على سبطين من أسباط بني اسرائيل.

والى القارىء ما لفّقه الصليبي في هذا الاسم:

> «شمعون» (شمعون): يبدو أن الوطن الرئيسي لقبيلة «شمعون» كان في الجزء الجنوبي من منطقة جيزان، عند حدود اليمن، حيث هنالك قرية تسمى الشَّعْنون (ولعلّه تحريف للاسم)، واثنتان تسميان الشِّماع (شمع، من دون لاحقة المبالغة أو أداة التعريف القديمة في شمعون). وهناك أيضاً شَمْع (شمع) في منطقة القنفذة، وآل شمعة (ءل شمع) قرب الطائف. والسماعنة أو السماعين (سمعن) من القبائل العربية بالشام، وربما كانت نسبتهم في الأصل إلى قرية السمعانية (سمعن) باليمن.

من الصفحة ٣٠١ من كتاب الصليبي

فليس المهم أن القارىء يحتار في الاختيار بين الشعنون والشِّماع وشمع وآل شمعة والسماعنة أو السماعين، على اعتبار انها شمعون. وإنما المهم ما قرّره الصليبي وهو «أن الوطن الرئيسي لقبيلة شمعون كان في الجزء الجنوبي من منطقة جيزان عند حدود اليمن». والأهم جهله أبسط المبادىء في معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، التي يكتب فيها، ألا وهو «أُون» ـ (السيد)، واعتباره هذه الصفة «لاحقة المبالغة أو أداة التعريف القديمة في شمعون».

* * *

ذكرنا، ومن الضروري التأكيد على ما ذكرنا، أن القدماء في سوريا الطبيعية أطلقوا على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، وعلى القوى العالية القريبة، صفة «السيّد» أو صيغة مرادفة لهذه الصفة. فالصفات «ان» «شار» «رب» «بعل» «أدون» «مار» «ذو» تعني «السيّد». ومن الصفات المرادفة لصفة السيد نذكر مثلاً: «ملك» «ملقارت» ـ (ملك القرية ـ المدينة) «ماردوك ـ (السيد العظيم) «يشع» ـ (المخلّص) «شيع القوم» ـ (مخلّص القوم) «عطر سم» ـ (مجد السماء) «العزيز» ـ (الجبّار) «نرجال» ـ (النور العظيم) و «ايل» ـ (العالي) التي

تطوّرت صيغتها الى «الله»، وأصبحت في الألف الأول ق.م. اسماً للقوة العالية.

وذكرنا أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية أكدّ منذ عهد مبكر في تاريخ نضجه الروحي والفكري، على العلاقة الوطيدة بين مفهوم القوة العالية المطلقة والقوى العالية القريبة، وبين القيم الأخلاقية. أو قل إن هذا المفهوم توضّع في ذهنه مقروناً بالمثالية الخيرية للوجود. وكانت النظرة العامة الى حكم «السيد» ـ (الاله) تقوم على أساس أن «السيّد» يحمي ينقذ ينجّي يخلّص يحفظ يرعى يصون يحمي يعدل ينصف يرأف يعطف يشفي يقي يعزّز يطهّر ينقّي يغفر يجمع يبارك. . والى آخر الافعال المعبّرة عن مفهوم الرعاية والحماية. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الأخلاقي باطلاق الاسماء المعبّرة عنه على بنيهم وعلى مظاهر الطبيعة حولهم. والأسماء المعبّرة باعتبارهم هي الاسماء المركبة من صفة القوة العالية ومن الفعل الأخلاقي الذي أسندوه الى القوة العالية. ففي مفهومهم مثلاً أن «السيّد» يعدل وينصف، وقد عبّروا عن هذا المفهوم باسماء من مثل صدق ايل (يعدل ايل)، صدق بعل (البعل يعدل)، أدون صدق (يعدل أدون). يصدق ان (يعدل ان)، ملكي صدق (ملك يعدل). «وملكي صدق، ملك شاليم، أخرج خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لايل عليون، وبارك ابرام. سفر التكوين ١٤ : ١٨».

فماذا فعل الصليبي بهذا الاسم المعبر؟.

قال «إن هذه البنية (ملكي صدق) ليست اسم علم، بل هي تعبير اصطلاحي يفيد معنى الطعام. وهي جمع ملك صيغة تقليص للفظة ملوك بمعنى لقمة أو ملء الفم، وهي اشتقاق من جذر فعلي وارد في العربية هو ءلك (ألك أي علك أو مضغ). ومن مشتقات هذا الجذر بالعربية عبارة «ألوك صدق» أي «ما يؤكل» وهو الطعام. وهكذا يصبح المعنى الصحيح لنص التكوين ١٤ : ١٨ كما يلي «وملك شاليم أخرج ألوك صدق (أي طعاماً)، خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لايل عليون».

تأمل عزيزي القارىء، وتأمل جيداً: اسم ملكي صدق (ملك يعدل) وبمفهومنا «الله يعدل» تحوّل بقلم اللغوي المتفيهق البروفسور كمال الصليبي الى «صيغة تقليص للفظة ملوك بمعنى لقمة أو ملء الفم. وصيغة ملكي اشتقاق من

جذر فعلي هو ءلك (ألك أي علك أو مضغ)..

ماذا يستطيع القارىء المستنير أن يقول في هذا الكلام؟. أهو تلفيق قميء وتفيهق قبيح؟. قد يكون مثل هذه الصفات، رغم قباحتها، غير واف بالتعبير عن كلام الصليبي. أم هو خبط وخلط وهذر وهراء لا يمكنك أن تجمع شتاته لتردّه الى فكر معقول؟. أم هو ثرثرة وسفاسف تعبّر عن تحوّل الكلمة لدى صاحبنا المؤرخ الى نوع من المعصية البذيئة، تهدّد أعصاب الانسان وذكاءه بالجنون؟.

والسؤال: ما الأسباب أو المبرّرات التي دفعت الصليبي الى مسخ الاسم المعبّر ملكي صدق (يعدل الله) الى لقمة أو طعام أو ملء الفم؟. وكيف تجرأ على رصف هذه السخافات والتفاهات في كتاب يحمل اسمه ولقبه؟. أو قل كيف استطاع عقله أن يزدرد ويهضم كل ما تضمّنه كتابه من سخافات وتفاهات، يندر أن تجد كتاباً في العالم تضمّن منها مثل هذا الحجم؟. وكيف أطاق أولئك القوم (المتثقّفون المعجبون بكتاب الصليبي) أن يبتلعوا كل هذه السخافات والتفاهات التي عرضها المؤرخ في كتابه؟. والسؤال الاستنكاري المطروح: أهذا كلام يرد على قلم مؤرخ يحترم نفسه أو يضعها في منزلة المؤرخين؟.

والاشارة الثانية الى ملكي صدق وردت في المزمور ١١٠: ٤ يقول واضع المزمور مخاطباً داود أو المسيح المنتظر «أنت كاهن الى الأبد على رتبة ملكي صدق».

فماذا فعل الصليبي بهذه العبارة؟.

قال «إن ملكي صدق في سفر التكوين (١٤: ١٨) ليس اسماً لشخص، بل هي تعبير اصطلاحي يفيد معنى الطعام. وهي في المزمور ١١٠: ٤ اشارة الى ملوك مكان اسمه صدق». ص ٢٢١

والسؤال الذي غفل عنه الصليبي، وتغافل عنه المتثقّفون المعجبون بكتابه: لماذا اعتبرت ملكي صدق التكوين تعبيراً اصطلاحياً يفيد معنى الطعام. واعتبرت ملكي صدق المزامير «اشارة الى ملوك مكان اسمه صدق»؟. لا جواب. أو لأن عملية التلفيق البذيئة لا تتحوّل الى شعارات باصقة على مزايا العقل إلا اذا كانت على هذه الدرجة من الوقاحة والاكاذيب الغبية.

وكلمة «الى الأبد» أعادها الصليبي الى أصلها (العبري باعتباره) ـ عولم.

وهذه ال «عولم» قال فيها «يمكن أن تكون اسم إله أو مقام أو لقب من ألقاب يهوه إله اسرائيل».

وكلمة «رتبة» أعادها أيضاً الى أصلها (العبري باعتباره أيضاً) على أنها تعني التابعية أو الرعية.

ويضيف الصليبي «في ضوء هذه الملاحظات يجب تصحيح قراءة المزمور ١١٠: ٤ ليؤدي المعنى التالي: أنت كاهن ل «عولم (الاله) على تابعتي أو رعيتي ملوك صدق».

ماذا يستطيع الناقد أو القارىء المستنير أن يقول في هذه التحليلات التي يسردها الصليبي بايمان قوي وقناعة راسخة؟. هل يقول الى القارىء: تأمل في براعة التلفيق ودقة التدجيل تحوّلان الشروح التافهة والتمحّلات السخيفة والتعاليل المريضة الى كتاب يقرأ بلغات كثيرة، ويطرح في أسواق الغرب والشرق. أو يقول: تأمّل في مؤرخ استطاع أن يحوّل مستويات الضعف والعجز والتفاهة والتقصير التي يرسف فيها، الى ضروب من المساوىء والمعايب والمغامز والأوهام والهنات، تستهين بالعقل، وتستحثه على الاستغراق في الهرب من التفكير ومن فهم أي شيء؟.

ويبقى السؤال: لماذا مسخت عبارة «أنت كاهن الى الابد على رتبة ملكي صدق» الى عبارة: «أنت كاهن لـ عولم (الاله) على تابعتي أو رعيتي ملوك صدق»؟.

أعتقد أنه فعل ذلك ليقول الى القارىء: إن «مركز ملوك صدق كان في قرية بيت الصديق في بلاد زهران. ورعية ملوك صدق كانوا في منطقة جيزان ومنطقة نجران في أقصى جنوب عسير». وإن «الملك داود جاء أصلاً من وادي أضم قرب بلاد زهران». وإنه «حكم مملكة اسرائيل من العاصمة التي أقامها في جبل صهيون (قعوة الصيان في رجال ألمع)» ص ٢٢٥ (وليفهم الفاهمون ولتنفلق عقول المستنيرين).

آلهة الصليبي

ذكرنا في ما تقدّم، ومن الضروري التأكيد على ما ذكرنا، أن الانسان القديم في حوض النهرين الأدنى أطلق على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، صفة «ان» ـ (السيّد). وأطلق عليهما الأكاديون في البادية السورية صفة العلو «عَلْ» ـ (العالي). وأطلق عليهما الأموريون في سوريا الوسطى صفة «مارديخ» ـ (السيد العظيم). والاشوريون في سوريا الشمالية الشرقية صفة «اشور» ـ (السيّد). وقلنا إن صفة «عَلْ» تطوّرت صيغتها على ألسن مجتمعات هذه الأرض الى «ايل ـ إله ـ الله». وتحوّلت في الألف الأول ق.م. في مفهوم مجتمعات سوريا الوسطى والجنوبية الشرقية الى اسم.

وذكرنا أن «السيد» أو «السيد العالي» أو السيد العظيم» ـ (الله بمفهومنا) بقي في ذهن الانسان القديم في سوريا الطبيعية، بعد الانتهاء من عملية التكوين والخليقة وتنظيم الوجود، بقي بعيداً، وبعيداً جداً. فهو باعتبارهم «سيّد الابدية» و «سيّد المخلوقات» و «ملك السماء والأرض» و «الكلّي القدرة» و «الكلي الحكمة» و «المدبّر للكون». وهو لجلاله وعظمته وسموّه، بقي متعالياً وبعيداً، لا يرافق الانسان في اهتماماته اليومية، ولا يهتم بمشكلات البشر الحياتية بمعناها العادي والمعبّر. «إنه فوق، والانسان تحت. الله هو الله. والانسان هو الانسان».

ومن هنا كان شعور الانسان القديم في هذه المنطقة من العالم، بالحاجة الى قوة أو قوى أخرى «سيّدة» و «عالية» أيضاً، ولكنها تستمد سلطتها أو قوتها من القوة العليا المطلقة «ان» ـ (السيّد) أو «ايل» ـ (العالي). تتقرّب من البشر بمحبّة فتتنبّه الى ظروف حياتهم المادية والروحية، وتعمل على تخفيف الاعباء عنهم، ورفع سويتهم، واعطائهم آمالاً جديدة لعالم أفضل على الأرض وما بعد الموت.

هذه القوى العالية الأخرى كانت بمثابة «بعل» أو «سيّد» مدينة أو بيئة معيّنة. فكان لكل بلدة أو اقليم بعل أو بعلة، وربما الاثنان معاً. وغالباً ما كان اسم البلد أو الاقليم أو المظهر الطبيعي يضاف الى البعل أو البعلة، فيقال مثلاً: بعل صافون، بعل صيدون، بعل صور، بعل فغور، بعل حمّون، بعل شيلك، بعل راسي، بعل ملكي، بعل حرمون، بعل صمد، بعل لبنان، بعل زبوب، بعل جيزر، بعل حنان، بعل حاران، بعل حاصور، بعل مرقود، بعل طرسوس، بعل بيريت، بعل...

ويقال عشتار أرب ايل، عشتار نينوى، عشتار بيت كتموري، عشتار دينيتي، عشتار بابل، عشتار كيثارا، بعلة جبيل..

وذكرنا أيضاً أن موسى وعى هذا المفهوم ـ الصفة ـ الاسم (إله) في أرض مديان. وتوضّع في ذهنه مفهوم أن لكل جماعة من البشر (في عصره) إلهاً. وأن هذا الاله يسير على رأس الجماعة يرعاها ويحميها وينصرها، ويملّكها الأرض أيضاً.

عاد موسى الى مصر وراح يعمل بجهد لا يستكين على استمالة بني اسرائيل المستعبدين (على رواية التوراة)، دافقاً في وجوههم الوعود بالتحرير من المعاناة التي يكابدون، مشيعاً بينهم أن في السماء إلهاً أقوى من إله المصريين، وأن هذا الاله سوف يخلّص بني اسرائيل من حياة الذل والعبودية «ويصعدهم من أرض مصر الى أرض جيدة وواسعة. الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. الى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سفر الخروج ٣ : ٨».

فأول ما فعله موسى أنه وضع على رأس جماعته إلهاً. وقرّر بداية أن يضع اسماً (يهوه) لهذا الاله الذي أعلن عن حضوره في الجماعة. ويبدو أن موسى قصد من تركيب هذه الأحرف (أهيه ـ يهوه) أن يبقى مدلولها سرّاً مبهماً، لغزاً غامضاً. تحار فيه وتختلج له أفئدة أولئك البسطاء الذين ساقهم من مصر ليعمل منهم مجموعة قومية يحقق بها طموحه وأهدافه.

وقلنا أيضاً إن المعتقدات القديمة في سوريا الطبيعية هي معتقدات طبيعية، يعني أن لا أسس تاريخية لها. والوثائق المكتشفة في المنطقة لا تشير الى مفهوم ما، اصطلح المؤسّسون على تسميته «ديانة». وما يشتمل عليه مفهوم «الديانة»

من مبادىء وقواعد وأقيسة ومصطلحات. طقوس وشعائر، تنظيمات وعمليات تبشير، وما يرافقها من نصوص تعليمية تساعد على توضيح المفهوم ـ جوهر الدعوة الدينية. ولا تشير الوثائق أيضاً الى تسجيل لتلك المجتمعات معتقداتها في ما صار يسمى بالمفهوم المعاصر، «كتاباً مقدساً».

أما الاديان فهي تاريخية (لأن لها أسساً تاريخية) أو وضعية (أي وضعها فرد. فموسى مثلاً هو واضع أول ديانة تاريخية ـ اليهودية أو الموسوية.

ذكرت ما ذكرت، مكرّراً ومؤكّداً، بهدف التوضيح للقارىء أن مؤرخنا البروفسور كمال الصليبي يكتب في معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، وفي الديانات التاريخية، وهو على جهل تام بهما، أو قل إنه لا يفهم في الموضوعين شيئاً على الاطلاق. فهو مثلاً لا يفرّق بين «ايل» ـ (الله) و «آل» التي تعني الأهل أو العيال. والأمثلة كثيرة. ففي تحليله لاسم قرية «فرعة آل شهدا» في منطقة رجال ألمع، يقول «آل شهدا: ءل شهدء (الله هو الشاهد) أو (إله الشاهد)» ص ٣١ وفي ص ١٠١ يقول «وفي جنوب الحجاز، وبالتحديد في وادي بيشة، هناك قرية تسمى آل كنعان (ءل كنعان) وتعني حرفياً إله كنعان». وفي ص ١٩٦ يحصي المؤرخ صليبي «اثني عشر موقعاً في الحجاز وعسير ما زالت (على زعمه) تحمل اسم ءل يسره أي إله السراة». والمؤسف أن يصل التقصير والجهالة بالمؤرخ الى حدّ الخلط بين ال التعريف وايل ـ الله. (انظر صورة الصفحة ١٩٦ المثبتة في ما تقدم وتأمل في اسماء المواقع التي احصاها حضرة المؤرخ، وفي ما وضعه لها من تفاسير تؤدي الصيغة التي يرمي الى اثباتها (ءل يسر)، والمدلول الذي تؤديه هذه الصيغة (ءل يسره) ـ إله السراة. أي إله المرتفعات في جنوب الحجاز وعسير في القدم):

وفي ص ٢٢٥ يقول «إن قرية آل عليان تحمل الى اليوم اسم الاله عليون». وإن قرية «آل الأعلم تحمل الى اليوم اسم الاله عولم. وإن قرية آل سلامة هي اسم إله (ءل شلم)».

وفي ص ٢٢٧ يقول «وأكيد أيضاً (تأمل التأكيد في أكيد) أن ءل جبور هو اسم إله استمر في الوجود كاسم لثلاث قرى ببلاد عسير تدعى آل جبار ـ ءل جبر».

وفي ص ٢٣١ يقول الصليبي «هناك قرية تدعى آل سكوت في سراة بني

عمرو، شمال النماص، تحمل بلا أدنى شك اسم الاله سكوت». (تأمل التأكيد بلا أدنى شك).

وفي ص ٢٣٨ يقول الصليبي «وهناك اليوم في مرتفعات عسير قرية تسمى آل الغبران هي اسم إله العبرانيين ذاته».

وفي ص ٢٥٢ يقول «وفي عسير الساحلية قرية آل عَزَّة هي ءل عزّة ـ إله عزّة.

ويرى أيضاً أن قرية آل دَغْمة في رجال ألمع هي الاله دغم أي داجون. وفي الصفحة التالية يقول إن «قرية آل دُغمان (ءل دغمن) هي الاله داجون.

والملاحظ لذوي البصائر المتيقظة والاذهان النبيهة أن حضرة المؤرخ كمال الصليبي تغافل عن اسماء بعض العائلات ولم يعتبرها آلهة، وهذا يعني أنه لا يتحرّى الصدق ولا يحترم الحقيقة، أو انه كالجاهل الذي لا يدري ما يكتب. فهو يعتبر، كما رأينا، آل شهدا وآل كنعان وآل عليان وآل الأعلم وآل سلامة وآل جبور وآل سكوت وآل الغبران وآل دغمة وآل دغمان وآل ياسر وغيرهم يعتبرهم آلهة. ولكنه لا يعتبر آل زيدان وآل شريم آلهة، ربما لأنه جعل من آل زيدان مدينة صيدون الكنعانية، وجعل من آل شريم أورشليم الفلسطينية. وكذلك لا يعتبر آل جبعان وآل برقان وآل حماطان وآل حومان وآل زيان وآل زهير، آلهة.

في هذه الحال نقول مدافعين عن حضرة البروفسور المؤرخ: إن خلطه بين ايل (الله) وآل (الأهل والعيال) وأل (التعريف) تعبير عن جهله الموضوع الذي يتناوله، وهذا من أبشع ظواهر التقصير التي يُرمى بها مؤرخ يكتب في موضوع ليس له به أي دراية أو معرفة. ولكن كيف ندافع عن حضرة المؤرخ عندما يأتينا بفظائع يندى لها جبين المعرفة لكثرة ما فيها من الأوهام والفساد والجهالة والقصور. من ذلك مثلاً ايراده ألفاظاً مدعياً أنها آلهة، وهي ليست بها اللهم إلا أن تكون في مخيّلة حضرة المؤرخ الواسعة. فقد ذكرنا أن اشارة المزمور ١١٠: ٤ الى ملكي صدق «أنت كاهن الى الأبد على رتبة ملكي صدق» قرأها الصليبي «ملوك مكان اسمه صدق» ص ٢٢١. وفي ص ٢٢٤ قال «إن سلالة من الملوك القدماء في شبه الجزيرة العربية كانوا يقدّسون إلهاً خاصاً يدعى صدق». وفي الصفحة التالية يقول «أما ملوك صدق فربما كان مركزهم الأساسي في القرية

المعروفة اليوم باسم بيت الصديق، أو بيت آل صدق، أي معبد الاله صدق. وفي ذلك ما يشير الى أن صدق ربما كان اسماً للمكان واسماً للاله الذي كان يقدسه ملوك هذا المكان في الوقت ذاته». (تأمل: صدق اسم مكان واسم إله).

وفي الصفحة ٢٢٦ ينظر الصليبي الى «شلم وعليون وعولم وصدق كاسم مكان وكاسم إله أو معبد». (تأمل: الاسم الواحد يكون مرة اسم مكان وأخرى اسم إله، وطوراً اسم معبد).

وفي الصفحة التالية يحلّل الصليبي نبوءة اشعيا (٩ : ٦) بولادة المسيح «يولد لنا ولد ونُعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام». فيعيد «أباً أبدياً» الى أصلها (العبري باعتباره) ءبي عد، قائلاً «إن ءبي عد هو اسم إله قديم أصبح في ما بعد لقباً من ألقاب يهوه إله اسرائيل، وبالتالي من ألقاب المسيح الموعود. وقد استمر اسم هذا الاله في الوجود كاسم لقرية ابو العيد في منطقة جيزان».

تأمل في هذا الخلط والخبط، وفي هذه التكلّفات والتفيهقات: أباً أبدياً، صارت بقلم الصليبي اسم إله قديم (وليس حديثاً). وهذا الاسم القديم أصبح في ما بعد لقباً من ألقاب يهوه، وبالتالي من ألقاب المسيح. وقد استمر في الوجود كاسم لقرية ابو العيد في منطقة جيزان. ومن جديد تأمل، عزيزي القارىء، في هذا العمل التركيبي المذهل بالجهالة التي يطرحها المؤرخ كمال الصليبي، نظرية «شعر بأن الواجب العلمي يفرض عليه ألا يبقيها سراً. ص ١٩ من كتابه». تأمل النظرية ـ الجهالة: أباً أبدياً = ءبي عد = اسم إله قديم = لقب من ألقاب يهوه = لقب من ألقاب المسيح الموعود = اسم قرية ابو العيد في منطقة جيزان.

والسؤال المطروح استنكارياً: أهذا كلام يرد على قلم مؤرخ يحترم نفسه أو يضعها في منزلة المؤرخين؟. وايجابياً: أم ان هذا الكلام لا يكتبه إلا واحد من الذين فقدوا صواب الرؤية ونعمة التفكير. أو واحد ممن يعانون من عري فكري مريع. وعلى أي حال فإن هذا الكلام تعبير عن حقيقة جوهرية: أن كل شيء يخضع لنوع من أنواع المنطق، ولحالة من التقيّد بالواقع، ما عدا كلام الجاهلين، فكلام الجاهل لا يعترف بأي واقع ولا يقرّ بأي منطق.

ومن قبيل هذا الجهل اعتباره «يهوه هو ذاته ءل عليون» ص ٢٢٧ ومن

التركيبات التي يشكلها في هذا الشأن «يهوه ءل عليون» ص ٢٢٧ و «ءل يهوه ءل عليون» ص ٢٢٨ و «اسم يهوه هو عليون». ص ٢٢٨

الواقع أن اطلاق مثل هذه الاغلاط الشنيعة بصيغ من الأحكام الجازمة، والتي تفتقر الى الدقة والموضوعية، يشكّل عاراً على العقل والمعرفة والتاريخ. فصاحبنا المؤرخ أو المؤلف، لا فرق، يعتبر يهوه هو الله. وكنا قد ذكرنا قبل قليل أن الأكاديين عبّروا عن القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، بصفة «عَلْ» التي تطوّرت صيغتها الى «ايل ـ إله ـ الله». أما يهوه، اسماً ومفهوماً وأخلاقاً، فهو من ابتداع موسى، واضع أول ديانة تاريخية ـ اليهودية. وفي هذه الحال لا يجوز حشر يهوه الوضعي التاريخي بين الصفات التي أطلقتها المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية على القوة العالية، والتي تشكّل جوهر معتقدات طبيعية، أي ليست موضوعة وليس لها تاريخ.

والمؤسف الى حد الاختناق أن مسألة اعتبار يهوه هو الله، التي يأخذ بها أو يتبنّاها الصليبي، جهالة وغباوة وتقصيراً، كما يأخذ بها ويتبنّاها المؤرخون الغربيون جهالة وغباوة وتقصيراً أيضاً، هي أكبر عملية تضليل راجت في مجتمعات تربو على نصف البشرية، بفعل علو المنابر المكرّسة للتدجيل، وجهارة الأصوات المتحدثة بفضائل التدجيل، وغباوة المعجبين بآيات التدجيل، وكثرة المهلّلين لبراعة التدجيل.

ويقول الصليبي «إن كلاً من الآلهة: آل سلامة وآل عليان وآل العلم، قد عُرّف، وبوضوح، على أنه الاله يهوه إله اسرائيل» ص ٢٣٠ والسؤال: ما معنى هذا الكلام؟ وماذا يفهم منه القارىء؟ ولماذا جعل الصليبي من اسماء هذه العائلات أو القبائل، آلهة؟. وكيف يزدرد عقل القارىء هذه (الحقائق) التي يعرضها الصليبي: آل سلامة وآل عليان وآل العلم، آلهة؟. وكيف عُرّف كل من هذه الآلهة على أنه الاله يهوه؟. وما علاقة هذه الآلهة المزعومة بإله بني اسرائيل (يهوه)؟. وسؤال آخر: هل تعتقد أن مؤرخاً يحترم نفسه ولقبه يطلق مثل هذه الأقوال الشائنة؟.

ويضيف الصليبي «إن عدداً من آلهة غرب شبه الجزيرة العربية عُرّف بيهوه أيضاً، مثل ءل شدي (الله القدير) و ءلهي صبء وت (إله الجنود) و ءل رءي (إله الري)». ص ٢٣٠

الملاحظ أن الصليبي جعل من اسماء العائلات في الفقرة الأولى، آلهة. وفي الفقرة الثانية جعل كلاً من الاسم المركب ءل شدي (يقوّي الله) ومن صفة يهوه ءلهي صبءوت (رب الجنود) ومن الاسم المركب التوراتي ءل رءي، آلهة. ويتكرر السؤال: ما معنى هذا الكلام؟. وماذا يفهم منه القارىء؟ وهل وصل الجهل والتقصير بالمؤرخ كمال الصليبي الى حدّ اعتبار الاسم المركب إلهاً؟.

والطريف أن الصليبي، الذي يموت شوقاً وحباً بـ «المعارف الخاصة»، اكتشف في بحثه المضني عن الحقائق والصدق، اكتشافاً، لعل جميع اكتشافات الآثاريين في القرنين الأخيرين، لا تساويه، أي لا تساوي الاكتشاف الذي اكتشفه الصليبي، وهو أن كلاً من هؤلاء الآلهة ظلّ حتى اليوم متمثّلاً بقرية من قرى غرب شبه الجزيرة العربية. فقرية آل سادي في منطقة ظهران الجنوب ما زالت تحمل اسم الاله ءل شدي. وقرية الصبيات في منطقة النماص ما زالت تحمل اسم الاله ءلهي صبءوت. وقرية آل رهوة في رجال ألمع ما زالت تحمل اسم الاله ءل رءي، أي إله الفوهة المائية، البئر. ص ٢٣٠

ومن غريب ما نطق به حضرة البروفسور المؤرخ من خلط وخبط. ومن قبيح ما لفّقه من أحكام تشبه تلفيق الخنفشار، قوله في «البعل» - (السيّد) إن «لفظة بعل منحوتة في ءب عل أي أبو الغلة.. ومن آلهة بعل التي نبذها بنو اسرائيل، بعد تحوّلهم الى عبادة الاله الواحد، بعل زبوب. وهذا اليوم هو اسم قرية آل ذَبابة في جوار خميس مشيط. ناهيك عن قريتي ذَبوب وذُبابة في منطقة جيزان». ص ٢٣٢

تأمل مؤرخاً يوهمك بأنه باحث منقّب ولغوي ضليع، وهو يقرأ عليك مثل هذه التفاهات والغباوات:

«بعل منحوتة في ءب عل»

«بعل تعني أبو الغلّة»

وما معنى «آلهة بعل التي نبذها بنو اسرائيل»؟. وما المقصود بهذا التركيب «آلهة بعل»؟. وهل تحوّل بنو اسرائيل يوماً الى عبادة الاله الواحد؟.

و «بعل زبوب» أي بعل (سيّد) منطقة زبوب. كما تقول بعل لبنان وبعل

صيدون وبعل صور وبعلة جبيل و. . جعله الصليبي اسم قرية آل ذَبابة في جوار خميس مشيط.

والسؤال: أهذا كلام رجل متمتّع بجميع قوى عقله؟. أفليس الأحسن له أن يكسر قلمه ويلقيه في النار، فيصون بذلك سمعته وثمالة عقله وعلمه، ولا ينطق بمثل هذه السفاسف؟.

ويمضي الصليبي في مثل هذه التلفيقات المذهلة بغرابتها، والمدهشة بخلوها من أي معنى وأي مدلول. والواقع ان الكتاب كله على هذا القياس من السفاسف المتمثّلة في الخلط والخبط. يضاف الى ذلك أن محاولته عقد المقارنات واقامة العلاقات بين يهوه وبين ما يزعمه من آلهة في غرب شبه الجزيرة العربية، قامت على أسس من الغلط. وقد ذكرنا أن اطلاق مثل هذه الأغلاط الشنيعة بصيغ من الاحكام الجازمة والتي تفتقر الى الدقة والموضوعية، يشكّل عاراً على العقل والمعرفة والتاريخ. وأن طرح مثل هذه التلفيقات ـ السفاسف يؤكّد على أمر مهم وربما على هدف عريق للغربيين، ويلحق بهم الصليبي، هو مسخ التراث السوري الأصيل الذي غذّى العالم القديم بالفضائل والمفاهيم الانسانية النبيلة، ولا يزال حتى اليوم غاية النخبة المثقفة.

الصليبي يزرع اليهود تاريخاً وديناً في غرب شبه الجزيرة العربية

وفي كتاب الصليبي أغلاط لا تُحصى وتشوّهات لا تُستقصى، ولكن ليس من اللائق أن نمضي في وجهنا أكثر مما مضينا، تفادياً من التطويل الممل والاسهاب المخل. فأمسك القلم عن الامعان في تبحّث الأغلاط الشنيعة والكثيرة المنبثّة في هذا الكتاب التي تضني القارىء المستنير بالانكار لها والاحتجاج عليها. بالاضافة الى ما يكابده من الشعور بالتعب والغثيان من هول العرض التلفيقي للتفاهات والغباوات، الذي يتلاحق أمام عينيه، بصورة استفزازية، ناقلاً بأمانة صور الجهل وقصور العقل.

واذا كان لنا من كلمة نختتم بها هذا العرض لأغلاط الصليبي، فهي اعادة ما ذكرنا، ومن الضروري التأكيد على ما ذكرنا، ومفاده أن المؤرخ كمال الصليبي ما وضع كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» إلا ليزرع اليهود، تاريخاً وديناً، في غرب شبه الجزيرة العربية.

ففي مجال التاريخ، وفي الصفحة الثانية من مقدمة كتابه، يقول «وقد كان لبني اسرائيل بين القرن الحادي عشر والقرن السادس ق.م. ملك في بلاد السراة، أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير» ص ١٢ (تأمّل صيغتي التقرير والتوكيد اللتين تعبّران عن قناعته بما يقرر وايمانه بما يؤكد).

وفي الصفحة الأولى من الفصل الأول يقول «ومسار تاريخ بني اسرائيل، كما روي في التوراة، كان في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر» ص ٢٧ وفي الفصل الأول ذاته يطرح مقولته أو نظريته أو «المعرفة التي

توصّل إليها ص ١٩» بقوله «الواضح أن المملكة الاسرائيلية أسّست في غرب شبه الجزيرة العربية بين أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن العاشر ق.م.». ص ٣٤ (تأمّل الصيغ التي طرح بها مقولته: الواضح، وأن التوكيدية). وبعد ثلاث صفحات يردد قوله السابق «وبين أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن العاشر ق.م. برزت المملكة الاسرائيلية عند منحدرات عسير الساحلية في أيام شاول، وتوسّعت في أيام داود، ووصلت ذروة قوتها وازدهارها في ايام سليمان». ص ٣٨

وفي الصفحة ١١٢ يقول «إن مملكتي اسرائيل ومؤاب كانت متجاورتين في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في جنوب الشام». وفي الصفحة ١١٥ يقول باسلوبه التوكيدي المعروف «وقد كانت مملكة عمري الاسرائيلية بالتأكيد في جنوب الحجاز، أي في عسير الجغرافية». (تأمل قوله: قد كانت مملكة عمري الاسرائيلية بالتأكيد في جنوب الحجاز. فبالاضافة الى لفظة التأكيد، صدّر كلامه بقد الدالة على التحقيق والتوكيد).

وفي مستهل الفصل الثالث يقول مصدّراً كلامه كعادته بـ «ان» الدالة على التوكيد «إن أرض يهوذا التوراتية تضمّنت البلاد الهضبية الوعرة في الجانب البحري من مجال عسير» ص ١٢٣ وبعد ثلاث صفحات يقول «إن قبيلة يوسف شغلت أرضاً تقع في وادي أضم وجواره، في المرتفعات المطلّة على صحراء تهامة الساحلية» ص ١٢٧ وفي الصفحة ١٣٤ يقول «كانت أرض يهوذا الاسرائيلية في عسير الساحلية». ويؤكّد على هذه المقولة، وبالصيغة ذاتها، في مستهل الفصل الثامن بقوله «كانت أرض يهوذا في الأزمنة التوراتية، تشمل الجانب البحري من عسير الجغرافية» ص ١٥٥ وفي الصفحة التالية مباشرة، وللمرة الثالثة، يؤكّد على هذه المقولة، وبالصيغة عينها، ولكن بزيادة التصدير بـ «ان» المعبّرة عن التوكيد، قائلاً «إن أرض يهوذا التوراتية، كموطن لبني اسرائيل على وجه العموم، كانت تضم المنحدرات البحرية لعسير وجنوب الحجاز حتى مرتفعات الطائف». ص ١٥٦

والمدهش الى حدّ الانبهار أن المؤرخ كمال الصليبي يمارس في تدوين دجله، وبصريح الوقاحة الأدبية، عملية تلويث واذلال هائلة لذكاء القارىء ولكبريائه العقلية. من قبيل هذا التدجيل اعتباره كهنة بني اسرائيل «مجتمعاً امتد

موطنه من وادي نجران باتجاه الشمال حتى وادي حبونا. وباتجاه الشمال الشرقي الى منطقة اليمامة في وسط شبه الجزيرة العربية» ص ١٥٩ (تأمل كهنة بني اسرائيل مجتمع. وكان لهم هذا «الامتداد الواسع من الأراضي». وأين؟ «في وسط شبه الجزيرة العربية»).

وفي الفصل التاسع يقول الصليبي «إن عاصمة داود الأولى كانت قرية الخربان الحالية في منطقة المجاردة على المنحدرات البحرية لعسير» ص ١٧٥ و «إن صهيون التوراتية هي هضبة هرصيون أو قعوة الصيان الموجودة الى اليوم في مرتفعات رجال ألمع» ص ١٧٨ و «إن داود حكم مملكة 'كل اسرائيل' من العاصمة التي أقامها في جبل صهيون، وهو اليوم قعوة الصيان في رجال ألمع» ص ٢٢٥ ويرى أن «يهوذا هي أرض الشعاب والوهاد على امتداد الجانب البحري لجنوب الحجاز وعسير. وان اسرائيل كانت في الأصل مرتفعات السراة بين الطائف واليمن». ص ١٩٥

وفي الصفحة التالية يؤكد على هذه المقولة أو المقولات، بقوله «وشعب اسرائيل لا بد أنه كان في الأصل مجموعة من قبائل بلاد السراة في غرب شبه الجزيرة العربية. وقد اتحدت هذه القبائل في زمن ما فأصبحت شعباً استوطن أرض يهوذا أي الجانب البحري لجنوب الحجاز وعسير. وأقام لنفسه هناك مملكة في أواخر القرن الحادي عشر أو مطلع القرن العاشر ق.م.». ص ١٩٧

وفي الصفحة ٣٠١ يحدّد الأراضي التي امتلكها أو استوطنها، على زعمه طبعاً، اسباط اسرائيل «في مختلف انحاء عسير وجنوب الحجاز». من أمثلة هذا التحديد قوله «إن أراضي سبط رأوبين كانت في جنوب الحجاز». وكان «الوطن الرئيسي لسبط شمعون في الجزء الجنوبي من منطقة جيزان عند حدود اليمن». وكان سبط لاوي «في منطقة جيزان وفي جنوب الحجاز». «وكانت الأرض الأصلية لسبط يهوذا في وادي أضم». «وكانت أرض سبط دان في تهامة زهران». «وكانت الأراضي الأصلية لسبط نفتالي في منطقة البرك». «وكانت الأراضي الأساسية لسبط جاد في جنوب الحجاز». وكان سبط أشير «في منطقة جيزان». وكان سبط يسّاكر «من القبائل القديمة في غرب شبه الجزيرة العربية». وكان سبط زبولون «في مرتفعات عسير الجنوبية». «وكانت منطقة الليث هي الموطن الأساسي لسبط يوسف».

وقد ذكرنا في ما تقدم بعض ما قرّره الصليبي أو أكّده بشأن الأرض (أقول بعض، لأن ما قرره وأكّده بشأن الأرض كثير)، من ذلك مثلاً أن «البركات التي أسبغها كل من يعقوب (اسرائيل) وموسى على قبيلة يوسف الاسرائيلية، لا تتعلّق بـ (بركات)، بل بتحديدات لأراضي القبيلة» ص ١٢٧ (كذا.. البركات التي أسبغها كل من يعقوب وموسى على قبيلة يوسف، تحوّلت على يدي الصليبي بفعل جبري قاهر، الى تحديدات لأراضي قبيلة يوسف الاسرائيلية).

ومن ذلك أيضاً زعمه أن «ال ١٣٠ اسماً من اسماء المجموعات العائدة من السبي البابلي، الواردة في سفري عزرا ونحميا، هي اسماء البلدان والقرى الأصلية لها في غرب شبه الجزيرة العربية» ص ١٧٤ (تأمل: اسماء أرباب العائلات وآباء الأسر تحولت بقلم الصليبي الفريد الى اسماء البلدان والقرى الأصلية (وفكّر طويلاً بهذه الصفة: الأصلية) لها في غرب شبه الجزيرة العربية).

ومن ذلك أيضاً وأيضاً أن قصة شمشون جرت على زعمه «في بلاد زهران في جنوب الحجاز». وهي تؤكد على مسألة استعمار اليهود القدماء لغرب شبه الجزيرة العربية. وهذا «الاستعمار حدث في أيام شمشون وتحت رعايته» ص ٢٥٧ (أرجو أن تراجع فصل الفلسطينيون ومدنهم).

والمدهش حتى الاختناق أن الصليبي مارس في عملية زرع اليهود في غرب شبه الجزيرة العربية، نوعاً فريداً ونادراً من التعمية والتمويه، يتلخّص في اصراره على زرع كل سبط أو أسرة أو مجموعة أو فئة أو اسم أو فريق أو.. في مكان خاص في غرب شبه الجزيرة العربية، في محاولة لترسيخ القناعة في ذهن القارىء العادي بأن اليهود كانوا فعلاً وحقيقة من مواطني غرب شبه الجزيرة العربية. ودليله القاطع أن اسماءهم أو اسماء المناطق التي كانوا فيها ما تزال حيّة خالدة الى هذا اليوم. وعلى هذا الاعتبار زرع اسرائيل في مرتفعات السراة، ويهودا في أرض الوهاد على امتداد الجانب البحري لجنوب الحجاز وعسير. وزرع فئة اللاويين في قرية لاوة في وادي أضم. وزرع بني يشوع في قرية شعية، وبني قدميئيل في قرية القلمة. وزرع جبل سعير في أرض عسير، ومدينة أورشليم في قبيلة آل شريم و.. (أرجو أن تراجع ما تقدم).

ويعد هذا العرض الموجز لتأكيدات المؤرخ (التأكيد في الصيغة والمضمون) على «الملك الذي كان لبني اسرائيل بين القرن الحادي عشر والقرن

السادس ق.م. في بلاد السراة أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير» ص ١٢ ينفي الصليبي أن يكون قد تعمّد تقديم مبرّر للصهاينة لغزو غرب شبه الجزيرة العربية واحتلالها على اعتبار أنها «أرض اسرائيل التاريخية». وعبّر عن هذا النفي برميه الذين يوجّهون اليه أصابع الاتهام، بقلة اللياقة، قائلاً «إن البعض يتهمني بأني أدل اليهود على عسير لكي يستردوها» ص ٩ و «إن الكتاب يحمل دعوة لاحتلال بلد عربي آخر» ص ٩ ويدفع التهمة عن نفسه بقوله «أنا لا أضع الكتاب لأقول لليهود عودوا الى عسير». ص ٩

من العيب تحليل هذه العبارات التي يرد بها التهمة عن نفسه، من مثل «أنا لا أدل اليهود على عسير» و «أنا لا أضع الكتاب لأقول لليهود عودوا الى عسير». والقول «إن الكتاب يحمل دعوة لاحتلال بلد آخر هو زعم». ولكن من الضروري أو قل من الواجب التذكير بأن مثل هذه العبارات يدخل أو قد يدخل في باب التوهّم، والتضمين، والتشبيه، وحمل النظير على نظيره، والنقيض على نقيضه. (أكرر حتى يفهم الفاهمون إن مثل هذا الكلام يدخل أو قد يدخل في باب التوهّم، والتضمين، والتشبيه، وحمل النظير على نظيره، والنقيض على نقيضه). ومثل هذا الكلام يشي أو قد يشي بالخبث، أو بالطهارة، في الحوافز والأهداف. ويكشف أو قد يكشف عن سوء نيّة وخبث طويّة. أو عن وجه صريح دون طلاء، وملامح معبّرة دون اصطناع. ومثل هذا الكلام أيضاً يعبّر أو قد يعبّر عن مفكّر يعتنق الصراحة ويعلن الحقيقة، أو عن مفكر يمارس أبشع علمية تلويث واذلال هائلة لذكاء القارئ ولكبريائه العقلية.

عذراً، فالكاتب لا يودّ تحليل هذه العبارات، ولا التذكير بما قد تشي به أو تعبّر عنه، وإنما يودّ التعبير عن حزنه العميق لافتقارنا الى المثقف الواعي الذي يتعذّب بمشاعر الغضب أو الرفض أو الاحتجاج أو الانكار. عن حزنه الراشح بالمرارة لأن الوعي الحرون في قسم من مجتمعاتنا مستلب أو مهزوم أو غافل أو مدجّن، في وقت نحن أحوج ما نكون الى وعي معرفي قوي عميق وشامل يحرّرنا من حالة الخمول البائسة التي تسيطر على الذهن العربي. وينتشلنا من مستنقع الركود الفكري. وينفح صدورنا بايمان متقد.

ولأن الوعي الحرون في القسم الآخر من مجتمعاتنا مات بلا عزاء ولا رثاء ولا مشيّعين، في وقت نحن أحوج ما نكون الى اجلاء الحقائق التاريخية وتنقيتها

من عمليات التزييف والتلفيق الهائلة التي انتهجها بعض المؤرخين. وقد ينتهجها مستقبلاً غيرهم من المؤرخين أو من الزعامات الأصولية أو من الفئات أوالطوائف أو.. بهدف طمس الحقائق أو تشويهها أو تحريفها بشكل يضمن تضليل الرأي العام الى الأبد.

ويودّ الكاتب التعبير عن رثائه لمفكر يظل يجمع بكل حماسة بين اقتناعه بالنظرية التي وضعها بكل تعصب وتصميم، وبين خضوعه للواقع المخالف لها بكل افتضاح. رثائه لمفكّر ينزغه الهدف الذي يرمي إليه نزغات الى أن ينكر ما هو أوضح من الشمس في رائعة النهار.

عن رثائه للقارئ العربي الذي لم يبلغ مرحلة الوعي، ولم يرتفع الى مستوى القدرة على فهم التدجيل والتلفيق والتزوير والتشويه، أو قل على فهم مبرّرات التدجيل والتلفيق والتزوير والتشويه. وبالتالي ينقاد عقله صاغراً للتلفيق والتدجيل، وينصاع فكره مستعبداً للتزوير في التاريخ وللتشويه في الحقائق.

عن رثائه للمجتمع الذي يمثّل كمّاً سلبيّاً، يتلقى المؤثرات والمثيرات، ويستجيب لها بطريقة نمطية. مجتمع هيّأ لمؤيرخ أن يقرأ تفاهاته وعاهاته ونقائصه و.. بأعلى صوت، وفي جميع الاسواق والنوادي والجامعات. وأن يقرأها قراءة عالمية.

ومن هذا المنطلق فان للمؤرخ (كمال الصليبي) كل العذر والغفران في أن يعاقب القارئ العربي بالتعامل مع التاريخ كمسألة جبرية. وأن يحكم على عينيه بأن تكونا وعاء لكل فضلات التلفيق والتدجيل في التاريخ.

* * *

وبعد هذا الحديث الطويل عن محاولة الصليبي زرع اليهود تاريخاً في غرب شبه الجزيرة العربية، أودّ الآن أن ألقي بقعة من الضوء على محاولته زرع الديانة اليهودية في تلك الأرض. والملاحظ في هذا المجال أن الصليبي عبّر عن الهدف الذي يرمي الى بلوغه، والغاية التي يسعى اليها، في السطر الأول من مقدمة كتابه، بالقول «إن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية، بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن.. وقد نشأت الديانة اليهودية بين ظهرانيهم هناك» ص ٢٣٣

١١ (تأمّل صيغتي التقرير والتوكيد اللتين تعبّران عن قناعته بما يقرّر وايمانه بما يؤكد).

وفي مستهل الفصل الأول يؤكّد على طروحاته محدّداً الأرض التي شغلها، على زعمه طبعاً، شعب التوراة، ووُضعت فيها التوراة، بقوله «كانت أرض التوراة كلها في غرب شبه الجزيرة العربية، وذلك في منطقة يصل طولها حوالي ٦٠٠ كم وعرضها حوالي ٢٠٠ كم، تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز» ص ٢٧. وفي الصفحة ذاتها يقول «إن اليهودية لم تولد في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية». وفي الصفحة التالية (٢٨) يقول «إن التوراة اليهودية، أو ما يفضل المسيحيون تسميته 'العهد القديم' من الكتاب المقدس، هو سجل للتجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية».

وفي الصفحة ٥٥ عبّر عن الهدف من وضع كتابه بصريح العبارة، قائلاً «إن الموطن التاريخي للشعب الاسرائيلي، ومكان ولادة اليهودية كدين، كان غرب شبه الجزيرة العربية، وليس فلسطين».

وللمرة الثانية يؤكد على هذا الهدف، مكرّراً مقولته بالصيغة والمضمون «وجلّ ما يجادل الكتاب فيه هو أن اليهودية ولدت في غرب شبه الجزيرة العربية، وأن أرض الشعب التوراتي المعروف ببني اسرائيل، كانت هناك، وليس في فلسطين» ص ١١١.

ومن الطبيعي أن العملية التي قام بها المؤرخ لزرع التوراة في غرب شبه الجزيرة العربية، ألزمته بزرع إله التوراة ـ يهوه في تلك الأرض. فماذا فعل؟ والأصح بماذا تفصّح أو تبجّح؟. وكيف تفقّه أو تفيهق؟. قال في الصفحة ١٨٤ «كان في بلاد غامد وزهران والطائف في الزمن التوراتي أقداس ومقامات لا تُحصى، ومن بينها مقام ما يسمّى 'رب الجنود' ـ (إله الصبيات).

مدهش هذا الكلام. لا أقول بالشروح السخيفة والتمحّلات البذيئة. فقد أشبعنا البحث بمثل هذه الصفات القبيحة. وإنما أقول بالجهالة التي تجترئ على العقل والحقيقة. وبالتزوير الفاضح للتاريخ، وبالتمحّل البذيء الذي يجعل من الكتاب مباءة للخبط والتخليط.

ذكرنا في ما تقدم أن «رب الجنود» هو صفة من الصفات التي نعت بها بنو اسرائيل إلههم يهوه. أما الصليبي فجعل من هذه الصفة إلهاً، وأراد له أن يكون

«إله قرية الصبيات التي هي اليوم من قرى النماص في غرب شبه الجزيرة العربية». كيف؟. بعملية جبرية، مارس المؤرخ من خلال عرضها، عملية استفراغ تفاهته وجهله على الآخرين.

وفي الصفحة ٢٢٤ يقول الصليبي «الواضح أن الاسرائيليين في زمانهم كانوا يعتبرون ءل عليون وءل عولم من اسماء الاله الواحد الذي اعترف به بنو اسرائيل وأسموه بدورهم يهوه».

إن المستنير الذي خصّه الله بمواهب العقل والنطق والافهام، لا يستطيع أن يغفرَ لمؤرخ واستاذ جامعي، يلفّق مثل هذه الأباطيل، ويركّب مثل هذه التشوّهات، في وقت يزعم أنه اعتنق التنقيب في مجاهل البدايات.

ذكرنا وأكّدنا في أكثر من موضع من هذا البحث أن عليون (العالي) هي الصفة التي أضفتها المجتمعات القديمة في سوريا الجنوبية على الصفة «ايل» بعد تحوّلها الى اسم. فقالوا «ايل عليون» أي «الله العلي». أما «ءل عولم» فهو من ابتكارات الصليبي ولا معنى له. وذكرنا وأكّدنا أيضاً في أكثر من موضع في هذا البحث أن بني اسرائيل لم يعرفوا الاله الواحد. فموسى فرض عليهم عبادة إله خاص بهم سمّاه يهوه. ومن الواضح أن جمع ايل عليون (الله العلي) ـ (معتقد طبيعي) وءل عولم (لا معنى له) مع يهوه (اسم إله تاريخي) في التركيب الذي لفّقه الصليبي، تقصير مزرٍ لا يليق باستاذ جامعي تتخرّج الأجيال على هدي قلمه ولسانه.

ولما كان الصليبي ينعت نفسه أو ينعته الآخرون بأنه من المؤمنين بجدوى عرض الحقيقة، والمخلصين للنضال في سبيلها. ولما كان يقدّم، باعتقاده أو باعتقاد الآخرين، أدلّة كالبواتر في بحثه عن الحقيقة واجلائها، وتنقيتها من الشوائب وعمليات التزييف وسيول الافتراءات. ولما كانت تحليلاته النادرة المثيل، باعتبار الآخرين، قد بلغت من الدقّة والعمق والشمول حدّاً يتنافس في مثلها المتنافسون. فقد أضحت كتاباته التي يحكمها الفكر الواعي والعقلانية المنطقية، بنظره أو بنظر الآخرين، أضحت تصقل الذهن كما تصقل أمواج البحر حصى الشاطئ. والشواهد على هذه التحليلات والكتابات كثيرة، منها مثلاً مذبح جدعون وقسم ابراهيم.

ماذا قدّم الصليبي في عرضه لقصة جدعون ومذبحه من الحقائق التي يموت

شوقاً إليها وحباً بها وبحثاً عنها؟. اليك عباراته، لم نغيّر فيها حرفاً. ومن أراد أن يفهم فليفهم. جاء في الصفحة ٢٢٦ من كتابه:

١ ـ إن الاله الاسرائيلي يهوه محدد بشكل مميز على انه «شلوم» (شلوم، وزن «فعول» من شلم) في اسم مذبح يقال ان أحد قضاة اسرائيل، وهو المدعو جدعون، بناه في «عفرة» (عفره)، في مكان يقال انه كان مُلكاً لأناس من «عزر» (ءبي هـ ـ عزري، في الترجمة العربية «الأبيعزريين»، القضاة ٦ : ٢٤). ولا بدّ أن «عفرة» المذكورة هي اليوم العفراء (عفر) الحالية، في منطقة النماص. والقرية هذه غير بعيدة عن العضرة (عضر ، قارن مع عزر العبرية) في منطقة بني عمرو، إلى الشمال من النماص، ولا شك في أنها «عزر» التوراتية. ومن الواضح أن الموقع الذي أقام فيه جدعون مذبح «يَهوِه شلوم» لم يكن غير آل سلامة، في

ماذا يفهم القارئ العادي من هذا التلفيق المدهش؟.

يفهم أن جدعون، أحد قضاة (حكام) اسرائيل، اسرائيل التي كانت بمنطق الصليبي «مملكة في بلاد السراة أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير، بين القرن الحادي عشر والقرن السادس ق.م.» ص ١٢ بنى مذبحاً ليهوه (الرب) وسمّاه «يهوه شلوم». وهذا المذبح لا يزال حياً خالداً، باعتبار الصليبي طبعاً، في قبيلة أو قرية آل سلامة في جوار النماص. وبلغته التأكيدية المعروفة «مذبح يهوه شلوم لم يكن غير آل سلامة».

أما القارئ المستنير (وهو أندر من حبّات اللؤلؤ في هذا البحر من المجتمعات المغسولة الأدمغة، المعطّلة العقول، المخصيّة الأذهان) فماذا يفهم؟.

يفهم أن بني اسرائيل تغرّبوا في أرض فلسطين فترة قصيرة، لم يعرفوا حياة

الاستقرار يوماً فيها. ولم يتركهم أصحاب الأرض ينعمون بشيء من الأمن والطمأنينة، بعدما شعروا بتعصّبهم الذميم وعنصريتهم الحاقدة. وظلّوا في هذه الفترة الوجيزة خاضعين لأصحاب الأرض. فانضوت قبائل منهم تحت سلطة الكنعانيين والفلسطينيين. وتحوّل قسم آخر الى مرتزقة. وظلّوا جميعهم في حال من التبعية والعبودية لسلطة أصحاب الأرض. يقول محرّر التوراة (العهد القديم): «فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتايم، ملك ارام، ثماني سنين. سفر القضاة ٣: ٨». يعني استعبدهم ملك ارام. ويضيف المحرّر «وعبد بنو اسرائيل عجلون ملك مؤاب ثماني عشرة سنة. قضاة ٣: ١٤». «واستعبدهم الفلسطينيون وبنو عمون. فحطّموا ورضّضوا بني اسرائيل ثماني عشرة سنة. قضاة ١٠: ٧». وفي مرحلة أخرى من الفترة الطارئة التي تغرّب فيها بنو اسرائيل في أرض فلسطين، استعبدهم «الفلسطينيون أربعين سنة. قضاة ١٣: ١». واستعبدهم المديانيون «سبع سنين. . فعمل بنو اسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال، والمغاير. . وذلّ اسرائيل جداً من قبل المديانيين. سفر القضاة ٦: ٢ ـ ٦».

«ولما صرخ بنو اسرائيل الى يهوه (الرب) من قبل المديانيين. . أتى ملاك الرب وجلس تحت البطمة التي في عفرة التي ليوآش الابيعزري. وابنه جدعون كان يخبط حنطة في المعصرة لكي يهرّبها من المديانيين. فظهر له ملاك الرب وقال له: الرب معك يا جبّار البأس. فقال له جدعون: أسألك يا سيدي: إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه؟. وأين كل عجائبه التي أخبرنا بها آباؤنا قائلين: ألم يُصعدنا الرب من مصر؟. والآن قد رفضنا الرب وجعلنا في كفّ مديان. فالتفت إليه الرب وقال: اذهب بقوتك هذه وخلّص اسرائيل من كفّ مديان. فقال جدعون للرب: أسألك يا سيدي بماذا أخلّص اسرائيل؟ ها عشيرتي هي الذلّى في منسّى، وأنا الأصغر في بيت أبي. فقال له الرب: إني أكون معك، وستضرب المديانيين كرجل واحد. فقال جدعون للرب إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فاصنع لي علامة أنك أنت تكلّمني. لا تبرح من ههنا حتى آتي اليك وأخرج تقدمتي وأضعها أمامك. فقال الرب: إني أبقى حتى ترجع. قضاة ٦: ٧ ـ ١٨». (تأمّل الحوار بين جدعون والرب. ومع ذلك فان جدعون لم يصدّق أن الرب هو الذي يكلّمه، فطلب إليه أن يصنع له علامة تؤكد أن الشخص الماثل أمامه هو الرب).

«فدخل جدعون وعمل جدي معزى وأيفة دقيق فطيراً. أما اللحم فوضعه في سلّ وأما المرق فوضعه في قدر، وخرج بها الى الرب تحت البطمة وقدمها. فقال له ملاك الرب: خذ اللحم والفطير وضعهما على تلك الصخرة واسكب المرق. ففعل كذلك. فمدّ ملاك الرب طرف العكّاز الذي بيده ومسّ اللحم والفطير، فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير. وذهب ملاك الرب عن عينيه. فرأى جدعون أنه ملاك الرب، فقال جدعون: آه يا سيدي الرب لأني قد رأيت ملاك الرب وجهاً لوجه. فقال له الرب السلام لك. فبنى جدعون هناك مذبحاً للرب ودعاه يهوه شلوم. لم يزل في عفرة الأبيعزريين الى هذا اليوم. قضاة ٦ : ١٩ ـ ٢٤». (أي يوم؟. طبعاً يوم كتابة التوراة في السبي البابلي، أي بعد ٨٠٠ سنة تقريباً من أحداث هذه القصة على اعتبار صحة حدوثها).

وحين «لبس روح الرب جدعون، ضرب جدعون بالبوق، فاجتمع أبيعزر وراءه. وأرسل رسلاً الى جميع منسّى، فاجتمع هو أيضاً وراءه، وأرسل رسلاً الى أشير وزبولون ونفتالي، فصعدوا للقاء المديانيين. قضاة ٦ : ٣٤».

وقبل أن يبدأ القتال أحب جدعون أن يمتحن الرب من جديد، وكأنه لم يقتنع بالامتحان الأول، «فقال جدعون لله: إن كنت تخلّص بيدي اسرائيل كما تكلّمتَ، فها إني واضع جزّة الصوف في البيدر، فإن كان طلّ على الجزّة وحدها وجفاف على الأرض كلها علمتُ أنك تخلّص بيدي اسرائيل. وكان كذلك. فبكّر في الغد وضغط الجزّة وعصر طلاً من الجزّة ملء قصعة ماء. فقال جدعون لله: لا يحم غضبك عليّ فاتكلم هذه المرة فقط. أمتحن هذه المرة فقط بالجزّة. فليكن جفاف في الجزة وحدها، وعلى كل الأرض ليكن طلّ. ففعل الله كذلك في تلك الليلة. فكان جفاف في الجزّة وحدها، وعلى الأرض كلها كان طلّ. قضاة ٦ : ٣٦ ـ ٤٠».

وبعدما خضع الرب لامتحان جدعون «قال الرب لجدعون إن الشعب الذي معك كثير عليّ لأدفع المديانيين بيدهم، لئلاّ يفتخر عليّ اسرائيل قائلاً يدي خلّصتني. والآن نادِ في آذان الشعب قائلاً: من كان خائفاً ومرتعداً فليرجع وينصرف من جبل جلعاد. فرجع من الشعب اثنان وعشرون ألفاً. وبقي عشرة آلاف. قضاة ٧: ٢». (تأمل: الرب توجّس خيفة من أن يتفاخر عليه بنو اسرائيل قائلين: يدنا خلّصتنا).

وبعدما «رجع اثنان وعشرون ألفاً» «قال الرب لجدعون: لم يزل الشعب كثيراً. انزل بهم الى الماء فأنقّيهم لك هناك.. فنزل بالشعب الى الماء. وقال الرب لجدعون: كل من يلغ بلسانه من الماء كما يلغ الكلب فأوقفه وحده. وكذا كل من جثا على ركبتيه للشرب. وكان عدد الذين ولغوا بيدهم الى فمهم ثلاث مئة رجل. وأما باقي الشعب جميعاً فجثوا على ركبهم لشرب الماء. فقال الرب لجدعون: بالثلاث مئة الرجل الذين ولغوا أخلّصكم وأدفع المديانيين ليدك.. فأرسل جدعون سائر رجال اسرائيل، كل واحد الى خيمته. وأمسك الثلاث مئة الرجل. قضاة ٧: ٤ ـ ٨». «فقسمهم الى ثلاثة فرق، وجعل أبواقاً في أيديهم كلهم وجراراً فارغة ومصابيح في وسط الجرار. قضاة ٧: ١٦». «فضربت الفرق الثلاث بالأبواق، وكسروا الجرار، وأمسكوا المصابيح بأيديهم اليسرى، والأبواق بأيديهم اليمنى، وصرخوا: سيف للرب ولجدعون. ووقفوا كل واحد مكانه حول المحلّة. فركض كل الجيش، وصرخوا وهربوا. وضرب الثلاث المئين بالابواق، وجعل الرب سيف كل واحد بصاحبه، فهرب الجيش. قضاة ٧: ٢٠». «والذين سقطوا مئة وعشرون ألف رجل مخترطي السيف. قضاة ٨: ١٠». (تأمل: عندما ضرب الثلاث مئة الرجل بالابواق، وكسروا الجرار التي بأيديهم.. جعل الرب سيف كل واحد بصاحبه.. فسقط مئة وعشرون ألف رجل من المديانيين).

«فقال رجال اسرائيل لجدعون: تسلّط علينا أنت وابنك وابن ابنك لأنك خلّصتنا من يد مديان. قضاة ٨: ٢٢». فطمع جدعون بتصاغرهم أمامه وخضوعهم له، وطلب منهم ما غنموه في احدى الغزوات. قال «أطلب منكم أن تعطوني، كل واحد، أقراط غنيمته. لأنه كان لهم أقراط ذهب. ففرشوا رداء وطرحوا عليه، كل واحد، أقراط غنيمته.. فصنع جدعون منها أفوداً (ثوب مطرّز ومرصّع بالذهب) وجعله في مدينته في عفرة. وزنى كل اسرائيل وراءه هناك. قضاة ٨: ٢٤». «وكان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه لأنه كانت له نساء كثيرات. قضاة ٨: ٣٠».

والسؤال: لماذا تناسى المؤرخ كمال الصليبي أو تغافل عن زعيم المرتزقة (جدعون) الذي «فرش رداء» بعد احدى الغزوات، فبادر مرتزقته «وطرحوا عليه، كل واحد، أقراط غنيمته»؟. ولماذا تغافل عن السير المشينة لزعماء هؤلاء

المرتزقة بعد جدعون؟. فالكتاب المقدس يخبرنا ان ابن سرية جدعون المدعو اب ملك حاول، بعد موت جدعون، أن يتسلّط على مرتزقة أبيه. فنازعه اخوته السبعون. «فاستأجر أب ملك رجالاً بطالين طائشين. (وهل في اللغة صفة تعبّر عن المرتزقة أفضل من صفة البطالين الطائشين؟) فسعوا وراءه (تأمل: سعوا وراءه). ثم جاء الى بيت أبيه في عفرة وقتل اخوته سبعين رجلاً على حجر واحد. قضاة ٩: ٤». فاجتمع المرتزقة «عند بلوطة النصب الذي في شكيم، وجعلوا أب ملك ملكاً. قضاة ٩: ٦». (تأمل: اجتمع الشعب عند بلوطة النصب الذي في شكيم، وجعلوا أب ملك ملكاً». «فترأس أب ملك على اسرائيل ثلاث سنين. قضاة ٩: ٢٢». حتى ثارت عليه فرقة من المرتزقة، «فكانوا يستلبون كل من عبر بهم في الطريق. قضاة ٩: ٢٥». ثم قام على رأس هذه الفرقة جعل بن عابد، فحاربه أب ملك وهزمه. وحين أقام أب ملك في أرومة مع مرتزقته، ثار عليه سكانها، «فقتل أب ملك الشعب الذي بها وهدم المدينة وزرعها ملحاً. قضاة ٩: ٤٥».

وحين قتل أب ملك تسلّط عليهم الصعلوك يفتاح الجلعادي الذي «كان جبّار بأس. وهو ابن امرأة زانية. قضاة ١١: ١».

والسؤال: لماذا لم يرَ حضرة المؤرخ في سيرة زعيم المرتزقة (جدعون) غير مسألة بناء مذبح «يهوه شلوم»؟. ولماذا هذه الرغبة الملحاحة اللاهثة في طمس الحقائق وتزوير التاريخ وحقن القُرّاء بالأضاليل؟.

أعتقد أن الرغبة في تشويه الحقائق. والتغافل عن السير المشينة لزعماء المرتزقة في جماعة بني اسرائيل، يهدفان الى تمجيد بني اسرائيل، والى شحن القارئ بالمفهوم الذي تبنّاه الصليبي، ومفاده أن «المملكة الاسرائيلية أسّست في غرب شبه الجزيرة العربية أواخر القرن الحادي عشر ق.م. وظلت قائمة حتى القرن السادس ق.م.». وكان لبني اسرائيل في تلك الأرض «ديانة عميقة المضمون، لها كتبها المقدسة. وتشمل مفهوماً متطوراً للألوهية، ومحتوى اجتماعياً وأخلاقياً مصقولاً الى درجة رفيعة» ص ٢٩ وأن «اليهودية ديانة توحيدية» ص ١٢ وأن. . وأن. . وأن جدعون بنى مذبحاً سماه «يهوه شلوم». «ومن الواضح أن الموقع الذي أقام فيه جدعون مذبح يهوه شلوم لم يكن غير آل سلامة». (تأمل الصيغة التأكيدية: من الواضح. وتأمل في النفي القاطع: لم

يكن غير آل سلامة).

وبعد، أعتقد أن من التقصير، وربما من العيب، أن يطرح الناقد أسئلة من مثل: (لماذا هذه الرغبة الملحاحة في طمس الحقائق؟ ولماذا التغافل عن السير المشينة لزعماء بني اسرائيل). لأن المؤرخ يكتب مثل هذه التفاهات والسخافات أو الأضاليل والتشوّهات، الى مجتمعات خاملة، قانعة، مستسلمة. تستغرق في الهرب من التفكير، ومن فهم أي شيء. وتحدوها رغبة ضارية في التهرّب من مواجهة الحقيقة.

* * *

وفي تحليل الصليبي لقسم ابراهيم «رفعت يدي الى الرب الاله العلي، مالك السماء والأرض. تكوين ١٤ : ٢٢» ماذا قدّم الصليبي من الحقائق التي يموت شوقاً اليها وحباً بها وبحثاً عنها؟. إليك عباراته، لم نغيّر فيها حرفاً. ومن أراد أن يفهم فليفهم:

> ٣ ـ ان القراءة التقليدية للتكوين ١٤ : ٢٢ اعتبرت ـ ولزمن طويل ـ أن من المسلم به كون «أبرام العبراني» اعترف بالقسم بأن إلهه، وهو يهوه، هو ذاته «ل عليون، اله ملك «شاليم». والنص العبري لقَسَم أبرام، الذي يقول هرمتي يدي «ل يهوه «ل عليون، أخذ عادة على أنه يعني: «أقسمت (حرفياً: «رفعت يدي») لِـ يَهوِه «ل عليون»، (وفي الترجمة العربية ومعظم الترجمات الأوروبية: «إلى
>
> الربّ الاله العلي»). والصحيح أن اللفظة العبرية يهوه هنا (كما في أماكن أخرى عديدة من التوراة) يجب أن تقرأ على أنها صيغة المضارع من فعل هيه، اي «كان». وبالتالي، فإن القسم يجب ان يقرأ ليترجم حرفياً: «اقسمت، و«ل عليون يكون إلهاً»، أي بالعربية «أقسمت، والله هو«ل عليون» («ل يهوه «ل عليون)

من الصفحة ٢٢٧ من كتاب الصليبي

الملاحظ أن الصليبي، في اعتباره «يهوه» هو «الرب»، كان كمحرّري التوراة الذين سبقوه بترجمة «يهوه» حيثما ورد في التوراة، الى لفظ «الرب». وهذا الاعتبار أو الترجمة تعبير عن غباء فاحش أو عن سوء نيّة وخبث طويّة. فابراهيم (على اعتبار صحة وجوده) أرامي، ولد «في أور الكلدانيين. تك ١١: ٢٨». والاراميون كالمجتمعات التي عاصرتهم أو سبقتهم في سوريا الطبيعية (كالأكاديين في سوريا الشرقية والكنعانيين في سوريا الغربية) عبّروا عن القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء بصفة «عَلْ» - (ايل). وعلى لسانهم وفي مفهومهم تطوّرت هذه الصفة من ايل إلى ايلاه فالله. وفي مفهومهم أيضاً تحولت الصفة الى اسم. وعنهم اقتبست المجتمعات الانسانية جميعها هذا الاسم (الله).

أما يهوه فلم يظهر إلا مع موسى (على اعتبار صحة وجوده)، وبعد خمسمائة سنة من ابراهيم (على اعتبار صحة التاريخ التوراتي). فالمعروف أن موسى هرب من مصر بعد قتله مصرياً، ولجأ الى مديان. وحين «كان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان.. ناداه الله من وسط العليقة قائلاً.. هلم فأرسلك الى فرعون وتخرج شعبي بني اسرائيل من مصر.. فقال موسى لله: ها أنا آتي الى بني اسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني اليكم. فاذا قالوا لي ما اسمه؟. فماذا أقول لهم؟. فقال الله لموسى: أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني اسرائيل: أهيه أرسلني إليكم. وقال الله أيضاً لموسى: هكذا تقول لبني اسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب، أرسلني اليكم. هذا اسمي الى الأبد. تك ٣». وفي مستهل الفصل السادس من سفر التكوين «كلّم الله موسى وقال له: أنا يهوه، وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب.. وأما باسمي يهوه فلم أُعرف عندهم».

فـ «يهوه» لم يظهر إلا مع موسى. ويقول الله أو المحرّر التوراتي، لا فرق، «وأما باسمي يهوه فلم أُعرف عندهم».

أما الصليبي فيزعم أن ابراهيم أقسم لـ «يهوه». ويلغته «أقسمت لـ يهوه ءل عليون» ص ٢٢٧. وهذا الزعم تعبير عن غباء فاحش كما قلنا، أو عن سوء نيّة وخبث طويّة.

على أن الداهية الدهياء هي في قوله «إن اللفظة العبرية يهوه يجب أن تقرأ

على أنها صيغة المضارع من فعل هيه، أي كان. وبالتالي فان القسم يجب أن يقرأ: أقسمت والله هو ءل عليون (ءل يهوه ءل عليون)» ص ٢٢٨ (تأمل الصيغ الجازمة: يجب أن تقرأ، ويجب أن يقرأ. وهذه الصيغ تعبير عن جهالة المؤرخ وقصور ذهنه وضحالة وعيه، وهنا معقد المسألة الدقيق).

المهم أن الصليبي يستخدم هذا الاسلوب من الصيغ الجازمة، وهذه الاشكال من التشوّهات والتلفيقات، محوّلاً إياها الى بلاغة مفترسة متوحشة، في محاولة لاقناع قارئه الغافل بأن يهوه هو الله.

وفي هذا المجال (أي اعتبار «يهوه ءل عليون») لا يكفي أن ننعت كلام الصليبي بالشرح السخيف والتلفيق القميء والتمحّل البذيء. أو أن نتهمه، في تحليله لقسم ابراهيم، بممارسة عملية بصق عيوبه واستفراغ تفاهاته، في وجوه الآخرين. ولا أن نحكم على قرائه بأن تكون عيونهم حفراً تسقط فيها ما تعوّدت عليه لدى قراءة الصليبي، من صنوف العاهات والغباوات. أقول لا يكفي أن ننعت، أو نتّهم، أو نحكم، لأن الصليبي تجاوز كل هذه العورات والسقطات الى شكل جديد من الخداع الفكري، والى ضرب فريد من الاجتراء على العقل والحقيقة. وبالتالي بات عليك ألاّ تقرأ بباصرتين واعيتين، وألاّ تحكم على قراءاتك في مجال قدرة عقلك وسعة وعيك، بل أن يزدرد عقلك ما يبتدعه الصليبي من فلسفات، وأن يبتلع ذكاؤك ما يولّده من مناهج ونظريات. تأمل: «رفعت يدي الى الرب الاله العلي» قرأها الصليبي: رفعت يدي لـ يهوه ءل عليون. وتأمل قوله: إن القسم يجب أن يقرأ «أقسمت وءل عليون يكون إلهاً» أي بالعربية أقسمت، والله هو ءل عليون» (ءل يهوه ءل عليون). (فلسفة أو نظرية).

وهل تأملت الهدف الذي يسعى إليه الصليبي، والغاية التي يرمي الى بلوغها؟. «يهوه هو ءل عليون». والداهية الدهياء تتمثل في قوله: «ءل يهوه ءل عليون».

ءل عليون تعني الله العلي. ولكن ما معنى ءل يهوه؟. يعني، برأي الصليبي طبعاً، أن ءل (الله) هو يهوه (منهج، فلسفة، نظرية، سمها ما شئت).

والسؤال الذي طرحناه في أكثر من مجال: كيف يستطيع المؤرخ كمال الصليبي أن يمارس التلفيق والتدجيل الى هذا الحد؟ وكيف يجرؤ عليه؟ وكيف

يجرؤ على مواجهة الآخرين به؟.

إن منطقي لا يستطيع أن يفهم غفلة مؤرخ وصلت به الى حدّ الاعتقاد بأن التدجيل والتلفيق يطمسان الحقائق. وإن وعيي لا يستطيع أن يغفر لمؤرخ، اسمه يفلق أصمخة المسامع، يتبنّى مثل هذه النظريات أو الفلسفات أو وجهات النظر أو التدجيلات والتشوّهات التي تتميّز بالبله والقصور الى درجة بعيدة. إن مؤرخاً يدوّن في كتابه «ءل يهوه ءل عليون» لا يمكن أن تصنّفه إلا بين الجهلة المغرورين الذين يعانون من غيبة الفهم ومن ضحالة الوعي. ومن الطبيعي أن مثل عاهات وتلفيقات الصليبي يبرز في عصر الظلمات الفكرية والسياسية والاجتماعية. ويجد تربته الخصبة عادة لدى الشرائح المتدنية في السلم الاجتماعي، في غياب الوعي الاجتماعي لأوضاعها، والوعي العقلي لتاريخها ومعتقداتها.

يبقى أمامي صفحات قليلة من كتاب الصليبي، أعتقد أني مهما جمعت من النعوت القبيحة، والتي ألححت عليها مراراً وتكراراً، مثل: الخلط والهراء والتزوير والتزييف والتحريف والتصحيف والمسخ والتشويه والتعمية والتمويه والاختلاق والتلفيق والتدجيل والتضليل، والتمحّل في التأويل والتفسير، وطمس الحقائق، وحقن القُراء بالأضاليل والافتراءات، وشحن الكتاب بأشكال الأضاليل والأغلاط المستقذرة والسفاسف المستقبحة، وجعله مباءة للخبط والتخليط و.. و.. هذه النعوت القبيحة وغيرها، بالاضافة الى التعبيرات المتبرّمة الغاضبة وهي كثيرة وكثيرة جداً، لا تفي بالتعبير عن «المعرفة الخاصة التي توصّل اليها» الصليبي (ص٩)، والتي نعتها أولئك الادعياء الحافين من حوله بأنها «نظرية». والواقع إن هذه «المعرفة الخاصة» أو «النظرية» تنعقد لها الراية في هذه الصفحات الأخيرات.

ولئلا يضيع القارئ باستطرادنا أودّ التذكير بأن الصليبي هدف من وضع كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» الى زرع اليهود، تاريخاً وديناً، في غرب شبه الجزيرة العربية. ومن الطبيعي أن زرع اليهود في تلك الأرض يفرض على الزارع (كمال الصليبي) أن يزرع إله التوراة ـ يهوه في تلك الأرض أيضاً، لأن يهوه أبداً قائم على رأس التاريخ اليهودي والديانة اليهودية. فبعدما قال لنا الصليبي في ص ١٨٤ «كان في بلاد غامد وزهران والطائف أقداس ومقامات لا

تحصى، ومن بينها مقام ما يسمى «رب الجنود» (إله الصبيات)». وقد ذكرنا أن «رب الجنود» هو صفة يهوه (الرب). وقال في ص ٢٢٦ «إن مذبح يهوه شلوم الذي بناه أحد قضاة اسرائيل المدعو جدعون، لم يكن غير آل سلامة في جوار النماص». وقال في ص ٢٣٠ «إن كلاً من آل سلامة وآل عليان وآل العلم قد عُرّف، وبوضوح، على أنه الاله يهوه، إله اسرائيل». وبعدما قال وقال (قد أشرنا في ما تقدم الى بعض ما قال)، يقول في ص ٢٣٠ والأحجى أن ننشر الصفحة كما هي:

وفي التوراة العبرية، عُرِّف كل من آل سلامة، وآل عليان، وآل العلم، وبوضوح، على أنه الاله يهوه إله اسرائيل (انظر أدناه)، وورد صدق على انه اسم مقام لِـ يهوه. وكذلك فقد عُرِّف بـ يهوه عدد من آلهة غرب شبه الجزيرة العربية الأخرى التي بقيت اسماؤها قيد الوجود في أرضها الأصلية كأسماء أمكنة. ومن هذه الآلهة ءل شدي (في التوراة العربية «الله القدير»)، و ءلهي صبءوت أو يهوه صبءوت (في التوراة العربية «إله الجنود» و «رب الجنود»)، و ءل رءي (في التوراة العربية «إيل رُئي»)، واسم الإله هذا مقترن في سفر التكوين ١٦: ١٣-١٤ باسم بئر، ومعناه «إله الريّ»). أمّا الأمكنة التي ما زالت تحمل أسماء هذه الآلهة الى اليوم فهي قرى آل سادي (ءل سدي) في منطقة ظهران الجنوب، والصبيات (قابل مع صبءوت) في منطقة النماص، وآل رهوة (اي «إله الفوهة المائية، البئر») في رجال ألمع. وكما لوحظ سابقاً، فإن اسمي إلهين آخرين من غرب شبه الجزيرة العربية، هما آل جَبَّار (ءل جبور التوراتية) وأبو العيد (ءبي عد التوراتية)، عُرِّفا في اشعيا على أنهما اسمان للمسيح الموعود. ويستنتج من ذلك أن اسمي هذين الإلهين كانا أيضاً من الأسماء المعتمدة للإله الواحد يهوه من قبل بني اسرائيل[٢].

واسم يهوه نفسه استمر في الوجود في غرب شبه الجزيرة العربية، ليس فقط كـ يه أو يهو في المنقوشات الثمودية واللحيانية التي عثر عليها في شمال الحجاز (وهي حقيقة يقرّها جميع الباحثين اليوم)، بل أيضاً في عدد من أسماء الأمكنة. وأحدها هو جبل تهوى (تهو) في عسير الساحلية. والأمكنة الأخرى هي قرى مثل الهاو (ءل هو) والهواء (ءل هو) وأبو هِياء (هي) وهِيّة (هي) في الحجاز، وآل هِيَة (ءل هي) في منطقة النماص (ربما كان الاسم لمقام رئيسي ليهوه، نظراً لقربه من آل عليان

تأمّل ما يقوله الصليبي: «اسم يهوه استمر في الوجود في غرب شبه الجزيرة العربية». وقد ذكرنا مراراً وتكراراً أن يهوه ظلّ محصوراً بجماعة بني اسرائيل وفي مساحة من مرتفعات أرض فلسطين لا تتجاوز عشرة أميال مربعة. وقول الصليبي إن يه أو يهو اكتشف في المنقوشات الثمودية واللحيانية، تلفيق وتشويه وتزييف و. . الى آخر هذه الصفات القبيحة. ولم يقرّ هذه (الحقيقة) ـ الزعم أحد من الباحثين. واذا صدف وأقرها أحد الغربيين عن عمى بصيرة أو عن سوء نية وخبث طوية، فهو أغبى خلق الله.

وتأمل الصليبي يقول: إن يهوه استمر في الوجود في غرب شبه الجزيرة العربية ممثلاً في جبل تهوى في عسير الساحلية. وفي قرى الهاو والهواء وأبو هياء وهية في الحجاز، وآل هية في منطقة النماص و. . (ماذا يستطيع الباحث أن يقول في مثل هذه التلفيقات التي تجعل الوجه يقطر حياء وخجلاً؟).

والداهية الدهياء أن الصليبي يجعل من «يهوه إله الرفعة والعلو والشموخ، وهو ما يفيد اسم الله العلي». يالطيف! مرعب هذا الكلام: الصليبي يجعل من يهوه «الله العلي» و «كبير الآلهة» و «الاله الواحد». (أرجو من القارئ الكريم أن يعود الى قراءة ما ذكرناه سابقاً في ايل ـ الله وفي يهوه).

والأدهى من الداهية الدهياء هو الفصل الذي لفّقه الصليبي تحت عنوان «الأرض الموعودة». ومما قاله فيه «إن الأرض التي تمكن بنو اسرائيل من السيطرة عليها وإقامة دولتهم التاريخية فيها كانت بالفعل أرضاً موعودة لجدهم ابراهيم من الرب يهوه. وكانت هذه الأرض تمتد من منطقة جيزان عند حدود اليمن الى وادي أضم ومرتفعات الطائف في جنوب الحجاز». (تأمل ما يقرّره الصليبي للأجيال: الأرض الموعودة التي تمكن بنو اسرائيل من السيطرة عليها وإقامة دولتهم التاريخية فيها، كانت بالفعل (بالفعل) أرضاً موعودة. وكانت تمتد. . . .

ويقول في ص ٢٦٣ «والأرض التي وعد بها الرب يهوه موسى تضم أراضي عسير وجنوب الحجاز الداخلية وكذلك أراضيهما الساحلية، من ساحل البحر الأحمر وحتى أطراف الصحراء في وسط شبه الجزيرة العربية».

ويقول الصليبي في ص ٢٦٥ «وفي ما يلي حدود الأرض التي وُعد بها بنو اسرائيل وموسى:

١ ـ الحد الغربي هو البحر الكبير أي البحر الأحمر.

٢ ـ الحد الجنوبي يبدأ من برّية زين بمنطقة نجران.. ومن هناك تمتد الحدود الجنوبية للأرض الموعودة باتجاه الغرب.. وبعد ذلك تمرّ الحدود عبر آل عصمان في جوار ظهران الجنوب.

٣ ـ الحد الشمالي يبدأ عند ساحل البحر الأحمر ويتابع صعوداً ماراً بجبل هور وهو اليوم قرية الهَرّة على حرف سراة زهران عند حدود بلاد مالك في منطقة الطائف.

٤ ـ الحد الشرقي يبدأ من عينين في حرّة البقوم ويتجه جنوباً الى حضاير الثفن و..

وهكذا تتطابق صورة أرض موسى الموعودة بجميع تفاصيلها، وبكل بساطة وسهولة، مع الخريطة، من جوار الطائف شمالاً حتى حدود اليمن جنوباً، ومن حافة الرمال شرقاً الى البحر في الغرب».

الواقع أني لا احتجّ على المؤرخ كمال الصليبي، بقدر ما أحتجّ على الصمت الذي قابل به المستنيرون أو القائمون على الأمر في المراكز الثقافية أو التثقيفية في المجتمعات العربية، هذا الكتاب. احتجّ على تحدّث المفكرين أو من يزعم الآخرون أنهم مفكرون، وأساتذة الجامعات، عن كتاب الصليبي، وبالاسلوب الذي يتحدثون به. واعتبره أقسى وأقبح اسلوب من أساليب الهجاء والسباب والتحقير للذهن العربي وللعقلية العربية. احتجّ على غباء القطعان البشرية التي فقدت القدرة على التعبير بأي لغة من لغات الوعي، ولذلك استطاعت ذهنيتها أن تبتلع كل هذه السخافات والتفاهات التي عرضها المؤرخ كمال الصليبي في كتابه. وتمكن ذكاؤها من أن يزدرد كل هذا التجهيل والتضليل والتدجيل. واستطاعت عقولها أن تهضم كل هذه الشروح السخيفة والتمحّلات البذيئة. احتجّ على غفلة أو تغافل القُرّاء الذين لم تنفجر أعينهم بهذه الاشكال من التدجيلات والتلفيقات التي حوّلها المؤرخ الى بلاغة مفترسة متوحشة. وبالتالي لم تتحوّل هذه التدجيلات والتلفيقات الى سياط تجلدهم من داخلهم. تجلد عقولهم وأخلاقهم ومشاعرهم وكل شيء فيهم. احتجّ على المجتمع الخامل، القانع، المستسلم، المتعبّد للغفل والتغافل، والمستغرق في الهرب من التفكير ومن فهم أي شي. ومن الطبيعي أن التفكير مستوى انساني، وأن الذين

لا يفكرون لا يعرفون الغضب والاحتجاج. ولما كان كل شيء في هذا المجتمع مريضاً فهو محتاج الى علاج، وما علاجه سوى الوعي والاحتجاج. ومن الطبيعي أيضاً أن أفضل تعبير عن انهيار مجتمع أو أمة هو ظهور أعراض غياب الوعي والاحتجاج لدى الأفراد فيه أو فيها. احتج لأن من العيب السكوت على ما لا يصح السكوت عليه.

خاتمة

وفي ختام هذا العرض الموجز للعمليات الواسعة التي حاكها الصليبي في تشويه الاسماء، وفي تلفيق الأصول وخلط العصور. وبعد إلقاء هذا البصيص الخافت من النور على «المعرفة ـ (النظرية) التي توصّل إليها» المؤرخ كمال الصليبي (ص ١٩)، والتي يمكن اعتبارها أكبر عملية تلويث واذلال هائلة لذكاء الانسان ولكبريائه العقلية، أرى من الضروري الاشارة الى وجهة نظر كل من المؤرخ والقارئ بشأن ما يتضمّنه كتاب الصليبي من معطيات جديدة في الصيغة والمضمون.

فالمؤرخ يوهمك بأنه باحث منقّب ولغوي ضليع ومتبحّر عبقري. وأنه ذو ثقافة متينة متنوعة، يعتنق التنقيب في مجاهل البدايات، ويتفانى في البحث عن الحقائق، والاخلاص للنضال في سبيلها. لا يعنيه من يخاصم أو من يعادي في سبيل الغضب للحقائق التي هي كل خبزه وكل حبّه وبغضه.

وهو يوحي لك بأن سفره الجليل مما يجب ادخاله في المدارس والجامعات جميعها، فيكون بالأيدي أداة لمقاومة تيار الجهل والغباوة. ومشكاة نيّرة لمن يتسكّع في ظلمات التجهيل والتضليل. وبأن هذا السفر يتضمّن موضوعاً لم يسبقه إليه أحد. وبأن دفّتيه تنطويان على آراء مفتولة وأدلة منطقية معقولة، ينقلها عنه من يجيء بعده من الكتبة، أو ينقلها الأجانب الى لغاتهم اقراراً بفضل المؤرخ وعلمه ابتكاره المباحث.

وهو يتسلّح بكل ما في اللغة من أساليب التوكيد وأدواته، في محاولة لشحن القارئ بالاكتشاف الذي توصّل إليه، وبالاقتناع الذي ترسّخ في صدره.

وشعوره الطاغي أن اكتشافات الانسان العلمية والكونية والأدبية والدينية، لا تساوي الاكتشاف الذي توصّل إليه، والاقتناع الذي ترسّخ في صدره.

وفي يقينه أن هذا الاكتشاف ـ الاقتناع سيتحوّل الى مجد عظيم من أمجاد العرب العظيمة. مجد يستطيع أن يمحو من صدور العرب الشعور بالضعف والعجز، وأن يغفر لهم خطيئات الغفل أو التغافل، والجهل أو التجاهل. وأن يغطّي كل ما في تاريخهم من كذب ونفاق ودجل وافتضاح.

ومن المحتوم أن البروفسور يعرف جيداً قيمة الاقتناع الذي ترسّخ في صدره، والاكتشاف الذي توصّل اليه. ويعرف أيضاً قيمة الخدمة التي قدّمها للآخرين الذين يبدو أنهم تمنّوا عليه أن يقدّم لهم هذه الخدمة الجليلة.

ومن المحتوم أيضاً أن الآخرين يعرفون معرفة جيدة ضخامة هذه الخدمة لمشروعهم أو للتاريخ الآتي، الآتي لا محالة، لأنهم هم الذين يصنعون التاريخ، بخلاف الأقوام والأمم الأخرى التي يصنعها التاريخ.

وانه لواجب أن يجزوه على عمله جزاء ملائماً، كافياً، وعادلاً. ولكن كيف يكون الجزاء كذلك؟. أنا لا أستطيع أن أعرف، ولا أن أخمّن كيف يكون، أو كيف يمكن أن يجزى مَنْ دأب من أول سطر في كتابه الى آخر سطر، على تزوير التاريخ وتحريف الحقائق ومسخ الاسماء. مَنْ تفتّق ذهنه عن غرائب البراهين وعجائب التبريرات دعماً للمقولة التي طرحها أو النظرية التي تبنّاها. مَنْ تميّز بموهبة خارقة في مسألة خلط العصور واختلاق الأصول. وفي مسألة تحويل الاسماء الميثولوجية الى اسماء تاريخية. وفي الاصرار الشديد على تجاهل التاريخ وطمس الحقائق. وفي الالتزام بمبدأ التعمية والتمويه والخداع الفكري. وفي الاجتراء على العقل والحقيقة. والاجتراء الاجتراء على تهميش أو تهشيم رصانة العقل العربي، وتحطيم حصانة العرب الفكرية.

مَنْ استغلّ موسّعات العربية جميعها، من التصحيف والتحريف، الى القلب والابدال. ومنه الى النحت والاحتباء، فالدواخل والكواسع، فالى التمحّل في التأويل والتفسير. وفتح باب التسامح في التوليد والاشتقاق على مصراعيه، وكذلك باب التوسع في الاستعمال والاطلاق. وأهم من هذين البابين باب التوكيد بمختلف أساليبه وأدواته، حتى ليندر أن تخلو فقرة واحدة في كتابه منها. وتوسّل في اسلوبه أو منهجه، على رجاء التوكيد، بالانتقال من التخصيص الى الاطلاق، ومن التبعيض الى التعميم. وكثيراً ما ينتقل، وعلى رجاء التوكيد أيضاً، من الترجيح الى اليقين. إذ غالباً ما يبدأ بعرض فكره أو رأيه في معرض

الارتياب أو الترجيح. ثم يكرّره مراراً. وفي كل مرة يقرض شيئاً من الالفاظ، وينحّي بعض الأدوات التي تدل على الأرجحية. ثم لا يزال يفعل ذلك حتى لا تمرّ بضع صفحات إلا وقد تحوّل الأرجح يقيناً لا يشوبه أدنى ريب (انظر مثلاً ما فعله بعسير وجرار وتهامة والاردن واسرائيل وملك صدق. . والشواهد كثيرة). ذلك كله وغيره ليقنع القارىء بـ «أن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن» ص ١١ وبأن «ملكاً قد كان لبني اسرائيل بين القرن الحادي عشر والقرن السادس ق.م. في بلاد السراة أي في جنوب الحجاز وفي المنطقة المعروفة اليوم بعسير» ص ١٢ «وأن أرض التوراة كلها كانت في غرب شبه الجزيرة العربية، وذلك في منطقة بطول ٦٠٠ كم وبعرض ٢٠٠ كم تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز» ص ١٧ وأن «اليهودية لم تولد في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية. ومسار تاريخ بني اسرائيل كان هناك، في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر» ص ٢٨ و «أن أرض يهوذا التوراتية، كموطن لبني اسرائيل على وجه العموم، كانت تضم المنحدرات البحرية لعسير وجنوب الحجاز حتى مرتفعات الطائف» ص ١٥٦ «وأن أرض يهوذا يجب البحث عنها في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر» ص ١٧٤ (تأمل: أرض يهوذا يجب البحث عنها في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر). «وأن الأرض التي تمكن بنو اسرائيل من السيطرة عليها واقامة دولتهم التاريخية فيها كانت بالفعل أرضاً موعودة لجدهم ابراهيم من الرب يهوه. وكانت هذه الأرض تمتد من منطقة جيزان عن حدود اليمن الى وادي أضم ومرتفعات الطائف في جنوب الحجاز» ص ٢٦٠ وأن. . وأن. . (وقد أشرنا مراراً وتكراراً الى مثل هذه الأقوال ـ المزاعم. واذا كان ثمة مأخذ لدى معطّلي العقول، فمعذرة).

وباختصار، كيف يمكن أن يُجزى من لفّق مثل هذه الأقوال، وضمّنها في كتاب كأنه، في الغرب والشرق، علم على رأسه نار.

هذه وجهة نظر المؤرخ كمال الصليبي. أما القارىء فاثنان: واحد يتمثّل بذلك المثقف الذي يفتقر الى معاناة الغضب والرفض والاحتجاج. وبالتالي يعجز عن استقراء ما في كتاب الصليبي من حماقات وأكاذيب وتلفيقات. يتمثّل

بتلك المجموعة من المتثقفين الذين فقدوا صواب الرؤية ونعمة التفكير، وهم يحتفون بتفاهات الصليبي، وقد حوّلوا وقارهم وذكاءهم الى أدوات عرض وتعابير تبجيل لغباوات الصليبي وسخافاته وتدجيلاته. يتمثّل بذلك المثقف (أو من يزعم أنه مثقف) الذي لا يغضبه كتاب الصليبي، أو يبارك ما جاء فيه، أو يكيل للصليبي عبارات الاطراء والثناء، أو يكنّ لكتابه كل مشاعر الرضا والاستحسان. ولدى سؤاله، يحاول أنْ يعبّر عن رضاه بكل لغات الرضا. يتمثّل بجماعات ممن ينعتون أنفسهم أو ينعتهم الآخرون بأنهم من كبار المثقفين، صدّقوا، دون تروٍّ، أقوال الصليبي وآمنوا بكلامه ورفعوه سماء وردّدوا صيته كالببغاء دون فقه ولا بحث. فكانوا خير مثل لمن فقدوا صواب الرؤية ونعمة التفكير، في استعدادهم للتصديق والانقياد، والنكوص عما يمليه العقل من وجوب التفكير والتأمّل والتروّي والتساؤل. يتمثّل بأولئك الصبيان، أدعياء الأدب، الحافين من حول الصليبي والمتملّقين له. الذين تحوّلت أذهانهم الى أوعية تتجمّع فيها أبشع ضروب التلفيق وأندر أنواع الغباوات وأشنع أشكال الجهالة في التاريخ. وتتسع لكل بصاق المصابين بأمراض الجهل المتعفّن، والساقطين الى أعمق مهاوي الخسّة والنفاق. الذين تلتهم عقولهم، بكل شهية، كل ما يعرضه الصليبي، بكل مجد وكبرياء، من العيوب والنقائص ومن العفن التفسيري والتأويلي. تأمّل ما يقوله أحدهم[٧٤]: «إن كتاب الصليبي هو أشبه بالموقف الاجباري الذي اعترض بديهيات سائدة». ويضيف صاحبنا المؤيرخ إنه وضع كتابه «تدعيماً لاطروحات الصليبي» ص ١٤ «الذي أيدناه في اتجاهه عبر كتابنا «التوراة في التاريخ واللغة والثقافة الشعبية».

وتأمل ما يقوله آخر[٧٥] «إن كتابي يرتكز بالطبع في المقام الأول على موضوعة الاستاذ الصليبي، أي اني اعتبر بحثي هذا، إذكاء للنقاش حول هذا الموضوع، واضافة لأعماله» ص ١٦ ويضيف المؤيرخ الحافي بالصليبي «إني انظر الى هذا المؤلف (كتابه) كاستكمال أو اثراء لموضوعة كمال الصليبي». ص ٢٠٦

وتأمّل ما يقوله حامل يراعة مرضوضة[٧٦] «إن كتابات الصليبي تثير الاهتمام والانتباه والجدل لما تحمله من قدرة على التصور والتحليل والخروج بنتائج جديدة ونظريات تخلخل الكتابات السائدة. ويجمع في كتاباته المقاييس

الأكاديمية الدقيقة والربط المعرفي المفتوح الأفق. وقد تميّزت مؤلفات الصليبي بالرصانة والجدية والمعرفة المعمّقة المتكاملة».

وتأمّل من جديد بهذا الخلط والخبط، وما يتضمّنه من اشادة بـ «نظريات الصليبي التي تخلخل الكتابات السائدة (كذا) وبمؤلفاته التي تميّزت بالرصانة و..

الواقع ان كتابة هذا الكويتب تفتقر الى أبسط مقومات الكتابة: التركيز والتعيين والوضوح. ومن الجلي أن تركيب الجملة فيها مريض وسقيم. وليس هناك ترابط بين الجمل. فما معنى المقاييس الاكاديمية الدقيقة؟. وما معنى الربط المعرفي المفتوح الأفق؟. إنها حذلقات تركيبية تافهة وسخيفة، وكتابات سطحية متعالمة. إنها أشبه بكتابات صبيان الكتاتيب، ولعلها أشبه ما تكون بالشعر العربي الحديث (أو ما يسمونه شعراً) الذي لا يتضمّن من مقومات الشعر شيئاً على الاطلاق.

وهذا الكويتب اتخذ المداهنة ديناً والمحاباة ديدناً. تأمل ما يقوله في رائد أكبر عملية تلفيق عرفها التاريخ «بقي الدكتور الصليبي مدققاً في نظرته ومتجرداً في موقفه، لذلك جاءت جهوده اضافات وآفاق وأضواء جديدة. ومع الصليبي نكتشف التاريخ بتصور متماسك ومعالجة متميّزة وفرادة قل نظيرها».

مؤيرخ[٧٧] آخر اتخذ المداهنة ديناً والمحاباة ديدناً. تأمّل ما يتحدث به عن «نظرية الصليبي» التي «هي قلب لمعظم الثوابت التاريخية». وعن «فضله الكبير على الفكر العربي الحديث». وعن «كتابه الباقي كموقف جرىء، كبادرة محرّضة للفكر الاتباعي المحافظ». و «كمحاولة علمية رصينة وموقف جرىء وسابقة محرّضة على النقد في أقصى حدوده الممكنة».

ويضيف صاحبنا المؤيرخ «إن المطلع على خفايا كتاب الصليبي وأدق تفاصيله وأفكاره، يدرك مدى الجهد العلمي المبذول لاكماله. ومبلغ ما رصد له من تحقيق وصبر وأناة. وما وراءه من ذخيرة علمية وفكر مرتب، مما جعله بحق مثالاً في البحث المنهجي المنظم».

تأمل ما تعمل المحاباة والمداهنة، أو ما يعمل القصور والتقصير، أو الغفل والجهل. أو ما يعمل الهوى في النفس اذا ران على القلب، فإنه يعمي ويصم، ولا يفيد في صاحبه الرقى ولا التعزيم ولا الاصلاح ولا التنبيه. وغالباً ما تكون

عينا هذا الصاحب حفراً تسقط فيها كل الدمامات وكل العاهات وكل الغباوات وكل التشوّهات وكل العبث والتفاهات. والسؤال: كيف لم تنفجر عينا المحابي المداهن بالتشوّهات والتلفيقات والسقطات التي لا ينكرها إلا من أعمته الغايات وحطّته الى أسفل الدركات.

وفي تعبير صاحبنا المؤيرخ عن سعادته بمطالعة كتاب الصليبي يقول «نحن نزجي الشكر للدكتور الصليبي على الاوقات الممتعة والمضنية التي بذلناها في مقابل جهده الكبير. وعلى الفرصة التي أتاحتها لنا مبادرته لوضع كثير من الأمور في نصابها».

أما القارىء المستنير فمحكوم عليه بعذاب الغضب والرثاء والاشمئزاز حين يضطر الى قراءة كتّاب أو مؤرخين لم يجدوا وسيلة يعرضون بها كل ما في نفوسهم من قصور وسخف وانحراف، غير الكلمة. ولذلك فان المثقف المستنير لا يطالع كتاب الصليبي إلا يعود غارقاً في عرقه لما كابده من العثرات والسقطات والتشوّهات، أو لما أنفق من الجهد والعناء لتفهّم أشكال التلفيق والتدجيل التي لعظمها وقبحها وشناعتها، تُشقي القارىء المستنير بمشاعر الانكار والاحتجاج.

ولكن المؤسف أن ندرج الدكتور سيد القمني بين أولئك الصبيان، أدعياء الأدب، الحافين من حول الصليبي والمتملّقين له، الذين يُشيدون بكتاب الصليبي ويكنّون له كل مشاعر الرضا والاستحسان. فهذا المفكّر، كما فهمت من كتاب واحد له[٧٨]، يعتنق الصراحة ويعلن الحقيقة. ويتميّز في بحثه بالرصانة، وفي تفكيره بالعمق. وقد كثرت حوله التعليقات التي تقرّر أنه واحد من قلة لا تخاف من تسليط ضوء العقل الكاشف على ارثها الديني والتاريخي. وهذه القلة النادرة في هذا الجيل، سوف يقولون عنها في مستقبل الايام إنها حاولت أن تنفض الغبار المتراكم فوق ذهنها منذ أجيال وأجيال.

ومع أن صاحبنا القمني يتحدث في كتاباته عن النفوس المهزومة والاذهان المستلبة. ويرى أن مشكلتنا هي في الوعي الغافل أو المدجّن. وأن شبابنا يعانون من ضحالة الثقافة وضمور الوعي وغفلة الذهن، فقد تهاوى في مهواة أولئك المؤيرخين، الحافين من حول الصليبي. فصاحبنا المفكر المستنير يرى في طروحات الصليبي «نظرية» و «كشفاً خطيراً» ص ١٧٣ وهو يعبّر عن رضاه

«عما قدّمه الصليبي من جهد وقرائن على نظريته، الأمر الذي يجعل من فساد الرأي التغاضي عنها عند بحث شأن من شؤون الجماعة الاسرائيلية» ص ١٧١ وعن «الجهد المبذول باخلاص في هذا العمل الثري» ص ١٨٠ وعن «الثقة في قدرة الصليبي المتبحّرة في هذا الجانب». ص ١٨١

وما يتحدث عنه القمني من «نظرية، ومن كشف خطير، ومن جهد مبذول في هذا العمل الثري» «أبهر مثقفينا» ص ١٨٠ كما يقول القمني «وكان هذا الحماس الغريب في أوساط مثقفينا للصليبي». ص ١٨٨

من المؤسف أن يصل القمني الى هذا الدرك. وكان عليه أن يدرك أن هؤلاء المثقفين أو المتثقفين الذين «أبهرهم» كتاب الصليبي، وترك في «أوساطهم حماساً غريباً» يعانون من غيبة الفهم ومن ضحالة الثقافة، والحرمان من نعمة التفكير. وهم يعيشون في سلام وتوافق عقلي مع كتابات الصليبي التي تفقأ الحصرم في عيني الواعي أو المستنير. ومثل هؤلاء المتثقفين هيأوا لمؤيرخ أن يقرأ تفاهاته وعاهاته ونقائصه بأعلى صوت وفي جميع الاسواق والنوادي والجامعات، وأن يقرأها قراءة عالمية.

والمدهش الى حد الانبهار أن نفراً من المؤيرخين الذين ينعتون أنفسهم، أو ينعتهم الآخرون، بالبصراء الحذّاق، هم على الحقيقة جهلة مغرورن، لا يعرفون القراءة بباصرتين واعيتين، ولذلك خُدعوا بأوهام الصليبي وأباطيله، فوضعوا المؤلفات اقتفاء واتباعاً، وزادوا عليه في تعدّد الطروحات وتراكم التناولات. ففرج الله صالح ديب مثلاً وضع كتاب «حول اطروحات كمال الصليبي» وكتاب «التوراة في التاريخ واللغة والثقافة الشعبية» وكتاب «كذبة السامية وحقيقة الفينيقية». وزياد منى وضع كتابه «جغرافية التوراة ـ مصر وبنو اسرائيل في عسير». أما فراس السواح فوضع كتاباً عن «نظرية الصليبي» تحت عنوان «الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم»، لا ندري أهو ردّ وتفنيد أم اطراء وتمجيد، وعلى أي حال فان الكتاب يُلخّص بجملتين: الأولى أنه يصح فيه القول: أصلح ذلك الفتق بهذا الرتق. والقول الثاني: أنه فسّر الماء بعد ٣٤٤ صفحة بالماء.

واذا كان الصليبي قد اقتلع أرض فلسطين، بمظاهرها الطبيعية وبمدنها العريقة في التاريخ والحضارة، من ساحل المتوسط الشرقي. وزرعها، بعملية

جبرية قاهرة، في غرب شبه الجزيرة العربية. فقد جاء بعده من زرع أرض فلسطين في بلاد اليمن. ففرج الله صالح ديب يقول في مقدمة كتابه «التوراة العربية وأورشليم اليمنية»: «نهدف من أبحاث هذا الكتاب الى تبيان أن مسرح قبائل التوراة كان في اليمن وفي محيط صنعاء». وفي ص ٣٤ يقول «إن كتابنا يثبت المسرح التوراتي حول صنعاء في اليمن». وفي ص ٣٦ يقول «كان مسرح التوراة حول الأحقاف وشمال اليمن».

والحقيقة أن المسألة لدى مثل هؤلاء المؤيرخين هي مسألة جهل ووعي غافل أو غائب أو مستلب أو مهزوم. وليس من المبالغة في شيء القول إن الجهل والتجهيل والغفل والتغافل يخيّمان من كل جانب في ثقافة مثل هؤلاء القوم. وكل ما كتبوه في هذا الباب كتبوه بأقبح صورة وأشنع تصحيف. وكل ما جاؤا به من تكلّفات وتشوّهات وتفيهقات يدل على أن هؤلاء الكتاب رغبوا في اضاعة أعمارهم وجهد أذهانهم بلا جدوى ولا طائل، كما يقول أحدهم في فاتحة كتابه.

هذه وجهة نظر أحد القارئين. أما القارىء الآخر فهو المستنير الذي يفهم ويتفاهم مع هذا الكتاب.

وبعد.. فيا حضرات المؤيرخين واللغيويين (الصليبي والحافين به) بيعوا بضاعتكم الى القائمين على الأمر في مؤسسة الأبحاث ومؤسسة نوفل ومؤسسة رياض الريّس، الذين فتحوا أفواههم مبهوتين بعلمكم الغزير المتدفق كالسيل الجارف، حتى انهم قالوا عنكم ما قالوا. ولن تعودوا بالخزي والكبت إذا ما عرضتم بضاعتكم على ابناء هذا العصر الذين يعسر عليهم، جهلاً وغفلاً وقصوراً، تفلية أقوالكم وأفكاركم وتزييفها.

ومن جهتي، فهذا ما هيّىء لي أن أنبّه عليه من تلك المخازي والمعايب والمشاين والمقابح. وقد اضطر الناقد الى أن يدجج قلمه بشيء من خصائص الفؤوس والمعاول ليسخره في تحطيم بعض الهياكل الفارغة التي بنيت في الهواء ولم تشتمل إلا على هواء.

وكأني أراك تؤنبني قائلاً: إنك لا تراني في ما أكتبه إلا عابساً مكشّراً، ناعياً على المؤرخين جهلهم وعلى القرّاء غفلتهم. ولكن لا تنس أن الناقد المستنير لا يمكن أن يكون إلا حزيناً وقاسياً، خاصة في اثناء فضحه لأكبر عملية تلويث

وتذليل هائلة لذكاء الانسان ولكبريائه العقلية. ومن أراد وجه الحقيقة فمن العيب أن يسكت على ما لا يصح السكوت عليه. وعلى أي حال فنحن لا ننقد لنشتم أو لنهجو، بل لنعالج، لنحوّل نقدنا الى أسلحة مقاتلة ضد الغافلين والمغفلين. واذا نقدنا المؤرخ كمال الصليبي بقسوة فلأننا نتألم له وللمجتمع الذي هلّل لكتابه. ومن الطبيعي أن القارىء المستنير لا يمكن أن يكون إلا حزيناً وناقداً قاسياً. واذا بدرت منّا كلمات نابية نحو الصليبي للتعريض باقباله على الكتابة في موضوع لا يفهم فيه شيئاً على الاطلاق، فقد أردنا بها التنبيه الى وجوب دراسة الموضوع الذي يتوخّاه درساً دقيقاً. والى ضرورة التجافي عن الاسلوب الظنّي أو الملتوي في الأمور التاريخية الثابتة.

وكلمتنا الختامية الى الاستاذ الدكتور كمال الصليبي: صحيح أن كل شيء يتحول الى كلام. ولكن الكلام لا يتحوّل الى شيء. وصحيح أن كمال الصليبي حوّل أرض فلسطين من ساحل المتوسط الشرقي الى ساحل البحر الأحمر الشرقي (كلام). ولكن ساحل البحر الأحمر الشرقي (كلام) لا ولم ولن يتحوّل الى أرض فلسطين (شيء).

الهوامش

(١) انظر فراس السوّاح - الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم. ص ٦ منشورات علاء الدين. دمشق. من دون تاريخ. وسليمان بختي - إشارات النص والابداع. ص ١٧٦ دار نلسن. السويد ١٩٩٥ وسيّد القمني - رب الزمان. ص ١٧١ دار قباء القاهرة ١٩٩٨.

(٢) انظر ما كتبه في هذا الموضوع:

E. Renan, Histoire générale de Langues semitiques, Paris 1850 P. 31.

H.B.Philpy, The background of Islam, Alexanderia 1947.

A. Clay, The Empire of Amorites, Philadelphia 1919.

A. Clay, Amurru, The home of the northern semitic, N. Haven 1919.

G. Contenau, La civilisation phénicienne, Pairs 1949 P. 8, 34.

A.H. Sayce, Assyrian Grammar, London 1887 P. 13.

R.W. Rogers, A history of Babylonia and Assyria, N.Y. 1915 P. 306.

L.B. Paton, The early history of Syria ans Palestine, N.Y. 1901 P. 6.

S. Moscati, Ancient semitic civilization, London 1957 P. 24, 36.

(3) A. Toynbee, A study of history, Oxford 1955 P. 22.

(٤) موسكاتي - الحضارة السامية القديمة ص ٣٧.

(5) A. Book; P. Slasson; H. Anderson, World history, U.S.A. 1942 P. 35.

(٦) يعرض المؤرخ الإيطالي ساباتينو موسكاتي آراء هؤلاء المؤرخين في كتابه: The World of the phoenician, London 1968 P. 4.

(7) W. Keller, The Bible as history, London 1980 P. 79.

(٨) موسكاتي - عالم الفينيقيين ص XXI.

(9) Dupont Sommer, les Araméens, Paris 1949 P. 27.

(10) R. Dussau, La civilisation phénicienne, Paris 1949.

(١١) التعبير لدوستويفسكي في مقالاته «المسألة اليهودية» التي كان ينشرها عام ١٨٧٧ في زاوية مفكرة كاتب.

(١٢) أوجزنا القول في معارك الغزو وعمليات التسلّل في كتابنا «سقوط الامبراطورية الاسرائيلية».

(13) E.H. Weech, Civilization of th neareat, London 1936 P. 82.

(14) H.G. Wells, The out line of history, N.Y. 1921.

(15) H.G. Wells, A short history of the world, London 1938.

(16) M. Eliade, Patterns in comparative religion, London 1967 P. 38.

(١٧) انظر ما كتبه في هذا الموضوع المفكر اللغوي الكبير أ.س. مرمرجي الدومنكي في مؤلفه «المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية» القدس ١٩٣٧.

(١٨) تجد مثل هذه المفاهيم، وهي كثيرة، في النصوص التي وصلتنا عنهم بغالبيتها. انظر مثلاً النصوص التي صنّفها: J. Pritchard, Ancient neareastern texts, Princeton 1969.

(19) M. Eliade, Aspests du mythe, Paris 1963.

(20) Lucian, The Syrian Goddess (Trans.) H. Strong, London 1913 P. 43.

(٢١) بشأن تطوّر الصيغة «ايل» الى الله، وتحوّل الصفة الى اسم، انظر كتاب «تاريخ الله» و «محمد واليهودية» لمؤلف هذا الكتاب.

(٢٢) هذه الآراء وأمثالها مبثوثة في كتب الصلوات المسيحية. ولا ينسب الواحد منها الى مؤرخ أو مصدر معيّن.

(23) H. Holzinger, Exodus, Tübingen 1900 P. 7.

(24) J. Welhousen, Israelitische und Jüdische Geschichte, Berlin 1895 P. 22.

(25) Robert Graves, The white Goddess, London 1984.

(26) S. Langdon, The Babylonian epic of creation, Oxford 1923.

(27) R.P. Dougherty, The sealand of ancient Arabia, N. Haven 1932.

(٢٨) كلاي ـ أمورو، موطن الساميين الشماليين.

(29) Donald Mackenzie, Myths of Babylonia and Assyria, London 1940.

(٣٠ و٣١) موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ١٢١ و٩٨.

(٣٢) ويلز ـ تاريخ مختصر للعالم ص ٣٦.

(٣٣ و٣٤) موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٢٣٠ و٦.

(35) Jacques pirenne, Civitization antiques, Paris 1951.

(36) V. Durant, The story of civilization, N.Y. 1935.

(٣٧) برن ـ المرجع السابق ص ٥٧.

(37) Diodoru Siculus, Diodorus of Cicily (trans.), C. Sherman and C. old father, Cambridge 1959, P. 630.

(38) F. Benz, Personal names in the phoenician and punic inscriptions, Rome 1972.

(39) M.T. Larsen, The old Assyrian city - state and its Colonies, Copen Hagen 1976.

(40) E. Chiera, Lists of personal names from the temple school of Nippur, Philadelphia 1916.

(٤١) كلاي ـ أمورو، موطن الساميين الشماليين.

(42) I. Gelb; P.M. Purves; A. Machae, Nuzi personal names, Chicago 1963.

(43) J. Gibson, text - book of Syrian semitic inscription, Oxford 1975.

(44) AT. Olmstead, History of Palestine and Syria, London 1931.

(45) Alb. Van Den Branden, Les inscriptions Dédanites, Beyrouth 1962.
(46) W. Caskel, Lihyan nnd Lihyanisch, Berlin 1953.
(47) G. Ryckmans, Les nomes propres sud-Semitiques, Louvain 1934.
(48) W.F. Albright, The role of the canaauites in the history of civilization, N.Y. 1961.
(49) J.G. Frazer, the golden bough, London 1976 P. 429.
(٥٠) المرجع السابق ص ٤٣٠ وموسكاتي - عالم الفينيقيين ص ٣٣.
(51) Strabo, The Geography (Trans.) by H.L. Jones, London 1966.
(52) V. Berard, Les Phoniciens et L'odyssée. Paris 1902.
(53) T.J. Dunbaben, The Greeks and Their eastern neighbours, London 1957.
(٥٤) د. جورج عطية - مباحث في المدينة الأولى - بيروت ١٩٥٦ ص ٢٥.
(55) A. Parrot, Sumer, London 1960.
(56) G. Childe, New Light on the most ancient east, London 1952.
(٥٧) موسكاتي عالم الفينيقيين.
(58) F.C. Movers, Die phoénizier, Berlin 1841.
(59) G. Botsford, A history of the ancient world, N.Y. 1914.
(60) Jacques Cauvin. les premiers villages de Syrie - Palestine du IXème AU VIIème Millenaire avant J.C. المدن الأولى في سوريا بين الألفين التاسع والسابع ق.م. ترجمة قاسم طوير دمشق ١٩٨٤.
(61) R. Linton, Tree of culture, N.Y. 1955.
(62) J. Breasted, The Conquest of Civilization, N.Y. 1938.
(63) F. Poulsen, Der orient und die Frueh grieschische Kunst, Berlin 1912.
(64) L. Droepfeld, Alt olympia, Berlin 1935.
(٦٥) انطون مورتغات - تاريخ الشرق الأدنى القديم. برلين ١٩٥٠ (بالالمانية) ترجمة سليمان وطوير. دمشق ١٩٦٧.
(66) Lucian, The Syrian Goddess (Trans.) H. Strong, London 1913.
(67) J. Fonterose, white Goddess and Syrian Goddess, University of California's, publication in semitic philology Vol. 11, 1951.
(68) S. Moscati, An introduction to the comparative grammar of the Semitic Languages, Wiesbaden 1964.
(٦٩) د فيليب حتي «اللغات السامية المحكية» بيروت ١٩٢٢ ص ٢١.
(٧٠) توينبي «دراسة التاريخ» هامش ٣.
(71) E. Renan Histoire génerale de Langues semitique, Paris 1850.
(٧٢) أبو الخير بن عمّار الطائي - كتاب العروج في درج الكمال، والخروج من درك الضلال «تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي». طبع في بغداد ١٩٠٨ ص ٨.
(٧٣) انظر ما فصّلناه في الاسماء في كتابنا «تاريخ الله».

(٧٤) فرج الله صالح ديب «حول اطروحات كمال الصليبي» بيروت دار الحداثة ١٩٨٩ ص ٧.
(٧٥) زياد منى «جغرافية التوراة» لندن ـ منشورت رياض الريس ١٩٩٤.
(٧٦) سليمان بختي ـ اشارات النص والابداع ـ دار نلسن السويد بيروت ١٩٩٥.
(٧٧) فراس السواح هامش رقم ١.
(٧٨) سيد القمني «رب الزمان» القاهرة دار قباء للنشر ١٩٩٨.

كلمة من القلب

وختاماً، قد يتهمني القارئ بأني أشبعت البحث قولاً وأتخمته تكراراً. وقد يستغرب ما تعرّضت له أو ينكره عليّ. مهلاً ففي الأزمات المصيرية يبدو التأكيد على انارة ناحية في مسيرة التاريخ، ظلّت معتمة، أو حرص القائمون على الأمر في كل عصر أن تبقى معتمة أو غامضة أو مبهمة، نوعاً من الكشف للمجهول. ويبدو تثبيت بعض القيم والمفاهيم من الخطر والشأن أكبر من إخراج المعجزة ومن إلحاح الخبز اليومي. بلى أكرر وأكرر لأن دعوتي في مؤلفاتي الأخيرة «تاريخ الله» و «تاريخ يهوه» و «الأصولية المسيحية»، لاخصاب الأذهان المخصيّة وتفعيل العقول المعطّلة. ولتنقية تراث سوريا الطبيعية من عمليات التزييف الهائلة، وتخريف الحقائق التاريخية، وقعت على آذان صمّاء أو في أرض حجرية. كما أن سعيي جاهداً أن أجعل من البحث التاريخي محاولة لفهم الحقيقة التاريخية، قوبل بفهم غائب أو مغيّب، وبعقل عاطل أو معطّل، وبتفكير مشلول أو مهزوم. أو لأن العيون التي مرّت على كلماتي هي عيون رمداء، أو عيون.. (يمكن أن نتابع القراءة في كتاب محمد واليهودية ص ٤٦٠).

بما أن كتاب الصليبي نُشر في العالم الغربي بأكثر من لغة، يتمنّى المؤلف أن يُنشر هذا الكتاب باللغات ذاتها. وفي حال رغبت وزارة في دولة عربية، أو مؤسسة ما، أو فرد مستنير، أو من أنعم الله عليه بالثراء الفكري والمادي، أن يترجم هذا الكتاب، فإن المؤلف مستعد وفي أقل من شهر أن يعيد صياغة هذا الكتاب بما يتناسب والعقلية الغربية. وبورك بمن استنار فأنار.

فهرست

مقدمة ٩

المجتمع والتجمّع ١٧

ـ الأرض ومجتمعاتها ١٨

ـ التجمّع الاسرائيلي في أرض فلسطين ٢٣

الخلط بين المعتقدات الطبيعية والديانات التاريخية ٧٤

المعتقدات الغيبية لدى المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية ٧٧

ـ الديانة التاريخية الأولى ٨٦

ـ المعتقدات الطبيعية والديانات التاريخية ١٠٢

مدن كنعان ١٢٩

امارات وممالك أرام ١٤٨

الفلسطينيون ومدنهم ١٥٣

المملكة الاسرائيلية في غرب شبه الجزيرة العربية ١٧٠

ـ يهودا في عسير ١٧١

ـ أورشليم اللغز ١٧٧

ـ مسخ التراث ١٨١

ـ جرار ١٩٤

ـ تهامة وتهوم ١٩٨

شواهد من عمليات التشويه والتحريف ٢٠٢

آلهة الصليبي ٢٢٠

الصليبي يزرع اليهود، تاريخاً وديناً، في غرب شبه الجزيرة العربية ٢٢٨

خاتمة ٢٤٩

وبما أن مجتمعنا مريض بضحالة الثقافة وقصور الوعي وغيبة الفهم، فهو محتاج الى علاج. وما علاجه سوى الانتقاد. وبما أن الصليبي كتب كتابه بمستوى من الغفلة أو من الخبث أو من الجهل، وأفعمه بالتلفيقات القميئة والتمحّلات البذيئة والتعاليل المريضة، فطمس الحقائق وحقن الأتباع بالأضاليل، حتى لقد أصبحت تشوهّات المؤرخ وعاهاته وبذاءاته لامعة مدوّية، ومقروءة بلغات كثيرة، ومطروحة في جميع الأسواق. وبما أن العبد الفقير كاتب هذه السطور يريد وجه الحقيقة، ويرى من العيب السكوت على ما لا يصح السكوت عليه. وبما أنه حزين لأنه يعاني بعاطفته وتفكيره، ولا يستطيع أن يرفع صوته محتجّاً ضد الغفل أو التغافل، الغباء أو التغابي، الجهالة أو التجاهل. وبما أن منطقه لا يستطيع أن يغفر للجاهل جهله، وللأستاذ الجامعي قصوره الذهني، وللانسان الذي خلقت فيه الطبيعة أو الآلهة عقلاً، ولكن من دون أن تكون له رغبة في التساؤل والنقد، أو قدرة على التفكير والتنظير. وبما أن، وبما أن.. اضطر أن يدجج قلمه بشيء من خصائص الفؤوس والمعاول لتحطيم بعض الهياكل الفارغة التي بنيت في الهواء ولم تشتمل إلا على هواء.

(من المقدّمة)

$ 8.00